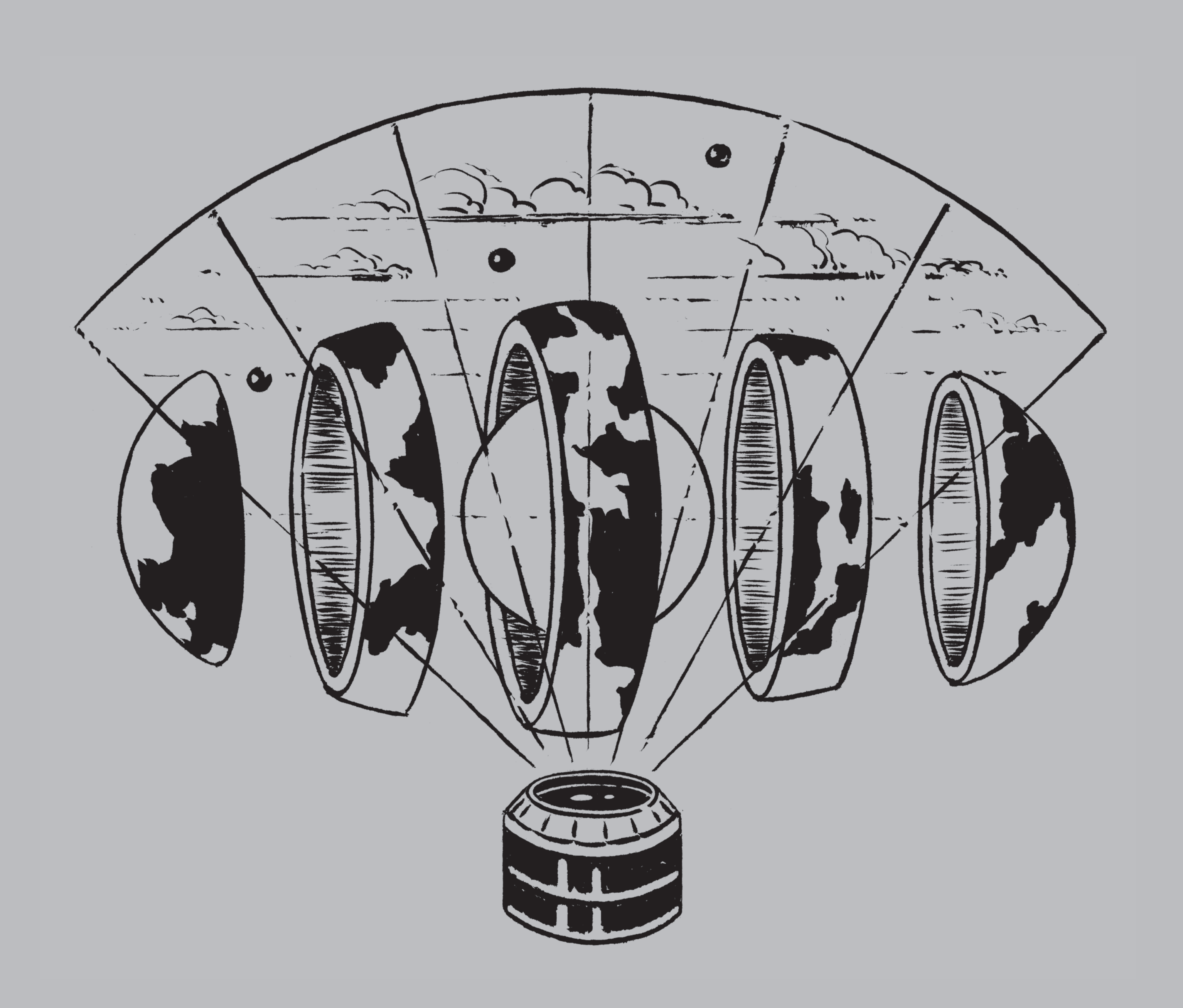


الثقافة والمناخ

اصدارات معهد غوته



«وكأنه إنساني»
لوحة للفنان: Benedikt Rugar, 2012
من مشروع: Anthropozän
Haus der Kulturen, Berlin, 2013

الافتتاحية

يعتبر التغير المناخي وتلوث البيئة من أكثر مشاكل عصرنا الحاضر إلحاحا، ليس في الغرب أو الدول الصناعية فحسب، بل في كل أنحاء المعمورة. إذ تنبع من هاتين الظاهرتين مخاطر جمة تتطلب الحزم، الذي تفتقد إليه الإنسانية حتى الآن. وأسباب ذلك عديدة ومتنوعة، وهي ليست كلها مادية تتعلق بالطبيعة، بل هي ثقافية أيضا.

وهذا الجانب بالذات، أي تقاطع البيئة مع الثقافة، هو موضوع ملف العدد الجديد من «فكر وفن»، العدد ٩٩. وقديما كانت القاعدة تقول: المناخ والبيئة يطبعان الإنسان وثقافته بطابعهما. هذه النظرية موجودة عند فلاسفة العصور القديمة والعصور الوسطى، وكذلك عند المؤرخين وعلماء الجغرافيا، وفي العالم الإسلامي أيضا.

اليوم تبدو الأمور وكأنها تسير بشكل معكوس، بمعنى أن الإنسان وثقافته يؤثران في المناخ والبيئة. من هنا أخذ الحديث يكثر عن عصر «الأنثروبوسين» أو العصر الجيولوجي البشري. وهي المرة الأولى من نوعها في تاريخ الأرض، التي أصبح فيها الجنس البشري قوة لها كل هذه السيطرة الجيوفيزيائية على المعمور. كما أن تسمية عصر جيولوجي جديد كهذا، يعد اعترافا علميا بمشاركة البشر لبقية القوى الطبيعية الأخرى في مسؤوليتها عن الحالة البيئية لكوكبنا. وتتناول مقالة عالم غرابوفاك، المنشورة في ملف العدد، عصر الأنتروبوسين.

ويظهر أن الإنسان ترك أثرا في الطبيعة باستمرار، ليس هذا فحسب، بل حاول أن يجعل منها ظاهرة ثقافية أيضا. ولعل أسطع مثال على ذلك فن بناء الحدائق الإسلامية. وبشكل عام نستطيع القول: إن الثقافات التقليدية كانت قريبة جدا من الطبيعة وتعاملت معها بعناية شديدة. هذا الأمر ينطبق على الإسلام أيضا، كما تبين مونيكا زبيدي في مقالتها المثيرة المنشورة في هذا العدد من «فكر وفن» بعنوان «دعوة للجهاد البيئي». إذن نحن بحاجة إلى جهاد جديد، لكنه ليس بالجهاد المتعارف عليه، إنما المقصود هنا هو «الجهاد البيئي». المقالة تبين أن كل ثقافة، الثقافة الإسلامية أيضا بالطبع، تحمل عناصر تقليدية وتقنية، يجب إعادة اكتشافها لحماية البيئة.

وغالبا ما تفشل محاولات ومشاريع حماية البيئة، لأنها ببساطة مكلفة جدا. وفي المجتمعات الفقيرة، التي يعاني فيها البشر من الفاقة، نجد أن البيئة تكون الضحية الكبرى كما تبين ذلك مقالة تقي أخلاقي «أنا ألوّث، إذن أنا موجود» حول الوضع في أفغانستان. فالعلاقة الشخصية، أو التعامل الشخصي مع البيئة، الثقافة، والوضع الاقتصادي كلها عناصر مرتبطة ببعضها البعض.

بيد أن الغرب الغني يعاني بدوره من مشاكل بيئية، ولعل من أهم أسباب ذلك الإيديولوجيا القائمة على أولوية النمو وتفضيله. ويطالب الكثيرون من الباحثين الغربيين في مجالي الطبيعة والثقافة على السواء، بإجراء تغيير عميق في سلوك الإنسان وطرق العيش، بحيث يصل البشر إلى قناعة بأنهم يستطيعون العيش بسعادة، وربما بسعادة أكثر مع ثروات أقل. كلاوس ليغيفي وسوزانه شتيملر وتوماس ماخو يتناولون هذا الموضوع في مقالاتهم المنشورة في ملف هذا العدد. هم يصفون لماذا وكيف أنه من الواجب علينا أن نغير تصوراتنا حول طريقة عيشنا وعلاقتنا بالطبيعة.

وبالإضافة إلى ملف «الثقافة والبيئة» يتناول العدد ٩٩ من «فكر وفن» الأزمة السورية والموقف المزدوج لأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية منها. إذ ننشر الترجمة العربية للكلمة التكريمية التي ألقاها الباحث والمستشرق الألماني المعروف أودو شتاينباخ بمناسبة حصول المحامية والناشطة السورية رزان زيتونة على جائزة ابن رشد للفكر الحر، التي تمنحها سنويا مؤسسة ابن رشد في ألمانيا. في العدد ٩٩ مقالات متنوعة في باب إضاءات ومراجعة الكتب أيضا.

وأخيرا قراءنا الأعزاء، بإمكانكم أن تكونوا أصدقاء للبيئة من خلال قراءة النسخة الإلكترونية لهذا العدد الموجودة على الرابط التالي: www.goethe.de/fikrun. يمكنكم أيضا قراءة العدد في هواتفكم النقالة أو أجهزة الكومبيوتر اللوحي من خلال نسخة eBook.

الثقافة والبيئة

مونيكا زبيدي
٤ **دعوة للجهاد البيئي**
الحركة البيئية الإسلامية



سوزانه شتيملر
١٠ **„يجب علينا أن نزرع حديقتنا"**
نحو ثورة ثقافية خضراء

كلاوس ليغيفي
١٤ **التفكير بطريقة تناسب المستقبل الثاني**
تحول المناخ بصفته تحولا في أنماط عيش المجتمع

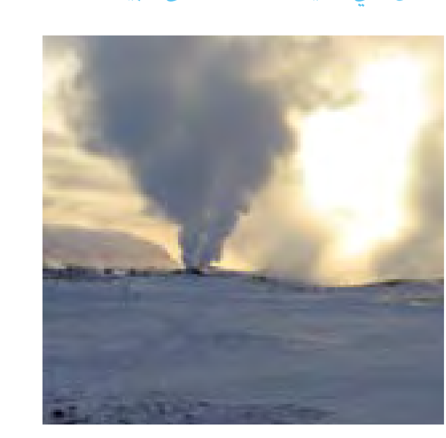


توماس ماخو
٢٢ **المناخ والمستقبل**
لماذا كل هذه الصعوبة في التعامل مع التغير المناخي؟

رولف ـ بيرنهارد إسيج
٢٦ **المناخ والإيكولوجيا والتكنولوجيا الخضراء**
كيفية انعكاس المشكلات البيئية على اللغة

إيليا ترويانوف
٣٠ **عن كتابي: «ذوبان جلدي»**
رواية عن كوارث التغير المناخي

إيكارت إيلرس
٣٤ **الحدائق في الإسلام**
هل هي تقليد للحفاظ على البيئة؟



تقي أخلاقي
٣٨ **أنا ألوّث، إذن أنا موجود**
الإشكالية البيئوية في أفغانستان



تقي أخلاقي
٤٣ **نحن جميعا نجلس في قارب واحد**
مقابلة مع كاظم هومايون

زياد الميمي ونضال كاتبة
٤٦ **البيئة والتغير المناخي**
فلسطين والمنطقة العربية مثالا

إيكارت إيلرس
٥٠ **تحول المناخ والطبيعة في الشرق**
هضبة إيران نموذجا

إيفا أورشبرونغ
٥٤ **عالم النفط على حقيقته**
الجانب المظلم في عمل مألوف



عالم غرابوفاك
٥٨ **الإنسان أم الطبيعة؟**
تصور الأنثروبوسين

ماريون روله
٦١ **„النساء أكثر تأثراً"**
مقابلة حول الجندر والتغير المناخي



إضـاءات

أودو شتاينباخ
٦٥ **الجرأة على الرؤية المتعددة**
بمناسبة حصول رزان زيتونة على جائزة ابن رشد



شتيفان فايدنر
٧١ **روح العصر**
ترجمة الشعر الشرقي ـ الإسلامي

كتب

لانا مجافيا
٧٥ **شعرية الغربة لشتيفان ميليش**
تجارب فلسطينية وعراقية

نورية علي تاني
٧٦ **لحظات أفغانية**
الخوف والحنين في بلد ممزق

شتيفان فايدنر
٧٨ **قبل أن يأتي الطالبان**
الكاتب الباكستاني جميل أحمد

٨٠ **الناشر وهيئة التحرير**

الثقافة والمناخ

منذ نهاية ستينات القرن الماضي تبلور، ببطء وعلى نحو غير لافت لغالبية المسلمين، نقاش بين المثقفين والعلماء المسلمين حول فقه بيئي إسلامي، يدرس مدى توافق المبادئ البيئية مثل الاستدامة وحماية البيئة وحماية الحيوان والتنوع الحيوي مع الدين الإسلامي. ويجري تفسير العديد من الآيات القرآنية بيئيا وإيضاح أن السنة النبوية تنطوي على كثير من الإشارات التي ضرورة العيش بأسلوب واع بالبيئة وبضرورة الحفاظ على استمراريتها.

مونيكا زبيدي MONIKA ZBIDI

دعوة للجهاد البيئي

الحركة البيئية الإسلامية

من التغيير المناخي إلى الفقه البيئي تقود مشكلات التغير المناخي والمشكلات البيئية العالمية إلى الجدل حول الإنسان ووضعه في البيئة ويتطلب ذلك مقترحات للحلول من أجل الحفاظ على الأرض، وأخيرا وليس بآخر من أجل حماية المجال الحيوي للإنسان والحفاظ عليه. وهكذا بدأت الطوائف الدينية المختلفة تشغل بالسؤال حول موقف الدين الذي تؤمن به من موضوع حماية البيئة. في عام ١٩٦٧ عرض المؤرخ لين وايت جونيور أطروحة مثيرة للجدل حول أصل الأزمة البيئية. لقد ادعى أن جذور المشكلة تعود إلى الديانات التوحيدية. وقد كانت ردود الفعل الدينية على هذا الانتقاد هي المفتتح لطرح خطاب جديد حول «اللاهوت البيئي». ورغم أن وايت قد ركز في كتاباته في المقام الأول على المسيحية واليهودية، فقد بدأ المسلمون مع مواجهة هذا الانتقاد ومع الوعي بالأزمة البيئية بالانشغال بالموضوع الإيكولوجي.

لقد كانت انطلاقة تيار الفقه البيئي الإسلامي المؤلف من فلسفة إيكولوجية إسلامية وقوانين بيئية تستند للشريعة وحركة بيئية إسلامية فاعلة، على يد أكاديميين وعلماء مسلمين كثيرا ما يكونون قد نشأوا في دول ذات غالبية مسلمة ثم عاشوا لاحقا أو يعيشون في بلدان غربية. ومع المواجهة الجديدة مع مشكلة البيئة بدأ نقاش حول موقف دينهم من الخطاب البيئي. ومنذ ذلك الحين انتشر البعد البيئي للإسلام ووجد تطبيقا له في منظمات ومبادرات للمسلمين في مختلف أنحاء العالم.

نفط خام، نيجيريا
من معرض:
Letzte Ölung
Nigerdelta.
Staatliches Museum für
Völkerkunde, München
Photo:
Timipre Willis-Amah

الإسلام البيئي على شبكة الإنترنت وخارجها «حملة الخطبة الخضراء» و«دليل الحج الأخضر» و«دليل المسلم الأخضر للحد من التغير المناخي» و «تخضير رمضان» و «حملة المدينة النظيفة» تُظهر أسماء هذه المبادرات والمشاريع والحملات من الوهلة الأولى أنها تتمحور حول علاقة الإسلام بالطبيعة. وقد ترسخت شعارات كالإسلام الأخضر» أو الإسلام البيئي Eco-Islam في السنوات الأخيرة باعتبارها وصفا لهذا التيار المعاصر. مع ذلك لا يعني هذا أن أنصار هذا التيار يتحدثون عن إسلام „خاص" بهم، وإنما يشير المفهوم بالأحرى إلى إعلاء قيمة البيئة وخلق الله وإلى جعل طريقة الحياة القائمة على الاستدامة من الضرورات المرتبطة بالإسلام. ومن أهدافهم أيضا توعية مسلمين آخرين بالإمكانيات الكامنة في الإسلام.

وتُستخدم الأعياد والمناسبات الإسلامية المهمة على وجه الخصوص للترويج لهذه الأفكار، على سبيل المثال شهر رمضان، باعتباره شهرا للتأمل والتفكر. ولأن المرء يصوم في رمضان ما بين الفجر وغروب الشمس، تقوم الكثير من العائلات بإعداد ولائم كبيرة للإفطار، ما يؤدي في النهاية إلى التخلص من الكثير من الأطعمة التي لم يتم تناولها. ولذلك دعت مدونات عديدة متخصصة فقط في موضوع الإسلام والبيئة مثل موقع www.theecomuslim.com أو www.khaleafa.com في عدة مقالات قبل رمضان إلى «رمضان أخضر» وإلى سلوك بيئي مستدام. وتضمن ذلك في السياق الغربي استخدام منتجات «التجارة العادلة» والدعوة

لأن يقوم الناس بزراعة الخضر والفاكهة بأنفسهم، وإذا لم يكن ذلك ممكنا شراء منتجات محلية والاقتصاد في استخدام المياه أثناء الوضوء.

كما يتيح الحج وعيد الأضحى وعيد الفطر فرصة للمنظمات البيئية الإسلامية أو للمدونات لمخاطبة الضمير الديني وعبره تتم مخاطبة الضمير البيئي.

لقد أطلق الناشط البيئي المسلم معاذ نصير «حملة الخطبة الخضراء» بمناسبة «يوم الأرض» عام ٢٠١٢. وقد كُتبت لهذه لحملة التي دعمها ٧٥ إماما ومنظمة في أمريكا الشمالية خطبة جمعة نموذجية حول موضوع البيئة. وكان الهدف هو تشجيع المساجد والمؤسسات الإسلامية على تخصيص خطبة الجمعة في «يوم الأرض» لموضوع الوعي المتنامي بالتحديات البيئية التي يواجهها الإنسان. يعيش معاذ نصير في تورنتو بكندا وكان مبدأ خلافة الإنسان في الأرض هو ما ألهمه لإنشاء www.khaleafa.com وهو يربط في مدونته ما بين هويتيه الكندية والإسلامية اللتين لهما حسب رأيه علاقة قوية بالطبيعة. وهكذا يستخدم أحداثا بيئية للتفكير فيها برؤية إسلامية، كـ «يوم الأرض» أو «أسبوع التلقيح العالمي» الذي يتخذه مناسبة للكتابة عن دور النحل في الإسلام. كما ينتهز «أسبوع تقليل النفايات» الكندي للتوعية بأن الإسلام يحث أيضا على تقليل النفايات.

أما «دليل الحج الأخضر» الذي كلف ائتلاف الأديان والحفاظ على البيئة (ARC) منظمتي Global one 2015 و EcoMuslim بإعداده ونُشر عام ٢٠١١، فيهدف إلى تغيير سلوك البيئي للمسلمين أثناء الحج، إذ يكون الحجاج في حالة طهارة تحرم عليهم صيد أوقتل الحيوانات أو قطع أو تحطيم الأشجار والنباتات. ولأن الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام ويذهب إليه سنويا نحو مليونين ونصف مليون حاج وقد انتوى معظمهم أن يلتزم على نحو أفضل بتعاليم الدين، فإن هذه المناسبة تكون فرصة مواتية للوصول إلى قلوب الحجاج وحثهم على العيش بطريقة بيئية مستدامة. ويتضمن الدليل مقدمة لمفتي الديار المصرية على جمعة ويتضمن أفكارا ونصائح عن كيفية استخدام منتجات وخدمات صديقة للبيئة أثناء الحج، وتقليل الاستهلاك والنفايات والعيش بطريقة تحافظ على البيئة. على الحجاج التخلي عن السفر بالطائرات وإذا لم يتمكن الحاج من ذلك فعليه أن يتبرع لمشروع بيئي تعويضا عن هذه الأميال التي تلوث فيها الجو بالكربون. كما يدعو «دليل الحج الأخضر» أيضا إلى الاستغناء عن القنينات البلاستيكية واستخدام المواصلات العامة كمترو مكة أثناء الحج، وأداء فريضة الحج مرة واحدة فقط كما تقضي بذلك تعاليم الإسلام.

دليل المسلم الأخضر ثمة كتيب آخر صدر عام ٢٠٠٨ عن منظمة صناع الحياة في بريطانيا (التي أسسها الداعية عمرو خالد) والمؤسسة الإسلامية للإيكولوجيا والعلوم البيئية (IFEES) ومقرها بيرمنغهام وهو «دليل المسلم الأخضر للحد من التغير المناخي». ويتناول الكتيب تعليمات عملية عن كيفية تعامل المسلمين مع التغير المناخي. ويقدم نصائح يومية لموضوعات كتوفير الطاقة أثناء الطهي أو الغسيل أو تدوير المنتجات أو استخدام وسائل النقل العامة أو الدراجات، ومصحوبة بآيات قرآنية تحث على ذلك. وعلى هذا النحو يشرح الدليل السبب في ضرورة أن يكون المسلم نشطا وفعالا في مجال حماية البيئة ويبين أن ذلك من صميم العقيدة. كما نظمت المؤسسة الإسلامية للإيكولوجيا وعلوم البيئة فعالية أخرى أيضا عام ٢٠٠٨ بعنوان «حملة المدينة النظيفة» وذلك في بيرمنغهام. وكان شعارها «إنها حملة، إنه فيلم، إنه جهاد!»، حيث صور مسلمون بالفيديو قيامهم بكنس الشوارع وتنظيفها، كما قاموا أيضا بحث مسلمين آخرين في المدينة على القيام بفعاليات مماثلة. وتعتبر المؤسسة الإسلامية للإيكولوجيا والعلوم البيئية هي المنظمة الأم للمنظمات البيئية الإسلامية، وهي تدير مشروعات محلية ودولية عديدة وقد أسسها فضلون خالد في ثمانينات القرن الماضي. وقد وُلد خالد وترترع في سريلانكا ثم انتقل للعيش في انجلترا منذ ١٩٥٣ وهو يعتبر أحد المؤسسين لحركة الإسلام البيئي ويتميز بأنه يجمع بين كونه مختصا في الفقه البيئي الإسلامي وناشطا بيئيا.

ويوجد حاليا عدد كبير من النشاطات الدولية المشابهة لما سلف ذكره، ويجري استخدام الإنترنت بصورة متنامية كوسيلة لنشر الأفكار ومقترحات الحلول وتشبيك الناشطين الإسلاميين. كما توجد بالإضافة إلى المواقع الإرشادية، مدونات وأيضا صفحات ومجموعات عديدة على «الفيسبوك»، يديرها ويستخدمها أشخاص من مختلف البلدان، لمناقشة الموضوعات البيئية مع الاستعانة بمقالات وفيديوهات وروابط حول هذه الموضوعات. ومن هنا يتحدث ا. م. شفينكه استنادا إلى أوليفير روي عن الإسلام البيئي المعولم Globalised Eco-Islam. تضم مدونة www.theecomuslim.com السالف ذكرها للبريطانية زاوفيشان إقبال طيفا واسعا من الموضوعات، بدءا التغذية البيئية الحلال، مع وصفات الأطعمة، ومرورا بالموضة الأخلاقية، والمساجد البيئية، ووصولا إلى مراجعات كتب عن موضوعات بيئية وتقارير عن التطورات على المستويين الوطني والمحلي. وهي تعنون مدونتها بـ «الجهاد البيئي» وهي تلعب في نضالها من أجل بيئة صحية على ما يستدعيه مفهوم «الجهاد» من تصورات في الغرب.



حريق في أنبوب نفط لشركة شل بنيجيريا
من معرض:
Letzte Ölung Nigerdelta. Staatliches Museum für Völkerkunde, München
Photo: George Osodi.

عمال يعملون على تعزيز ضفة نهر سولو في جزيرة جاوا بإندونيسيا
من معرض: Goethe-Institut exhibition Riverscapes
Photo: Budi N.D. Dharmawan



أسس السلوك البيئي الإسلامي يعد الفيلسوف الإيراني المولد سيد حسين نصر هو الأب المؤسس للفقه البيئي الإسلامي، وقد ألف في عام ١٩٦٧ كتابا بالإنجليزية بعنوان «الإنسان والطبيعة. الأزمة الروحية للإنسان المعاصر» وكان حينها سابقا لعصره. وتجد الأخلاق البيئية الإسلامية أسانيدها في القرآن والسنة. ووفقا لهذا التفسير يعتبر الحفاظ على الطبيعة والخليقة، وهذا يعني بوجه خاص عالمي النباتات والحيوان والماء، من أهم واجبات المسلم. للماء في الإسلام أهمية كبرى فهو أصل كل شيء حي، بالإضافة إلى أن له أهمية كبيرة في الوضوء والاغتسال. وثمة أحاديث نبوية كثيرة تحث على ضرورة الاقتصاد في استهلاك الماء وتحرم تلويثه.

كل الخليقة منوطة بتسبيح الله، وفي كل تفصيلة من تفاصيل الأرض يدرك المسلم آية من آيات الله. هذا يعني أن وجود الله كلي، ما يقود ضمنيا إلى أنه يجب حماية الطبيعة لأجل الله فحسب.

علاوة على ذلك، فإنه يُنظر للطبيعة في مجملها كعناصر تكمل بعضها بعضا. فبالإضافة إلى تسبيح الله يوجد لكل عنصر من عناصر الطبيعة دور ومهمة ضرورية في منظومة الخلق، ما يؤدي إلى اعتماد متبادل لكافة الأشياء على بعضها البعض.

يصنف الحيوان في منظومة الخليقة الإسلامية تحت الإنسان الذي يملك العقل ويستطيع أن يفرق بين الإيمان والكفر. ولحماية الحيوان في الإسلام أهمية كبرى، وهذا ما تثبته كثير من الأحاديث النبوية. وكانت القطط من الحيوانات المحببة جدا إلى النبي. ويقال إن النبي قطع كمه ليقوم للصلاة حتى لا يزعج قطة نائمة.

كما أن للنباتات دورا في الإسلام. فهي غذاء الإنسان والحيوان (سورة عبس، الآيات ٢٤ ـ ٣٢) وهي توفر للإنسان الأوكسجين اللازم لحياته. كما أن زراعة نبتة لها أجر كبير عند الله في الإسلام، فثمة حديث يقول بأن ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه

إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة. كما أن ثمة مؤسسات للشريعة الإسلامية تضمن حماية الطبيعة في أماكن بعينها، مثلا في مناطق الحرم والحمى، وهي مناطق تشبه المحميات الطبيعية، ويُعنى فيها بحماية موارد المياه والغابات والمراعي.

يقف الإنسان في التصور الإسلامي في مركز الخليقة، ما يمنحه وفقا للخُلق البيئي الإسلامي حقوقا معينة، لكنه يُلزمه في الوقت نفسه بواجبات. وإذا أراد المرء الحديث عن مفهوم الخلق البيئي الإسلامي، فغالبا ما يتأسس ذلك على مبادئ قرآنية عدة يتم تفسيرها وفقا لتصور إيكولوجي. وتعتبر المبادئ الستة التالية، إلى جانب القناعة والزهد والعدل، هي الأكثر شيوعا وهي تهدف لوضع حدود لتصرفات الإنسان:

مبدأ التوحيد: يشير مبدأ التوحيد في الفقه البيئي الإسلامي إلى ثلاثة مستويات من التفسير. فهو من ناحية يقدم وصفا لله الواحد في مقابل تعدد الآلهة وعبادة الأصنام ما قبل الإسلام، ومن ناحية أخرى يؤكد على أن الله واحد أحد على النقيض من مفهوم الثالوث المسيحي الذي يعارضه القرآن وثالثا يعبر مبدأ التوحيد عن وحدة الله مع سائر الخلق. وتعني وحدة الخلق هذه أن كل الأشياء في العالم هي جزء من الخلق وأنها مرتبطة ببعضها البعض ولهذا فإن كل العالم مهم وقيم وجدير بالحفاظ عليه. كما أن التفسير يشير إلى أن التوحيد يعني الإيمان بأن الله هو الإله الواحد الأوحد لكل الوجود، ما يعني بالضرورة أن يحرص المرء على التقوى في التعامل مع أي مخلوق من مخلوقاته.

مبدأ الفطرة: تُفهم الفطرة في الخطاب البيئي الإسلامي على أنها الحالة الأصلية للخلق، الطبيعة الأصلية للأشياء. وهي تتضمن في المقام الأول الحالة الطبيعية للإنسان في تناغمه مع الطبيعة. ومنها تم التوصل لأهمية دور الإنسان وواجبه في حماية الطبيعة. ويدلل فضلون خالد على ذلك مثلا بالقول إن الناس قد عاشوا في الماضي على الفطرة وحافظوا عن غير وعي على الحدود غير المكتوبة. لكن ذلك تغير مع التصنيع. صحيح أن البشر كانت لديهم في الماضي الصفات السلبية والإيجابية نفسها، لكن الميل إلى التصرفات الحسنة أو السيئة ظل في حدود النظام الطبيعي. ولهذا لم تخلف الحضارات الأولى أي آثار سلبية باقية مثل المواد الضارة أو السموم المدمرة أو النفايات المشعة. ويظهر ذلك أن مسؤولية الإنسان في عصرنا أكبر بكثير من ذي قبل، لأن هناك فعلا إمكانيات عديدة قائمة لتدمير الطبيعة. لذا فإن الهدف هو الرجوع إلى حالة الفطرة والحفاظ على الأرض.

مبدأ الخلافة: يتولى الإنسان دور الخليفة على الأرض. وهذا يعني أنه يضطلع بالأمانة التي حمله الله إياها، وقد عُهد إليه بالأرض التي ذللها الله له. وهو ليس بمالكها ولا سيدها لأنها ملك لله، لكن له منزلة مهمة بين الخلائق. ولهذا تدعو الحركة البيئية الإسلامية إلى أن يقوم الإنسان بدوره كخليفة لله في أرضه وألا يستمر في إخضاع الطبيعة لمصالحه.

مبدأ الأمانة: يرتبط مبدأ الأمانة ارتباطا وثيقا بمبدأ الخلافة، فهو يعني تحمل المسؤولية في كل جوانب الحياة. إنها الأمانة التي تقع على عاتق خليفة الله في الأرض والتي رضي الإنسان بتحملها عندما عرضها الله عليه. وعادة ما تذكر في هذا السياق الآية ٧٢ من سورة الأحزاب: „إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا". وبالطبع تعني الأمانة تقييدا وعبئا أخلاقيا على الخليفة. ووفقا للخلق البيئي الإسلامي فإن المنزلة العليا للإنسان لا تكمن في سلطته العليا وسيادته على المخلوقات، بل بالأحرى في أنه سيحاسب وحده أمام الله.

مبدأ العبودية: يعبر مبدأ العبودية عن حالة الإنسان كعبد لله وهو مكمل لمبدأي الخلافة والأمانة، فدور العبد يقلص سلطة الإنسان. ويفسر علماء الفقه البيئي هذا المبدأ على أنه على المسلمين كعباد لله أن يلتزموا بالقوانين بما فيها قوانين العناية بالطبيعة والحفاظ على النظام البيئي والتعامل السليم مع الموارد الطبيعية.

مبدأ الميزان: يعنى بمبدأ الميزان في الخلق البيئي الإسلامي التوازن البيئي أو السعي لطريق وسطي. ويتطلب هذا المبدأ الحفاظ على التوازن البيئي وإعادة هذا التوازن للأرض، سواء على مستوى التناغم البيئي، أو على مستوى العدالة الإنسانية والتعامل الأخلاقي في الحياة اليومية، فقد خلق الله الأرض وكل الكون بإتقان وتوازن وبلا عيوب. ومن واجب الإنسان الحفاظ على ذلك. وحسب فقهاء البيئة المسلمين تظهر مشاكل كارتفاع درجة حرارة الأرض والزلازل وارتفاع مستوى سطح البحر فقدان الأرض للتوازن الإلهي.

هل ثمة طريق إسلامي للخروج من مأزق التغير المناخي؟

يكمن حل مشاكل البيئة حسب الخلق البيئي الإسلامي، في إحياء العقيدة والروحانيات. هذا لا يعني الابتعاد عن العلم والتطور، لكن لا بد من رفض مجتمع الاستهلاك والتصرفات الخالية من المسؤولية. لا توجد منظومة واحدة للفقه البيئي الإسلامي ووفقا لذلك فإن التيار المسمى بـ «الإسلام البيئي» لا يزال ناشئا وثمة توجهات وتفسيرات عديدة، لكنها كلها تشترك في أن هدفها هو حماية البيئة والحفاظ على الخليقة.

وفي نهاية المطاف يجمع موضوع البيئة وحماية الأرض بين أتباع ديانات مختلفة في نضالهم المشترك من أجل الحفاظ على أساس الحياة لكل الكائنات وقد تبين أن هذا الموضوع من الأعمدة الأساسية للحوار بين الأديان. صحيح أن التعامل مع القضية من منظور الدين ليس كافيا لحل مشكلة التغير المناخي، لكنه قد يسهم في تغيير الوعي. لقد تطور الخطاب البيئي الإسلامي بصورة متنامية في شبكة الإنترنت على وجه الخصوص ويبدو أن الكثير من المسلمين يجدون شيئا ملهما في كون دينهم يحض على السلوك الرفيق بالبيئة ويدعمه.

مونيكا زبيدي باحثة في قسم الدراسات الإسلامية بجامعة إرلانغن نورنبرغ.

الروابط: www.khaleafa.com
www.theecomuslim.com

ترجمة: أحمد فاروق

إن الرغبة في الحصول على الطاقة، من مصادر نظيفة، والتطلع للعيش، في بيئة سليمة، والسعي لتحقيق خفض ملموس في معدلات انبعاث الغازات الملوثة للبيئة، وكل هذه الطموحات والأماني، قد تبدو من كماليات الحياة، من منظور تلك البقاع الشاسعة من العالم، التي تكافح من أجل سد الرمق، وتدبير الحد الأدنى فقط، من متطلبات البقاء على قيد الحياة. إلا أن من حقائق الأمور أيضاً، أن لا أحد مُعفى من إمعان النظر بمسائل البيئة، وبالتفكير بالمخاطر، التي تتهدد سلامتها. فالأمر البين هو أن نمط الحياة على سطح كوكبنا الأرضي لن يكون مستقبلاً، عملية تتعامل مع معطيات تكنولوجية واقتصادية فقط، بل سيكون، أيضاً، عملية لها جوانب ثقافية في المقام الأول.

سوزانه شتيملر SUSANNE STEMMLER

„يجب علينا أن نزرع حديقتنا"

نحو ثورة ثقافية خضراء

إن الفزع الناجم عن الدمار المتسارع، الذي تتعرض له الأسس الطبيعية، التي تقوم عليها حياتنا، يؤدي أيضاً إلى بلورة حركة ثقافية، تسعى إلى تلافي أسباب هذا الدمار. إنها حركة تشتمل على سعي حثيث، للعثور على أسلوب حياة، يضمن التعامل، بكثير من الحيطة والتأني، مع موارد نادرة، ولكن عظيمة الأهمية بالنسبة لحياة المخلوقات، أعني موارد، من قبيل المياه والمواد الغذائية والهواء. إن تحقيق التعامل مع الموارد بهذا النمط، يكاد أن يكون، ثورة ثقافية فعلاً، فهو يفرض علينا أن نغير نمط حياتنا، بنحو جذري، يفرض علينا تحقيق هذا التغيير، بلا اعتبار لماهية المكان، الذي نعيش في كنفه.

ولتحقيق ثورة ثقافية من هذا القبيل، يجب علينا أن نتخلى، على سبيل المثال وليس الحصر، من الحصول على الطاقة من الموارد البترولية. فنحن نقترب، أكثر فأكثر، من ذروة استخراج البترول بمعدلات متزايدة: ففي حين تشير بعض الدراسات، إلى أننا قد بلغنا أقصى حد ممكن، لاستخراج البترول، تتوقع دراسات أخرى، أننا سنصل إلى هذا الحد في المستقبل المنظور، أي في زمن ليس بالبعيد أبداً. وكيفما اتفق، ففي العالم أجمع، يتوقف مستقبل القطاع الصناعي، حالياً، على البترول. فالبترول يشكل المادة الرئيسية، في إنتاج ٩٥ بالمائة من كافة البضائع المصنعة – يشكل المادة الرئيسية، بالنسبة لوقود وتشحيم العربات والمحركات، وبالنسبة للمنتجات البلاستيكية، والعقاقير الطبية، والأصباغ، والسلع النسيجية. إنه شرط أساسي، لنقل كميات كبيرة من السلع، عبر مسافات بعيدة. بالإضافة إلى هذا كله، وجنباً إلى جنب مع تكنولوجيا المعلومات، تشكل عربات النقل، والطائرات، والبواخر المخصصة لنقل الحاويات، العمود الفقري، الذي ترتكز عليه العولمة. بيد إن الكوارث، التي تتعرض لها آبار البترول، من حين لآخر، تشهد بجلاء على عظمة المخاطر الناجمة عن الأساليب المتبعة في استخراج المورد الذي تزداد ندرته. من ناحية أخرى، فإن البترول، وتعطشنا للبترول، بنحو غير قابل للارتواء، يؤديان إلى انتشار العنف والشقاء، في أماكن كثيرة من العالم، ويعززان نشأة أنظمة سياسية فاسدة، تسودها الرشوة، ولا تتصف بالديمقراطية. والملاحظ هو أن الكثير من البلدان المنتجة للبترول، تعاني من إشكاليات، وتوترات سياسية، غاية في التعقيد، وتنفذ، في كثير من الأحيان، أساليب قمعية، استبدادية. وفي سياق الحديث عن الثروة النفطية، يجري، أيضاً، الحديث عن „لعنة المادة الأولية". من هنا، لا عجب أن يؤكد الكاتب ريتشارد كابوشينسكي (Ryszard Kapusinski) على أن البترول يُسمم العقل، ويُعمي البصر، ويُتلف الروح. فعلى طول الأنابيب الناقلة للبترول، تتغير سبل العيش، وأنماط الحياة، بكل تأكيد. وكان الكاتب النيجيري هيلون هابيلا (Helon Habila) قد وصف، في روايته «زيت على مياه» (٢٠١٢) مدى الدمار الذي يخلفه سلطان البترول. وغني عن البيان أن الإكوادور مثال ساطع، على إمكانية التحرر، من قبضة البترول: فدستور هذه الدولة، يساوي بين كافة المخلوقات في الحقوق، ويناشد الأمم المتحدة، بأن تعوض الإكوادور، عن الخسائر التي تمنى بها، بسبب إحجامها، عن استخراج البترول، وذلك لأن إحجامها هذا، يحافظ على غابات الأمطار «الإستوائية»، المهمة بالنسبة للعالم أجمع. على صعيد آخر، تحاول حالياً الصناعة وسياسة الأمن العالمي، التكيف مع متطلبات العصر التالي على عصر الموارد الإحفورية. وهكذا، ولأن المرء يخشى من سيادة كساد اقتصادي عالمي، وحدوث تدهور متزايد في عرض المواد الغذائية، واندلاع توترات سياسية وحروب، لذا يعكف أصحاب الشأن، على تطوير «تكنولوجيات خضراء». ومهما كانت الحال، هل سيصغر العالم، ثانية، بفعل الولوج في هذا „المنعطف"؟ وهل ستتراجع «عولمة» القطاع الزراعي؟ وهل ستنشأ أسواق عالمية جديدة، لتسويق البضائع، وتقديم الطاقة، وتداول الخدمات، المناسبة لمتطلبات المحافظة على سلامة البيئة؟ وما



عمال تنظيف قرب نهر سولو بجاوا
من معرض: Goethe-Institut exhibition Riverscapes
Photo: Budi N.D. Dharmawan

معنى هذا كله، بالنسبة لعولمة الثقافة، التي ترتكز، كما هو معروف، على تنقل الأفراد والسلع وعلى عمليات المبادلات الاقتصادية؟ وكيف سنكون قادرين على مواصلة العيش، من غير الخضوع إلى الأنماط الثقافية، التي اعتدنا عليها في حياتنا اليومية؟

الاعتراف بالآخر. إن المثال السابق يبين حقيقة مفادها، أننا لن نحقق الأمن الجماعي، على سطح كوكبنا الأرضي، ما لم نأخذ وجهات النظر الأخرى بالاعتبار. ولعل من نافلة القول، الإشارة هنا، إلى أن الوجود الإنساني، كان منذ أقدم العصور، محور تأملات دينية وفلسفية. وتأخذ العقائد المسيحية المختلفة مأخذ الجد، المقولة القائلة „غريبٌ أنا في الأرض" (مزامير ١٩، ١١٩). من ناحية أخرى، تحث المصادرُ الإسلاميةُ، على ضرورة التعامل مع المخلوقات، بأسلوب أخلاقي؛ من هنا، لا غرو أن تصعد جمعيات، وروابط إسلامية مختلفة، في اليوم الحاضر، مطالبتها، بضرورة اتخاذ خطوات عملية، للمحافظة على سلامة البيئة.

إن الاعتراف بالآخر والاستفادة من تجربته أمر جوهري بالنسبة للمحافظة على البيئة، فهذه التجربة يجب أن تكون ركيزة يستند عليها وعي عالمي يعير اهتمامه إلى الشؤون العالمية، وليس إلى الشئون المحلية. فعلى وجه الخصوص، فإن التقاليد والأعراف المحلية، ووجهات النظر الإقليمية، الرامية إلى شرح الحقيقة الواقعة، تزدادان أهمية، في سياق ما نحن في صدد الحديث عنه. فمن خلال انقراض أنواع نباتية وحيوانية مختلفة، واتساع دائرة الزراعة المختصة بمحصول واحد، يتراجع تنوع العالم بنحو متزايد، وتختفي أيضاً، وبالتالي، المعارف الضرورية، للتعامل مع الطبيعة، بنحو آخر. وعموماً، يمكن القول، إن هذا النمط من الوعي العالمي الجديد، أعني الوعي العالمي، الذي لا يقف عند حدود المجتمع المحلي، نادراً ما يجري سبر غوره في اليوم الراهن، علماً أن ثمة أفراداً كثيرين، يمكن للمرء أن يتخذ منهم، قدوة حسنة. ونكتفي هنا بالإشارة إلى بضعة أمثلة من محيط العالم الأوروبي: فعلى سبيل كان عالم الطبيعيات ألكسندر فون هومبولت قد انتقد، في منتصف القرن التاسع عشر، هيمنة جنس الإنسان على الطبيعة؛ وكانت تصوراته بخصوص «الكون» قد دفعته إلى الاعتقاد، بأهمية النظر على العالم، في مجموعه. على صعيد آخر، أعاد المرء في هذه الأيام، اكتشاف تصورات فيلسوف علم الأجناس رودولف شتاينر (Rudolf Steiner) وأفكار الفنان التشكيلي يوزف بويز (Joseph Beuys) بشأن تكامل الطبيعة. كما يسير على هذا النهج «قصيد العلاقة» للفيلسوف والأديب الكاريبي إدوارد غليسان (Edouard Glissant): فقوة الطبيعة، والجزيرة، والبحر، والمياه، على وجه الخصوص، لم تكن مجرد صور شعرية احتلت مكاناً مركزياً في أفكاره، فهو أنشأ من هذا كله، «نظرية عولمة»، يتواصل ويبني فيها، كل مكان في العالم، علاقة وطيدة مع الأماكن الأخرى.

وغني عن البيان أن السؤال، عن الطرف المقصود بعبارة «نحن» في هذا المجتمع العالمي، لم تتم الإجابة عليه حتى الآن. فمَنْ هم الأطراف الفاعلة هاهنا، وما هي حقيقة النفوذ الذي يمارسونه، في ظل أنظمة مستبدة، لا تعير أية أهمية لمعنى الحياة الديمقراطية، نعم ما هي حقيقة هذا النفوذ، إذا ما أخذنا بالاعتبار، أن «المجتمع المدني»، الذي يُعلي الغرب من شأنه، لا وجود له في هذه الأنظمة المستبدة؟ أضف إلى هذا، أن السياسة، كثيراً ما تجعل بني البشر، أسرى الظرف الآني. وهكذا، تظل أهمية البعد الزمني، أمراً تجريدياً، لا علاقة له بالدورات التشريعية (مدة المجالس البرلمانية)، أو ما ترسم السياسية من خطط طويلة المدى. وبهذا المعنى، فإن من الصعوبة بمكان، تبني تصور، يمتد أجله إلى بضعة أجيال. وليست البلدان الصناعية التقليدية فقط، هي التي تخضع، لهذا الضغط الزمني، فدول الاقتصاديات الناشئة، والبلدان النامية تعاني، هي الأخرى أيضاً، من أعباء هذا الضغط. ومن حق المرء، أن يسأل هاهنا، فيما إذا ستنجح مجموعة الاقتصاديات الناشئة، والبلدان النامية، عن وعي وقصد، في أن تتحاشى تبني عملية تصنيع، تستهلك الموارد الطبيعية، بنحو مكثف؟ إن المستقبل ما عاد بالإمكان تصوره، بهيئة عملية تصنيع، تقتفي خطى العصور السابقة، إن هذا المستقبل صار يفرض علينا، أن نحجم عن السير في دروب تنمية، أثبتت الوقائع التاريخية، أنها خلفت وراءها دمارا وخيم الأبعاد.

فصل زائف بين الإنسان والطبيعة ويدفعنا هذا كله إلى التفتيش عن سلوك أخلاقي، يمتد أثره، ليشمل كافة المخلوقات، ويحرك عواطف، الكثير من بني البشر. إن التفرقة بين بني البشر والحيوانات والنباتات، وكافة ما استحدث الإنسان من ماديات وبين الأفراد الناشطين والأجسام السلبية، أعني التفرقة التي عكست تصورات الحداثة، قد أمست مطروحة، ثانية، على بساط البحث في اليوم الراهن. ويدور الأمر هاهنا، حول ما للمخلوقات الأخرى من حقوق، وحول تصرفنا، حيال مجمل السلع أيضاً، أعني حيال سلع من قبيل الهواء والمياه. وكما أكد الفيلسوف برونو لاتورٍ (Bruno Latour)، فقد آن الأوان لأن نتحمل مسؤوليتنا، ونفي بواجبنا الأخلاقي، حيال كافة المخلوقات، هذه المخلوقات التي نعتبرها خرساء، وما هي بخرساء في واقع الأمر. نحن الذين أسكتناها وكتمنا أفواهها. فكل شيء، وكل كائن، يتحدد كنهه من خلال علاقته، بباقي الأشياء والكائنات. وتسري هذه الحقيقة على الإنسان أيضاً، فحاله في ذلك حال الحجارة أو الشجرة. ولا يدور الأمر هنا حول توسيع دائرة الموضوعات الأخلاقيات، لتشمل كائنات جديدة، بل هو يدور حول إلغاء الفصل بين الإنسان والحيوان، بين الكائنات القادرة على الحركة والنمو، والكائنات غير القادرة على التحرك والنمو. إن الاعتقاد بأن الطبيعة، كيان منفصل، عن الإنسان يعكس، في الواقع، وضعاً ثقافياً، هو من مخلفات التراث الفكري الأوربي.

من هنا، فإن المنهج الغربي، بشأن حماية الطبيعة، لا يصلح للتطبيق، في كافة أرجاء المعمورة، مثله في ذلك مثل مصطلح البيئة. فهذا المصطلح، أيضاً، يضع الإنسان في موقع مركزي. ولهذا السبب، كان الفيلسوف الفرنسي ميشيل سير (Michel Serres) قد طالب، قبل عشرين عاماً، بضرورة استكمال العقود الاجتماعية بعقود أخرى، بعقود طبيعة، أي بعقود تعترف، بما للطبيعة من حقوق، وأكد على أن المهمة المستقبلية، الحاسمة، لا تكمن، في إقامة علاقة طفيلية، بين الإنسان والطبيعة، بل في إقامة علاقة، تجسد تحالفاً وثيق الأواصر بين الطرفين. وكان ميشيل سير، قد أشار إلى هذا التحالف حين قال حرفياً: „إن التاريخ العالمي يدخل في الطبيعة وأن الطبيعة الكلية تدخل في التاريخ". إن الهواء والماء والأرض سلعٌ مشاع، سلعٌ لا مالك معين لها. ولكن، ما معنى هذه الحقيقة، بالنسبة للمحافظة على هذه السلع، وبالنسبة لفهمنا لمعنى المِلكية؟ ما هو السبيل، للمحافظة على غابات الأمطار الإستوائية، ذات الأهمية الحياتية، بالنسبة للعالم أجمع؟ وبما أننا أمسينا ـ بفضل التصور الوخيم العواقب بشأن الملكية والحيازة الخاصتين ـ نضحي بما تبقى لنا، من رصيد الطبيعة، لأغراض الزراعة القائمة على محصول رئيسي واحد، لذا يطرح نفسه، أيضاً، السؤال عن ظروف الملكية وخصائص القوى المتسلطة، من جديد. إن هذا كله يتعدى المسائل الخاصة بموضوع البيئة، إنه يجسد مسائل، ذات بُعد ثقافي عظيم الأهمية.

إن علاقة من هذا النوع، بين الطبيعة والثقافة، هو الفردوس، هو الحديقة التي تحدثت عنها البشرية على مر التاريخ: فمنذ آلاف السنين، وفي كافة الثقافات العالمية تقريباً، صور بنو البشر سعادتهم، من خلال عيشتهم في حديقة غناء. على مدى آلاف السنين، كان استمرار الحياة في الفردوس، أي بعد الوفاة، أعظم مكافأة، يمكن أن يحصل عليها الإنسان، نظير التزامه، بالخير والفضيلة في حياته اليومية. فالحديقة ـ الموجودة حقاً وحقيقية أو المتخيلة ـ كانت تُعتبر، المأوى الذي يلجأ إليه الإنسان، للتخلص من الإفراط في التفكير، وممارسة الأشغال الشاقة، وللتحرر من متاعب الحياة اليومية. ويلحظ المرء التغني بالحديقة، في عصور موغلة في القدم، يلحظها مثلاً، في حديقة الآلهة الواردة في ملحمة جلجامش، أو في فردوس دانتي (Dante) الواقع في قمة جبل تطهير القلوب من الشوائب والذنوب. إلا أن الحديقة يمكن أن تكون، مكاناً حقيقياً أيضاً، مكاناً شبيهاً، بأكاديمية أفلاطون، أو مدرسة أبيقور (Epikur)، اللتين اتخذتا من رياض وبساتين معينة أماكن للتدريس. وكما هو ملاحظ في اليوم الحاضر، يمكن أن تتوسط الحدائق المدن، على غرار حدائق المشردين في نيويورك، أو الحدائق المسماة: Prinzessenningärten (حدائق الأميرات)، في برلين. فالمواطنون شيدوا هذه الحدائق كملاذ يرفه عنهم ويهيأ لهم أسباب الراحة. فغرس الزهور والأشجار، وتصنيع المربى من المحصولات المختلفة، وتربية الحيوانات، وتحسين نسلها، وإنتاج العسل ـ هذه الفعاليات قد تعاظم شأنها، في الزمن الراهن، ليس في المدن الأوربية فقط. وإذا كانت الأزمنة السابقة، قد شهدت انعدام، المسئولية وتلاشي الهموم، إلا أن اهتمام الأفراد بالحدائق والرياض، قد دفعهم لأن يعودوا ويتحملوا الهموم والمسؤولية، بقلوب راضية وبروح عالية. وخلافاً للفردوس السماوي، خلافاً للجنة، التي ينمو فيها كل شيء، بنحو تلقائي، وبلا جهد أو عناء، لا مندوحة لنا، من زراعة حدائقنا، واستخدام بذور محسنة. كما لا مفر لنا من أن نراعي، دائماً وأبداً، أوقات البذور، وأزمنة الغرس والحصاد، ودورات النمو وما شابه ذلك من مستلزمات النشاط الزراعي. إن الحديقة المنسقة، والمشيدة من قبل الإنسان، تنشأ عبر الزمان ومن خلال الزمان. وإذا كان فولتير قد أنهى مسرحيته الشهيرة كانديد، بجملة مفادها: „يجب علينا أن نزرع حديقتنا"، فإن من حقائق الأمور أيضاً، أن إدراك كنه هذه العبارة، يفرض على المرء، أن يأخذ بالاعتبار، أنها صِيغت على خلفية انتشار الطاعون، واندلاع الحروب، وتعاظم الكوارث الطبيعية. وهكذا، فإن للحديقة بعد سياسي: فنحن وليس مخلوق آخر، المسئولون عن زراعة حديقتنا ـ فالحديقة تجسد العالم، الذي نحن جميعاً شركاء فيه. إن حديقتنا، ليست حديقة، تخضع لمصالح فردية، ليست حديقة يلجأ إليها، هذا الفرد أو ذاك، هروباً من الواقع السائد، ومضيعة للوقت. إنها جزء من أرض مشاعة اجتماعياً.

سوزانه شتيملر مديرة البرامج في دار ثقافات العالم (Haus der Kulturen der Welt) في برلين وتمارس حاليا التدريس في جامعة الفنون في برلين كأستاذة زائرة.

ترجمة: عدنان عباس



عائلة إندونيسية، جاكرتا
من معرض: Goethe-Institut exhibition Riverscapes
Photo: Budi N.D. Dharmawan

يفرض علينا تغير المناخ إعادة النظر بنمط حياتنا المتسم بميل قوي ورغبة مفرطة، للتنقل من مكان لآخر. وما من شك في أن هذه الحقيقة تنطوي أيضاً على فرصة مواتية للنجاح وتحفزنا لأن نسأل: بأي أسلوب نود العيش يا ترى؟

كلاوس ليغيفي CLAUS LEGGEWIE

التفكير بطريقة تناسب المستقبل الثاني

تحول المناخ بصفته تحولاً في أنماط عيش المجتمع

يمنحنا التحول المناخي أسلوباً، لإيجاد حلول ناجعة، لبعض مشاكل الأحوال المعيشية، المستقبلية: فثمة خطر طبيعي، يفرض على بني البشر، سؤالاً يدور، حول ماهية المجتمع، الذي يريدون العيش في كنفه، مستقبلاً. فما يتوصل إليه البحث العلمي، في مجال المناخ، من قيم وتنبؤات، لظواهر قابلة للقياس، يؤكد أن النتائج المتحققة حالياً، والتي من المحتمل أن تتحقق مستقبلاً، بفعل تحولات المناخ، ترسم صورة، دقيقة نسبياً، ومتمايزة إقليمياً، وما عادت مناحيها السلبية قابلة للإلغاء أصلاً. ولا بد من الإشارة، في هذا السياق، إلى أن الكثير من الأفراد، يزعمون أن هذا التحول في المناخ، ليس بالمستطاع إدراك حقيقته، والإحاطة بأبعاده وأنه سيتحقق – في حالة وجود احتمال معقول لتحققه فعلاً– في المستقبل البعيد أصلاً. إلا أن الشخص، الذي عاصر، على سبيل المثال وليس الحصر، السرعة، التي يذوب بها الجليد في منطقة القطب الشمالي، وهي سرعة فاقت كافة التنبؤات، أو الذي تتبع، على مدى زمن طويل الأنهار الرئيسية في الصين، من منبعها في جبال التبت وحتى مصبها في البحر، لا يلاحظ عن كثب آثار تحول المناخ فحسب، بل ويستطيع، عندئذ، تصور حدوث ما هو أكثر وخامة.

والأمر الأكثر صعوبة هو أن يتصور المرء، مدى التأثير الممكن أن تخلفه، تغيرات مناخية من هذا القبيل، على الأسس التي تقوم عليها المجتمعات الحديثة – أعني الممكن أن تخلفه على الأسواق العالمية، والرفاهية المادية، وصيغ ومعايير التعايش الاجتماعي، وعلى القوانين المنظمة للحريات ولمساهمة الأفراد في تسيير دفة الحكم في المجتمعات المختلفة، وعلى سيادة الدول والشعوب، وما سوى ذلك من أمور كثيرة. فهل سينجو الاقتصاد العالمي من „فشل الأسواق وظيفياً"؟ هذا الفشل الذي يُعتبر النتيجة الحتمية، للتحولات التي تطرأ على المناخ. وهل سيتقدم الاقتصاد العالمي صوب الصيغ التي كانت دارجة في الاقتصاديات البدائية، أعني اقتصاديات المقايضة السلعية والاكتفاء الذاتي؟ وهل سيزداد اعتماده على أساليب التخطيط، أم أنه سيمضي قدماً، للانضواء ثانية، تحت المظلة الاقتصادية المتمسكة بالمناحي والقيم الأخلاقية؟ وعلى خلفية الكوارث الطبيعية، وما ينجم عن هذه الكوارث، من تآكل في قيم اجتماعية، كان الوثوق بها والاطمئنان إليها من مسلمات، هل ستتلاشى الخيارات المتاحة للإفراد؟ أم ستظهر خيارات أخرى كثيرة، تزيد من قدرة الأفراد، على تحقيق ذاتهم، وبلوغ ما يصبون إليه؟ وهل سيمضي الأفراد في هذه المجتمعات قدماً، في اعتزال الآخرين، والنأي بالنفس عنهم؟ أم أن هذه المجتمعات ستسلك مساراً، يزيد من متانة العلاقات القائمة، بين الأفراد؟ وهل ستنجو الديمقراطية الليبرالية، من خطر التحولات المناخية المحدقة بها، وتفلح في تطوير نفسها والتقدم إلى الأمام؟ أم سيكون ثمة مجتمع ما بعد ديمقراطي تحكمه أكثر رقابة اجتماعية تأتي من أسفل، وتحكم استبدادي من أعلى؟ ما هي القيم والتصورات والعقليات التي ستشكل خصائص عالم، يزيد فيه متوسط درجات الحرارة، بمقدار يبلغ درجتين زائداً درجة مجهولة على المتوسط، الذي ساد في العصر الصناعي؟ وهل سترتقي وتتعمق، عندئذ، العولمة الاقتصادية، وعولمة أسواق المال، أم سيتراجع التكامل العالمي؟ وهل سيكون هناك تعاون وثيق، بين الدول والمنظمات والأفراد، يتخطى الحدود الثقافية والدينية، أم أن هؤلاء سينكفئون إلى الخلف بنحو متزايد، ويغلقون حدودهم ويتنازعون فيما بينهم؟ وفي حدود العام ٢٠٥٠، هل ستكون ثمة دول قومية؟ أم ستكون هناك حكومة عالمية (لا نريد هنا الخوض في مدى شرعيتها)؟ وهل سيظل المبدأ الحضاري، القاضي بضرورة حل النزاعات بالوسائل السلمية، مبدأً نافذاً معمولاً به؟ أم أن الكوارث الطبيعية، ستجعل الغلبة لانتشار الفقر، وزيادة أعداد الهاربين من ديارهم، واندلاع «حروب مناخية»؟

ويمكن التعبير عن هذه «المسائل الكبرى»، من خلال الاستشهاد، بحقائق واقعية، مستقاة من الحياة اليومية: كيف سيتنقل تسعة أو عشرة مليارات من بني البشر، يقطن الجزء الأعظم منهم في المدن، نعم كيف سيتنقل هؤلاء الأفراد، وبأية مادة سيشغلون وسائل النقل، والشاحنات، وأجهزة التدفئة والتبريد، في المساكن، وما هي مصادر غذائهم، وكيف سيستغلون الأراضي الزراعية المتاحة لهم؟ وإلى جانب المعطيات والبيانات الصارمة، المستقاة من أبحاث المناخ، والعلم المتخصص بتنبؤات تخص شئون الطاقة، فإن من النادر أن يعثر المهتم، على سيناريوهات „ناعمة"، متخصصة بالتحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمعيارية في أقاليم العالم المختلفة. وفي الحالات التي يجري فيها حساب حجم هذه التحولات، فإن الملاحظ هو عمليات الحساب هذه، غالباً ما تنطلق من المشاهدات الماضية، للاستدلال على الاتجاه العام المتوقع الحدوث، في فترة زمنية مقبلة، بافتراض أن العلاقات ستظل، في المستقبل على ما كانت عليه في سابق الزمن. ومن حين لآخر فقط، يعثر المرء في الدراسات المخصصة للبحث في عملية الانتقال من وضع إلى آخر، على انحرافات عن المسارات السائدة في النموذج المزمع تحديثه. يعثر الباحثون على هذه الانحرافات تارة بحكم الظروف، وذلك لأنهم قد لاحظوا وجود تشوهات عظيمة، وتارة أخرى، بصورة إرادية، وذلك لأنهم عكفوا على وضع مخطط، لما يتمنونه للمجتمع العالمي، من تطور مستديم وعادل مستقبلاً.

ثقافة جديدة للمشاركة إن النقص الحاد، في القدرة على استحداث التخيلات الجسورة، وعلى صياغة تنبؤات مدعمة بالحجج السديدة، له أسباب كثيرة، أسباب يكمن أحدها في ما يسمى اختصاراً "TINA-Dogma„ أو (لا يوجد خيار آخر)، وهي العبارة التي استخدمتها رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر (١٩٩٠ ـ ١٩٩١) في إشارة منها، إلى أن العالم السائد، هو أفضل العوالم المحتملة التحقق، وأن تصورات الليبرالية الجديدة، بشأن العالم، هي التصورات السديدة بلا منازع. ويكمن السبب الآخر في قِصَر مدى وسطحية، الحسابات التقديرية، المهمة بالنسبة لتحديد العمل السياسي، علماً بأن هذه الحسابات، يُفترض بها أن تتكفل، بنحو أو آخر، بالحيلولة دون تبني السياسة العملية، لتصورات وهمية، وتضمن تركيز هذه السياسة على ما هو قابل التحقيق. كما تتسبب الواقعية المسيطرة، بنحو كبير، على العلوم الاجتماعية ـ التي تزداد تخصصاً مع مرور الأيام ـ في شل هذه العلوم، وفي دفعها، لأن تكف عن تشخيص خصائص العصر. وينطبق الأمر ذاته على النزوات الطائشة ووجهات النظر العبثية، الدارجة إلى حد بعيد، في بعض فروع العلوم الثقافية. فهي أيضاً تتسبب في شل هذه العلوم، وتدفعها لأن ترى في المجتمع بناءً ذهنياً لا غير، ولأن تودع، بنحو نهائي، عادة سرد «القصص العظيمة». على صعيد آخر، وفي المنظور العام، لا يزال المرء يرتاب من التنبؤات، باعتبار أنها تنطوي ـ تأسيساً على نكتة غبية، تُنسب إلى شخص اسمه جون ماينارد كينز ـ على إشكاليات كثيرة، خاصة حين يُراد منها التكهن بالمستقبل.

بيد أن الخبراء المختصين بعلوم الطبيعة، و«مصممي الطاقة» هم من ينادون في اليوم الراهن باسهامات العلوم الإنسانية والاجتماعية والثقافية، القادرة ـ بما تقدم من تحليل وصفي لأحوال العيش في المستقبل ـ على إثراء التقدير الكمي، الساعي إلى التعرف على الاحتمالات المستقبلية على أساس الاتجاه الحالي، وعلى مساندة سياسة المناخ، أيضاً، المسؤولة عن تسهيل التكيف، على التغيرات الحاصلة في المناخ، لا سيما أنه يُفترض بهذه السياسة، أن تكون مهتمة، بجعل الإجراءات وعمليات الحظر والتكاليف المحتملة، من جملة الأمور المستساغة في المجتمع. وغني عن البيان، أنه لا يجوز للمرء أن ينظر للمجتمعات، كما لو كانت مجرد جسد، يعكس



عبارة تنقل تلاميذ إلى الضفة الأخرى لنهر سولو
من معرض: Goethe-Institut exhibition Riverscapes
Photo: Budi N.D. Dharmawan

صدى التجديد التقني، والتخطيط السياسي. فالمجتمعات تحاكي التغيرات المتحققة، وتتسبب، بالتالي، في إحداث تغيير في الأساس، الذي تنطلق منه كل واحدة من عمليات التدخل، إنها، أعني هذه المجتمعات، تنتج، بانتظام، وبلا قصد منها، معطيات ذات أهمية معتبرة، بالنسبة للعمل السياسي، وتستحدث تحولات غير مخططة، وتتنصل، بإصرار من العقلانية ذات الأهمية في التقديرات الحسابية المرجحة لاستخدام المبتكرات التقنية. لا بل هناك ما هو أكثر خطراً: فمن غير مساهمة «الأفراد العاديين»، بنحو طوعي، من غير تصورات الأفراد، غير المتخصصين، من غير المواطنات والمواطنين المتحمسين، ومن غير وجود عدد كبير من المواطنين، المتفحصين للأمور، والداعين إلى التغيير، نعم من غير هذا وذاك، سيكون الفشل، هو المصير المكتوب، على التوجيهات الحكومية، والاستثمارات، والحملات المتطلعة لشحذ وتعبئة الهمم، وسيكون هناك قصور في تنفيذ الإجراءات المطلوبة، دوماً وأبداً، وسيُخَلِف الاستثمارُ خرائبَ لا نفع منها، وستطفو على السطح ضروبٌ من المقاومة. حيث يتم، على سبيل المثال، من على «الطاولة الخضراء»، صياغة خطة، ترمي إلى نقل الطاقة بواسطة شبكة أسلاك، عابرة للقارات تمتد من رأس الشمال الأوروبي إلى الصحراء الكبرى، أي يتم التخطيط، لتنفيذ مشروع، لا قدرة على تقدير مخاطره بالنسبة للبنية التحتية، يلاحظ المواطنون بدهشة كبيرة وامتعاض شديد، المدى الطويل الذي يستغرقه إصلاح مجرى عاطل عن العمل في مكان عام، أو مدى تأخر تنفيذ إجراء بسيط في الشارع أو المنطقة المجاورة. وبهذا المعنى: فكلُ تقنية لها بُعدٌ اجتماعي، وكلُ ابتكارٍ ينطوي على مَعانٍ كثيرة، وكلُ سياسةٍ بحاجة ماسة لتبرير ذاتها.

إن مقاومة تغير المناخ والتكيف مع هذا التغير، يفترض، إذاً، من ناحية، تبني ثقافة جديدة تتيح للمواطنين فرص المشاركة في المسائل العامة، ومن ناحية أخرى، انتهاج أساليب قادرة على تحقيق تعبئة سياسية، لا تتطلع، للحصول من المجتمع المدني، على موافقة سطحية، أو تأييد ينبع من استسلام للمقادير فقط، بل تعترف، بأن المجتمع المدني شريك في بناء الحاضر والمستقبل، ومسئول وفاعل رئيسي، في نجاح تحول كبير، وفي تحريك عجلة هذا التحول. ومن نافلة القول الإشارة هنا إلى أن „تحولاً كبيراً” يجب أن يبدأ من عند المسؤولين الرئيسيين عن انبعاث غازات الاحتباس الحراري، أي يجب أن يبدأ: من ناحية، بالحركة الفردية والجماعية التي تنشأ على خلفية عمليات نقل الأفراد والبضائع، ومن ناحية ثانية، بأنماط التغذية، ومن ناحية أخرى، بأساليب استغلال الأراضي وتخطيط الفضاءات الحضرية وتعميرها. وفي هذه المناحي، لا بد من أن يطرأ تغير سريع وجذري، في استهلاك الطاقة وأنماط الاستهلاك، والموقف العقائدي، وأساليب الحياة، وذلك لأن بنية غازات الاحتباس الحراري تفرض، إذا ما أراد المرء تفادي الأضرار غير القابلة للإلغاء والحد من ترسبها في أسرع وقت، وبنحو فعال، وخفض هذه الترسبات إلى أدنى حد ممكن، في الأمد الطويل ـ وعلى مستوى العالم وبنحو متزامن.

وتأسيساً على ما سبق ذكره، لن يتسبب تغير المناخ، في تغير المجتمعات فقط، بل سيتسبب في تغير سياسة المناخ أيضاً. فعلى سبيل المثال، لن يستطيع المجتمع الأمريكي، المضي قدماً، في التمسك بأسطورة التنقل الفردي، بلا قيد أو شرط، بفضل مصادر الطاقة الأحفورية؛ على صعيد آخر، فإن من حقائق الأمور أيضاً، أن أي مجتمع، يحصل على الطاقة المتجددة، بنحو لامركزي، مؤهل أيضاً، وبالتأكيد، لأن يطور صيغاً أخرى، من صيغ الشركات والثقافات الصناعية؛ من ناحية أخرى، ليس ثمة شك في أنه لابد من تحييد الأضرار الناجمة (صدقاً أو زعماً) عن الإجراءات، الضرورية لتقليل انبعاثات ثاني أكسيد الكربون في المجتمع المعني وأخذها بالاعتبار، حينما تكون لهذه الإجراءات، تداعيات سلبية، على تلك القطاعات الإنتاجية، على وجه الخصوص، التي تستخدم الطاقة بنحو مكثف. وعلى الصعيد نفسه، فإن الاقتصاديات الناشئة، أعني اقتصاديات من قبيل البرازيل أو الهند، لا مندوحة لها حتى وإن أخذنا بالاعتبار أنها تتميز حتى هذا الحين بتدني نصيب الفرد الواحد، من انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون ـ من أن تقرر، ما إذا كان من مصلحتها، أن تخفض احتياطيها العظيم من موارد الطاقة الأحفورية، لصالح خيارات، تتماشى مع سلامة البيئة، أعني خيارات من قبيل تعزيز استخدام مصادر الطاقة المتجددة. أما بالنسبة للصين، فإن من مسلمات الأمور، أن القيادة السياسية الصينية، لا غنى لها، من أن تبرر سياستها، في مجال الطاقة بشرعية أخرى، غير شرعية النمو الاقتصادي المتسارع. وفي كل مكان، ستنشأ تصورات، ومواقف عقائدية، وأساليب تعاونية، وثقافات تخطيطية، وحركات اجتماعية، ومبادرات يتزعمها المجتمع المدني، غرضها المساهمة في تذليل المهمة الجبارة، المتعلقة بتحقيق «التحول العظيم». ومن نافلة القول الإشارة هنا إلى أن التصورات الدارجة، بشأن التحول العظيم، لا يمكن أن تراوح في نفس المكان، الذي راوحت فيه «الخطط الكبيرة»، التي تناولت، منذ تسعينات القرن العشرين، مناحي من قبيل «المجتمع المستديم» أو من قبيل الاكتفاء بأهداف تقنية ـ اقتصادية جمة التواضع، تؤكد على ضرورة «التخلي عن الكربون». بيد أن من حقائق الأمور، أيضاً، أن المرء لا يكسب الأنصار، لا من خلال خطاب، يغالي بالإشارة إلى الكوارث، فخطاب من هذا القبيل يتسبب، فقط، في اندلاع عناد وردة فعل عكسية، والنفور من الخسران و „الريبة من المناخ”، ولا من خلال الإفراط، في توجيه نداءات متصنعة، في إشارتها إلى الالتزامات الأخلاقية، فهذه النداءات قد تنال تأييداً لا يكلف المؤيدين شيئاً، أو قد تثير الفزع من الفشل الذريع. إن الأطراف التي تجهد، في عرض التحول، كما لو كان ينطوي على خفض للرفاهية المتحققة فقط، ويؤدي إلى خسارة خيارات متاحة، لا يكسب، ما خلا في بيئات المتقشفين، أي تأييد، على الأرجح أي تأييد لمسعاه هذا، مثله في ذلك مثل أولئك الذين يتبنون مواقف معاكسة، فهؤلاء أيضاً، لا يجدون، من يصغي، إلى تأكيدهم، أن كل الأمور ستبقى على الحال، الذي كانت عليه في سابق الزمن.

ومعنى هذا كله، سواء بالنسبة لنظرية مهتمة بتحليل التحول الاجتماعي بنحو يناسب روح العصر، أو بالنسبة لعلم تنبؤات يتفق ومتطلبات هذا العصر في تحليله لهذا التحول، هو أن الواجب يفرض، على هذه النظرية، وذلك العلم، ضرورة إعادة النظر، في التصميمات الأساسية، التي يقوم عليها المجتمع والجماعات، والسوق والدولة، والقوى الفاعلة والنظام السياسي، وشخصية الإنسان وسلوكه، والأزمة والحداثة. وحتى الآن، يوجد نقص في الدراسات، والندوات العلمية المخصصة للبحث في انتشار وإعاقة التجديدات، الكفيلة بتحويل المكاسب المعرفية، إلى وسائل معمول بها، وتناول الأسباب المحتملة لاندلاع تحول سريع في التنظيمات الاجتماعية، وفي الترتيبات المؤسساتية والاتحادات السياسية.

مثال المجتمع المفرط في استخدام السيارات يجسد استخدام السيارات في النقل الخاص، مثالاً جيداً، للبعد الاجتماعي الكامن في التقنية، من ناحية، لأن هذا القطاع، واحد من أكثر المتسببين، في انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون (هذا الغاز الذي يُعتبر، بالمناسبة، أحد العوامل المتسببة في تلوث الأراضي والهواء والمياه) ومن ناحية أخرى، لأن في هذا القطاع، تبان بجلاء العلاقة المركبة، القائمة بين تغير المناخ، والمعايير

التكنولوجية والبنية الاجتماعية، والتحول الاجتماعي أيضاً. إن السيارات والحافلات والشاحنات المتحركة بفضل استخدامها موارد الطاقة الأحفورية، ساهمت، منذ اندلاع الثورة الصناعية، تدريجياً وبنحو رئيسي، في نشأة تغير المناخ، وغدت مسئولة، في اليوم الراهن، عن انبعاث خُمس إجمالي ثاني أكسيد الكربون، علماً بأن هذه النسبة، في تزايد مستمر. ولو افترضنا أن التسعة إلى العشرة مليارات من سكان المعمورة، سيستخدمون، مستقبلاً، حوالي نفس عدد السيارات المتحركة بموارد الطاقة الأحفورية بنفس معدل الاستخدام الحالي في الولايات المتحدة الأمريكية، سينهار المناخ عندئذ بكل تأكيد.

أن الأمر الذي لا مندوحة منه، بشأن ما نحن في صدى الحديث عنه، يكمن في انتهاج أسلوب للحركة والتنقل، يتلاءم مع متطلبات سلامة المناخ والبيئة، أعني نمطاً، يضمن أن يتم التنقل بالسيارة، بأسلوب أكثر ذكاء، في الحالات التي لا يمكن فيها، الاستغناء عن استخدام السيارة. وإذا كانت الدلائل تشير، إلى أن انتهاج هذا الأسلوب، قد كان مخيباً للآمال، حتى الآن، فما من شك في أن سبب هذا الفشل، لا يكمن بالضرورة، في قصور العوامل التقنية، أو الاقتصادية، بل هو يكمن، في المقام الأول، في البُنى الاجتماعية، والعوائق الثقافية، والموانع السياسية. فتحول السيارة، المتحركة بقوة البنزين والديزل، إلى وسيلة التنقل رقم واحد، في كافة أرجاء المعمورة (علماً أن المرء صار يستخدم السيارة في ألمانيا لقطع حوالي نصف المسافات التي يقطعها في حياته اليومية، أي أن الألمان أمسوا، يسافرون بالسيارة يومياً، مسافات تبلغ، في المتوسط، ٤٣ كيلومتراً، وأنهم باتوا، يقضون في السيارة، في سياق تنقلهم هذا، ثلاثة أرباع الساعة يوميا) ليس سوى النتيجة الحتمية، لتقسيم عمل وتخطيط حضري، صار ديدنهما، في المجتمع الصناعي الجماهيري، نقل الغالبية العظمى من فرص العمل، „إلى خارج الدار"، أي إلى مناطق نائية عن مكان السكن، وفي تمزيق الروابط الجغرافية القائمة بين أماكن السكن ومؤسسات الدراسة والتعليم ومناطق الراحة والاستجمام. وغني عن البيان أنه لولا اختراع السيارة، وإنتاجها على نطاق واسع في الولايات المتحدة الأمريكية، وتصديرها، من ثم، إلى العالم أجمع، لما كان من السهولة بمكان، أن تنشأ الضواحي، حول المدن، باعتبارها مناطق سكنية مفضلة (وبديلاً عن الفضاءات الحضرية الكثيفة العمران)، ولا المتاجر الكبيرة، والميل لتناول الأكلات السريعة (كبديل عن أنماط الطبخ المحلية أو التسوق من المحال التجارية الصغيرة والمجاورة)، ولا مراكز الدراسة والتعليم الواسعة (كبديل عن مؤسسات التعليم الكائنة في المناطق المجاورة). ولأن هذه البُنى التحتية، المتحيزة لاستخدام السيارة، قد صارت أمراً واقعاً، لذا غدت هذه البُنى عاملاً يحفز، بلا انقطاع، على استخدام السيارة، بنحو متزايد، وسبباً، يعزز نمط التنقل، بأسلوب فردي. إن الجزء الأكبر من التنقل بواسطة السيارة، يتم في اليوم الحاضر، بين ما سبق ذكره من المحطات المهمة في الحياة اليومية: ويحتم عادة، قطع مسافة، لا تزيد على بضعة كيلومترات. وينال هذا التنقل دعماً، تقدمه له أساليب تموين، تتكفل بنقل البضائع والخدمات، على مستوى العالم أجمع. وتشهد «الأهمية النظامية» للسيارة، على أن تقسيم العمل، وهيمنة استخدام السيارة، في تنقل الأفراد، يعززان بعضهما، بنحو متبادل، وأن كل مشروع لتشييد طريق جديد، يساهم، عادة، في تزايد التنقل. من ناحية أخرى، وبقدر تعلق الأمر بالولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا على وجه الخصوص، فإن الملاحظ هو أن، الشركات المنتجة للسيارات، وأرباب العمل المتخصصون، بتزويد مصانع السيارات، بما تحتاج من آلات معدات وخدمات، قبل وبعد إنتاج السيارة، قد باتوا يساهمون، بتحقيق جزء معتبر، من



عائلة كبيرة في سيارة صغيرة، كابول
من معرض: Augenblick Afghanistan,
Museum für Völkerkunde, München
Photo: Ahmad Masood

إجمالي الناتج الوطني، وأن نشاطهم الاقتصادي، قد أمسى معياراً أساسياً، لقياس تقلبات النشاط الاقتصادي ودليلاً على الرفاهية الاقتصادية. من ناحية أخرى، لا تزال مصانع السيارات تقوم بوظيفة محرك للعلاقات الصناعية القائمة بين رأس المال والعمل. من هنا، فإن ما تذيعه صناعة السيارات وشركات الشحن، من تنبؤات، تقوم على معدلات نمو متزايدة، تضاهي، في تزايدها، معدلات النمو، التي يشير إليها شعار الألعاب الأولمبية، القائل „حقق المزيد وامضي قدماً بخطوات أسرع!"، يبدو، على خلفية هذه الحقيقة، كما لو كان قانوناً طبيعياً، وليس تطوراً مفرطاً في النمو وجنوناً أكيداً في المنظور الموضوعي.

أضف إلى هذا وذاك، أن من حقائق الأمور، أيضاً، أن قطاعات عديدة، تكسب قوتها، من وسائل الإعلان وحملات الدعاية، المرتبطة بالسيارة. وتشير هذه الحقيقة، إلى ما للسيارة من أهمية، في المدنية الراهنة، علماً بأن هذه الأهمية تبرز، في الولايات المتحدة وأوربا الغربية، بنحو لا مثيل له، في باقي أنحاء العالم. فالسيارة تُعتبر، بنحو مطلق، أهم وسيلة تحرك من حيث إسباغها الحرية على مالكيها، فهي تمنح مالكيها، التحرك فردياً، وتساعد على تخطي مسافات معينة، بسرعة كبيرة. وكانت الأفلام السينمائية الأمريكية "Road movies„ (أي الأفلام التي تلعب فيها سباقات السيارات دوراً معتبرا) ومعارض السيارات، قد جعلت من حيازة السيارة شعاراً شاملاً للمدنية، جعلت منه شعاراً يحدد هيكل مجمل الحياة المهنية واليومية، بما في ذلك نمط تناول الغذاء وما سوى ذلك من المناحي الأساسية في الحياة اليومية. إلا أن للسيارة خصائص أخرى كثيرة: إنها أداة تسبغ الهوية على كافة مستخدمي وعمال هذه المؤسسة أو تلك. فالعاملون في مصانع السيارات، غالباً ما يسَمِّيهم المرءُ، باسم الشركة التي يعملون لديها: باسم «عمال دايملر» على سبيل المثال. من ناحية أخرى، فإن مدناً من قبيل ديترويت وفولفسبورغ أمست مواقع إنتاج، متخصصة في إنتاج سلعة واحدة. على صعيد آخر، لا تزال السيارة، تشكل منارة لابتكارات تكنولوجية وجمالية، تسحر الألباب، ولا قدرة للمرء، على تجاهلها والنأي بالنفس عنها، في كثير من الحالات.

إن العجلات الأربعة أمست شاهداً، على ما توصلت إليه الأمم، من معارف هندسية، فالسيارة هي المعيار الرئيسي للتقدم الاجتماعي، لقد أمست، بالنسبة لكافة الفئات والطبقات الاجتماعية، رمزاً أكيداً على الوضع الاجتماعي، الذي يتبوأه المرء، ومؤشراً متداولاً، للتقدير والصيت والسمعة. وحتى في عالم، أمسى صغيراً ومنبسطاً، بفضل وسائل الاتصالات، العظيمة التفوق، والتكنولوجيات، المتقدمة في مجال وسائل النقل، المخصصة لبلوغ أماكن قريبة وبعيدة، حافظت السيارة، في مجتمعات المدنية الغربية والمجتمعات التي اكتسبت طابعا غربيا، على أهميتها، بنحو يكاد أن يكون نادراً، بالنسبة للمبتكرات التكنولوجية أخرى. وإذا كان اقتصاد السوق، قادراً على إشباع الحاجات الحسية، من خلال الفرص الاستهلاكية، فإن الأمر الأكيد، هو أن السيارة، تُشبع الحاجة إلى المتعة والسلطان، والحرية والراحة، والتميمة والتكنولوجيا، والرنين الموسيقي ـ أي أنها تُشبع، أقصى ما يمكن للحواس استهلاكه. وتشكل السيارة واحدة من البُنى التحتية الذهنية ـ علماً بأن البُنى التحتية لا تحدد بنية العصر الراهن فقط، بل تحدد أيضاً، بنية الاحتمالات المستقبلية أيضاً.

بأي صيغة نود الحياة يا ترى؟ إن الكفاح المستميت، الذي بذله أصحاب الشأن، منذ العام ٢٠٠٨، لإنقاذ جنرال موتورز وأوبل، يشهد بجلاء، على «الأهمية النظامية»، التي تتمتع بها صناعة السيارات في الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا. أم ينبغي القول: الأهمية النظامية التي تمتعت بها؟ وكيفما اتفق، الأمر البين، هو أن صناعة السيارات، تواجه على المستوى العالمي، تحديات عظيمة وتحولات جذرية: فبرغم ما تحققه هذه الصناعة، من معدلات نمو كبيرة، في العديد من دول الاقتصاديات الناشئة، صار لزاماً عليها إيجاد الحلول، لما تتوافر عليه من طاقات إنتاجية فائضة على المستوى العالمي، وتوطين نفسها، على التعامل مع الارتفاع الكبير، المتوقع حدوثه في أسعار الوقود، هذا الارتفاع الذي سيرفع كثيراً، من تكاليف التنقل باستخدام السيارة، وعلى الاعتراف بضرورة خفض انبعاث ثاني أكسيد الكربون، للحيلولة دون ارتفاع درجة حرارة المناخ بلا قيود وحدود، آخذة بالاعتبار، أن الواجب يحتم عليها الآن، تطوير محركات مختلفة كلية، مقارنة بالمحركات الدارجة في الزمن الحاضر. وبقدر تعلق الأمر بمستقبل التنقل بواسطة السيارة، يدور النقاش حول تصورين نظريين. التصور الأول يؤكد أن الاعتماد بنحو متطرف، وبشكل واسع، وسريع على موارد الطاقة المتجددة، أمر ممكن التحقق، وأننا نستطيع، حتى وإن واصلنا الحياة، بحسب النمط الدارج حاليا، الحيلولة دون تغير المناخ، والمحافظة على سلامة الطبيعة، وبذل جهد أكبر لإحقاق الحق وإقامة العدالة على مستوى العالم. وعمليا يرى هذا التصور: أن المرء يستطيع مواصلة الذهاب بسيارته الخاصة، وبنحو فردي، إلى مقر عمله، إلى محلات التسوق، وإلى منزله الريفي ـ لا بل يستطيع ما هو أكثر من ذلك: يستطيع الطيران إلى جزر المالديف، إذا تحقق أملنا ولم تغرق هذه الجزر في المائة عام القادمة. إن هذه الإستراتيجية يستطيع المرء (بلا تحيز لهذا الحزب أو ذاك) أن يطلق عليها مصطلح «النمو الأخضر»، أضف إلى هذا، أن المرء يستطيع تطوير هذه الإستراتيجية إلى «برنامج أخضر عالمي الأبعاد» محققاً بذلك توافقاً، بين متطلبات المحافظة على البيئة، من ناحية، ومتطلبات الاقتصاد من ناحية ثانية.

إلا أن الأخذ بالخيارات، المتاحة للتوسع في تشييد البُنى التحتية الخاصة بالمرور والتنقل، أمر مضنٍ بشكل عظيم، ويستغرق زمناً طويلاً نسبياً. وفي الولايات المتحدة وألمانيا وفي أماكن أخرى كثيرة من العالم، يجري الترويج، لفكرة كهربة عمليات التنقل الفردي بالسيارة الخصوصي، واستخدام الوقود الحيوي، عوضاً عن الوقود التقليدي. وفي هذا السياق، ينادي المركز الأمريكي الرائد في مجال ما نحن بصدد الحديث عنه، أعني المركز المسمى: Center for American Progress (مركز التقدم الأمريكي)، بضرورة العمل على تحقيق معايير جدارة أعلى للسيارات والمركبات، وبأهمية حفز المستهلكين لشراء سيارات ومركبات أكثر كفاءة، وتحريض المنتجين، على ابتكار تقنيات أكثر جدارة، وتقديم حوافز، تدفع

المنتجين والمستهلكين، إلى التوسع في إنتاج واستخدام الجيل الثاني من الوقود الحيوي.

ومن خلال هذه الخطط يلاحظ المرء بيسر أن أسلوب الحياة الأمريكي، يُراد الاحتفاظ به في كل الأحوال؛ وكان روبرت لافاين (Robert B. Laughlin)، الأمريكي الحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء، قد قال عام ٢٠١٠ في سياق جوابه على سؤال، يتعلق بسبب استخدامنا السيارات، ومضينا قُدماً، في مزاولة الرحلات البعيدة، في القرنين القادمين من السنين: "لأننا نريد ذلك".

ومن مسلمات الأمور، أن ثمة رغبات من الدرجة الثانية، أي هناك رغبات، تعكس ما نتمناه ونرغب الحصول عليه. وهذا هو الأمر الذي يركز عليه التصور النظري الثاني، هذا التصور الذي يتطلع إلى تحقق بنية نقل متعددة السبل، إنها تتمنى أن يتحقق توسع في وسائل النقل الحكومية، المختصة بتقديم خدمات النقل إلى المناطق القريبة، وفي شبكة القطارات، المخصصة للمسافات البعيدة، والسكك الحديدية فائقة السرعة، المخصصة لنقل الركاب في المقام الأول. ويا حبذا لو تم هذا كله، بتخطيط ذكي للمدن والفضاءات. وفي هذا التصور، لا تُلقى الموضوعات، المرتبطة برغبة الأفراد على التنقل بالسيارة، على عاتق تقنيات أخرى، تتسم بالجدارة، بل يعاد تعريفها، بحسب المعنى، الذي تمليه الميزة المعيارية، الخاصة بمقومات الحياة الجيدة، ويُفترض أن من مقومات هذه الحياة الجيدة، التخلي عن استخدام السيارة، إلى أبعد قدر ممكن. وكان رئيس الجمهورية الألماني السابق هورست كولر قد أكد في أيار/ مايو من عام ٢٠١٠ على المهندسين في خطاب ألقاه (قبل أن يقدم استقالته ببضعة أيام) في منتدى لايبزغ للنقل العالمي قائلاً: „إن من يفكر، عند سماعه عبارة ابتكار، بتلك السيارات، فقط، القادرة على خفض انبعاث الغازات المضرة بالبيئة، لا يحقق طفرة ذات بال. لذا دعونا نبتكر أيضاً أفكاراً، تساعد على تحاشي استخدام الطرق غير الضرورية، وتمكننا من تفادي عمليات النقل غير اللازمة من الأساس، وننفذ، أيضاً، ما يلزم لتخطيط مدننا، بنحو أفضل. دعونا نجيل الرأي، فيما نعتبره من محاسن الدور، الذي تلعبه السيارة في أسلوب حياتنا، وفيما يرهق أعصابنا لا غير، ويأخذ من وقتنا جزءاً معتبراً، وفيما يستحق أن نحافظ، عليه ونتمسك به، وفيما ينبغي بنا التخلي عنه وتفاديه على الدوام. نعم، دعونا نمعن الفكر، بالنمط الذي نريد العيش بحسبه، وبدور مناهج التنقل الجيدة، في تحقيق ما نصبو إليه، من أسلوب للحياة، وأفضل السبل لجعل هذا الأسلوب، يحظى باستحسان الجميع ويفتن الكل".

إن هذا التصور، أعني التصور الثاني، يفترض تحقق شروط هي أكثر من الشروط الواجب تحققها في الواقعية الخضراء. إنه يسعى إلى تحقيق تحولات قوية الفاعلية، في أسلوب المعيشة، ليس فقط بحكم الضرورة، التي تفرضها المحافظة على سلامة المناخ والبيئة، بل لأنه يرى، أيضاً، أن ما ينجم عن هذه التحولات من تغير في أسس الثقافة السائدة، يشكل أيضاً فرصة، لتحقيق تنمية بشرية أفضل. ومن وجهة نظر السياسة الصناعية، يجسد هذا التصور إستراتيجية لا ضرر منها ـ ولا تسبب ندماً على فقدان شيء ذي بال، ومعنى هذا هو : أننا نربح من تحقق التحول الهيكلي، وذلك لأننا لا نضحي، في واقع الأمر، بشيء يذكر. فبقدر تعلق الأمر بمنتجات الطاقة والتنقل والتغذية واستغلال الأراضي، تكون الأوضاع المفرطة في تطورها مطروحة للنقاش وتحت التصرف، لا سيما تلك الأوضاع، بنحو خاص، التي هي بأمس الحاجة للتغيير والتعديل، بأي حال من الأحوال، والتي يؤدي تغييرها، إلى ربط المنفعة الاقتصادية بالمنفعة الاجتماعية ـ الأخلاقية، المرافقة لعملية التغيير هذه. والأفضل هو أن نحاول تغيير الأمور الآن، أي مادام تغييرها لا يزال متواضع الكلفة، وليس في المستقبل، حين يفرض التغيير علينا، تحمل تكاليف أكثر أو يوم نكون عاجزين، عن تغيير أي شيء ذي بال.

إن التنقل الذكي لا يتمحور حول أنماط التنقل التقليدية، ولا يتطلع أبداً لأن يتم التنقل، بواسطة وسائل أخرى، ليس بينها وبين الوسائل الدارجة في اليوم الحاضر اختلاف جذري، أعني وسائل شبيهة بالسيارة ذات المحرك الكهربائي، فكما هو معروف يحظى هذا الحل باهتمام كبير في ألمانيا في اليوم الراهن. إن التنقل الذكي يضع الأنماط السلوكية، ووجهات النظر الجامدة، المسيطرة على الساحة، على المحك، بغض النظر عن نوع المادة الأساسية التي تمنح وسائل النقل، الطاقة الضرورية لمحركاتها. إننا لا نريد التوسع في التنقل الفردي، بلا حدود وإلى ما لانهاية، إننا نتحاشى هذا الأمر، حيثما وحالما يكون ذلك بوسعنا، نتحاشى هذا الأمر من خلال تأكيدنا، على ضرورة أن تكون أماكن السكن والعمل ومجالات الراحة والاستجمام والتسوق في مدن كثيفة ومجمعات كبيرة، أو من خلال مطالبتنا، بإلغاء الحوافز الاقتصادية الغبية، من قبيل المكافأة النقدية التي دُفعت لقاء التخلص من السيارة القديمة لصالح شراء أخرى جديدة، والحوافز الضريبية الأخرى من قبيل المبلغ الإجمالي الممكن استقطاعه من العبء الضريبي لقاء الكيلومترات التي يقطعها المرء في سياق تنقله من مكان السكن إلى موقع العمل، والاستعاضة عنها، بتقنيات تحفز، على سبيل المثال وليس الحصر، على ممارسات التحركات المقوية للعضلات، وتدفع باتجاه تشييد الشبكات الكهربائية الذكية بنحو عظيم، وما سوى ذلك من تقنيات متقدمة. ومن جملة الأمور التي نتطلع لتحقيقها هناك، أخيراً وليس بآخر، تقديم التسهيلات الضرورية، لحث الأفراد على الإكثار من السير على القدم، وحفزهم إلى التنقل بواسطة الدارجة الهوائية، والعمل على تحسين صيت هذه الأنواع من التنقل، والعمل على دفع أصحاب السيارات، لأن يسافروا بصحبة فرد أو أفراد لديهم الاستعداد للمساهمة في تكاليف السفر، أو ممن يرغبون في المشاركة في استخدام السيارة، أو لأن يتكفل المواطنون بمراعاة القواعد الضرورية للمحافظة على سلامة البيئة، وحفز المصانع والمؤسسات الإدارية، على تمكين العاملين، بالتنقل بواسطة ما لديها من حافلات، تلبي متطلبات سلامة البيئة، وليس بالسيارات الخصوصية، وما سوى ذلك من إجراءات أخرى كثيرة.

على صعيد آخر، إن الشخص الذي يمعن الفكر بنحو أكثر في أهمية الخصائص المحلية والموسمية وفي جوهر الحياة البشرية، لن يتوقع، بصفته مستهلكاً، أنه يستطيع الحصول على كل سلعة، متاحة في مكان ما من عالمنا الفسيح، ساعة ما يريد، كما لن يطالب شركات الشحن، بإحضار السلعة، التي يشتهيها، من كل فج عميق في

العالم، وتسليمها له خلال ٢٤ ساعة. إن الاستدامة المنشودة، بحاجة ماسة، إلى المبادرات الفردية، وإلى قيام المجتمع المدني، بتنظيم نفسه بنفسه. بيد أن نجاح هذه الأمور يتحقق، فقط، في حالة تكفل الأحزاب السياسية، بتأسيس تنظيمات، أبوابها مشرعة أمام الجميع، وفي حالة قيام المؤسسات التشريعية والإدارات المختصة بشؤون البيئة، بتقديم حوافز مادية ونفسية. وإذا ما أتيحت للمواطنين فرصة الشعور بقدرتهم على تغيير الأمور، والتأكد من أن قوتهم تكمن في وعيهم الجماعي، فإن بالإمكان فعلاً تحول المستهلكين، من أفراد مستغرقين في التفكير ليس إلا، إلى مواطنين يتوافرون على النظرة الفاحصة، وعلى المساهمة بنحو فعال في الحياة العامة.

ثمة خيار آخر ويدور، حالياً، نقاش حول ما يسمى بالوكزات، أي حول العوامل، المحرضة على إحداث تغيرات مستحبة، في السلوك والتصرفات، وحول الخيارات المهملة، التي تقدم أفضل الحلول، بصيغة معايير معطاة، وحلول من الدرجة الثانية على هيئة خيارات غير ملزمة. ومن نافلة القول الإشارة هنا، إلى أن هذه الآليات، تجيز كافة الحريات: أعني تجيز حرية إشباع الرغبات الآنية، وحرية تأجيل التطلع لإشباع الرغبات إلى المستقبل. إن أنصار التعظيم العقلاني للمنفعة، يعتقدون أن هذا النوع من التحكم الذاتي بالرغبات، يخالف طبيعة الإنسان؛ وأن الإيحاء للآخرين، ولو بنحو غير مباشر، بضرورة الالتزام بتفضيلات معينة، يجسد وصايةً على المواطنين ويعكس حريةً منقوصةً، مشوهةً، ونهجاً يتعارضُ، مع المبادئ الأساسية، التي تقوم عليها المجتمعاتُ، المتمتعة بحرية حقيقية. إلا أن هذا التصور يتجاهل فعلاً، أن ما يتخذه الفرد من تفضيلات (سبق لنا أن بينا حقيقتها انطلاقاً من مثال تفضيل التنقل بواسطة السيارة) أمرٌ يجسدُ ممارسةً تحركها عواملُ مؤسسية دائماً وأبداً وأن بني البشر يستطيعون، بكل تأكيد، وبصورة تلقائية، إشباع رغباتهم من الدرجة الأولى من خلال رغبات من الدرجة الثانية، وتنظيم هذه الرغبات بنحو عقلاني.

إن هذا كله لا ينطوي، لا على ثورة في تاريخ الأفكار ـ فهو يعكس المبادئ العامة لعملية تحديث انعكاسية ليس إلا، أي أنه يجسد فعلاً ارتدادياً، فعلاً مفعولُه هو نفسُ فاعله – ولا على تصورات سياسية من وحي الخيال والأوهام. فكما هو معروف، فقد قيدت ألمانيا نفسها، حديثاً، من خلال قيود تحظر التدخين في الأماكن العامة، وتضع سقفاً، لا يجوز للديون العامة تخطيه. وفي حين يرغب كثير من الأفراد تدخين السجائر، يود آخرون ترك التدخين حالاً أو في المستقبل القريب، وذلك لتفادي الإضرار بصحتهم، وبصحة الآخرين، وأنهم، بالتالي، يصوتون بنعم في عمليات الاستفتاء، حول فرض حظر تام على التدخين، ربما أيضاً لأنهم يخشون العودة إلى هذه العادة المضرة. على صعيد آخر، فبما أن تكاليف الفوائد والفوائد المركبة، الواجب على ألمانيا تحملها، قد بلغت مستويات لا تُطاق، لذا أمست الحكومة الألمانية تنتهج أسلوب الخفض التدريجي للعجز في الموازنة الحكومية، للحيلولة دون المضي قدماً في الاقتراض.

إن آلية التمسك العقلاني بالقيد، الذي يضعه المرء ذاته لنفسه، تعني أن المجتمعات، تستطيع في اللحظة الزمنية س (أي اليوم مثلاً)، الاستغناء عن شيء ما، بنحو معقول ومبرر، حتى وإن أفرز هذا الاستغناء، نتائجه في زمن لاحق، لنقل في اللحظة الزمنية ص (أي غداً على سبيل المثال). وفي هذه الحقيقة يكمن، في الواقع، مغزى النظر إلى تغير المناخ، بصفته تحولاً اجتماعياً: فبنو البشر يكتسبون القدرة، على التكهن مسبقاً، من ناحية، بالخصائص التي ستكون عليها مستقبلاً، تفضيلات الدرجة الثانية، ومن ناحية ثانية، بتطور هذه التفضيلات، عبر الزمن أيضاً، آخذين، من هذا وذاك، دروساً وعبراً، تمكنهم من الوقوف على ماهية الحلول، الأصلح لهم. ومن ناحية أخرى، فإن مبدأ «لا يوجد خيار أخر»، فعل فعله ورفع منزلة نموذج اقتصادي معين (غير صالح في واقع الحال) إلى عقيدة، لا يجوز التشكيك في صدقيتها أبداً، وقوض كل إمكانية، لاستباق الزمن بنحو انعكاسي، وجرد السياسية من منزلتها العالية، وتركها تغدو مجرد عملية إدارية، بلا قدرة على اتخاذ مبادرات عظيمة النتائج.

إن الأزمة الراهنة تعلمنا، أن الواجب يقتضي منا تعلم التفكير، ليس بالمستقبل القادم فقط، بل وبالمستقبل ما بعد القادم، بالمستقبل ٢ أيضاَ: يقتضي منا تعلم التفكير، فيما سيتعين علينا، أن نكون قد أنجزناه خلال عشرة أعوام، من أجل ضمان أن تفلح الأجيال القادمة في التمتع بحياة أفضل في الخمسين أو المائة سنة القادمة. وغني عن البيان أنه ليس بالإمكان التكهن، بنحو دقيق، بالمسار الذي سيتخذه التحول الاجتماعي، على خلفية تغير المناخ. إلا أن هذه الحقيقة لا تمنعنا من القول، إن بالإمكان التكهن، بنحو تقريبي، بالاتجاهات، التي يمكن أن يتخذها هذا التحول. لا سيما أن المواطنين والمواطنات، يستطيعون في ظل النظام الديمقراطي، تقرير الاتجاه الذي يحبذونه.

إن التحول يشكل هاهنا ضرورة قصوى فعلاً: فالنخب السياسية تواصل تنفيذ سياسة الخطوات الصغيرة، متجاهلة أن الوضع يتطلب اتخاذ خطوات، تحقق التحول المطلوب بجدية، وبأسلوب متطرف إلى حد ما. ولسنا بحاجة للتأكيد على أن هذه النهج ممكن التحقق. بدلاً من هذا، لا تزال النخب السياسية تراوح في مكانها، تراوح في إطار الدولة القومية، متناسية أن المعضلات والمشاكل العالمية تحتم تحقيق تعاون عالمي الأبعاد. إننا نتوافر على الوسائل الضرورية لتنفيذ سياسة ناجحة، في مجال البيئة والمناخ والطاقة، من ناحية أخرى، وعلى المستوى العالمي، ليس ثمة نقص، لا في المعارف، ولا في رأس المال، ولا في التقنيات، ولا في الدهاء السياسي والحِكم العملية. إن المعضلات والمشاكل تكمن في العملية السياسية، وفي قصور الجهود المطلوبة، لترجمة المبادئ المناسبة إلى اتفاقية عالمية تلتزم الدول بتنفيذها.

كلاوس ليغيفي من مواليد عام ١٩٥٠، دكتوراه في العلوم السياسية ويعمل حاليا أستاذا للعلوم السياسية، ومديرا لمعهد العلوم الثقافية في مدينة إيسن الألمانية.

ترجمة: عدنان عباس

يتضمّن مفهوم المناخ كلا المعنيين، التأثير والتحمّل. وهو يشترك في هذه الازدواجية مع مفهوم الثقافة. هل هذا هو السبب في صعوبة حسم القرار باتخاذ إجراءات ملموسة تجعل من حماية المناخ جزءاً من الثقافة؟

توماس ماخو THOMAS MACHO

المناخ والمستقبل

لماذا كل هذه الصعوبة في التعامل مع التغير المناخي؟

يتكرر السؤال حول الشروط والنتائج الثقافية للتغير المناخي ويجري في هذه الأيام نقاش هذه المسألة في أكثر السياقات اختلافاً. وقد يتعلّق الأمر بالسؤال حول ما يستطيع الفرد الواحد فعله في مواجهة خطر الكارثة المناخية. صحيح أن عنوان الفصل الأخير في كتاب تيم فلانري التحليلي والبرنامجي "We weathermaker" ،أي "نحن صانعو الطقس" هو "الآن جاء دورك"، لكنّ اقتراحات المؤلف الملموسة والتي اقتصرت على خمس صفحات فقط من الكتاب ـ كالاقتراح باختيار البرادات الأكثر رأفة بالبيئة ـ تثير التساؤل والشك أكثر مما تبعث على الثقة. كيف يمكن أن تبدو فعلاً ثقافة تحمي البيئة وتحافظ عليها؟ يكاد لا يشك أحد بأن الناس خلال آلاف السنين مارست التأثير والتغيير في العلاقات المناخية في البيئة المحيطة بها. بدأ ذلك على الأقل منذ ما سمّاه ف. غوردون تشايلد في كتابه "Man makes himself"، أي „الإنسان يصنع نفسه" بثورة العصر الحجري الجديد. لكن معظم هذه التأثيرات لم تكن مخطّطة بل جرت بشكل لا واعٍ.

هل الثقافة = المناخ؟ كان يوهان غوتفريد هيردر قد أدرك هذا عندما أسس لمفهوم المناخ بمنهج أنثروبولوجي ـ ثقافي في أفكاره حول فلسفة التاريخ البشري قبل أكثر من مائتي سنة. حيث نقرأ أن المناخ هو كالثقافة تجسيد للقوى واتجاهات التغيير التي يساهم فيها كل ما هو حيّ وفي سياق ذي علاقات متبادلة. لقد سرق الإنسان „النار من السماء" وأحدث تأثيرات في المناخ «بطرق مختلفة». لقد كانت أوروبا غابة رطبة ذات يوم، وقد تغيّر أهلها بتأثير المناخ، وحتى مصر ما كان لها بدون سياسة وفن إلا أن تكون „وحلاً للنيل" ـ بتعبير هيردر ـ لقد خرجت تلك الحضارة القديمة الكبرى من دلتا النيل „وأخضعت لمناخ اصطناعي" حاول الناس كجيش من العمالقة الصغار الذين هبطوا تدريجيا من الجبال „أن يغيّروه بقبضاتهم الضعيفة". وسيرينا المستقبل إلى أي مدى أوغلنا في هذا الغرض. كما يستنتج الفيلسوف.

كيف يصنع ويغيّر البشر مناخهم ويعانون أيضاً منه؟ يتحدّث هيردر عن عمالقة صغار بقبضات ضعيفة وكأنه يريد أن يؤكّد الازدواجية أو التناقض الداخلي بين القوة والعجز اللذين يظهران بوضوح لدى التعامل مع المناخ والثقافة. اختفت أشجار ومستنقعات وصحارى من الوحل من ناحية، لكن سكّان الغابات وضفاف الأنهار تغيّروا أيضاً، كما يفترض هيردر. لقد ثُقّفت الطبيعة لكن ذلك ينطبق على البشر أنفسهم أيضاً. من المتغلّب يا ترى: المبادرة أم المعاناة؟ من الواضح أن مفهوم المناخ يتضمن كلا المعنيين، التأثير والتحمّل وأنه يشترك في هذه الازدواجية مع مفهوم الثقافة. الثقافة تعني عادة ما أنتجه الناس بالعمل على الطبيعة، لكن الثقافة هي أيضاً ما فُرض على الأفراد من شروط وظروف تاريخية أو جغرافية أو لغويّة أو دينيّة–سياسيّة لم يختاروها. هل الثقافة هي مجرد اسم مستعار للمناخ (و بالعكس)؟ هل هذا هو السبب في صعوبة حسم القرار باتخاذ إجراءات ملموسة تجعل من حماية المناخ جزءاً من الثقافة؟

„الرحم الاجتماعي" كثيراً ما يربط الناس المناخ في محيطهم الاجتماعي القريب بحالة المناخ الطبيعي. يشهد على ذلك الكثير من الاستعارات المعروفة: كأن يتحدّث الموظّفون عن «عاصفة رعدية» أثارها رئيسهم في العمل عليهم او عندما يتحدث الناس عن «غيوم» في سماء الصداقة أو عن «برق» العينين أو ابتسامة الحبيبة التي هي «إشعاع الشمس» تقريبا أو «البرود التدريجي» للعلاقات بين الاحزاب او المتنافسين الذي قد ينتهي «بعصر جليدي». وهم قد يتقابلون «بوجوه صقيعية». ومن يدري، فربّما لم يكن التغير المناخي ـ بأشكاله المجّردة والتي تم التوصل إليها باستخدام أجهزة قياس تحاكي الطبيعة ـ ممكن الفهم لولا أنه مشابه لما يحدث فعلا في المحيط الاجتماعي ومناخاته. بالمقابل فلربما يكون مصدر الشك بالمسؤول الحقيقي عن المناخ الأرضي هو ذلك الفرق بين المناخ المحلي أو الصغير وبين المناخ العام أو الكبير، وعزل أحدهما عن الآخر

قدر الإمكان كإستراتيجية دفاعية ضرورية للحياة. وهو ما يمكن أن نسميه «الانعزالية».

وهذا المفهوم اقترحه هوغ ملر في كتابه: Progress and Decline. The Group in Evolution أي: التقدم والانحطاط، المجموعة في سياق التطور. حيث يتم وصف عمليات الانعزال كتكنيكات غير مخططة لكائنات حية منظمة اجتماعيا لتخفيف آثار الضغط الذي تمارسه عليها ضرورة التكّيف. وهي تفعل ذلك من خلال صنع «مناخ محلّي» أو موضعي خاص بها يفصلها عن المناخ العام بوضوح. وكمثال على ذلك تقوم بعض النباتات بالتقارب فيما بينها إلى درجة خلق مناخ خاص بها يتميّز بوفرة الظل والرطوبة ومن ثمة فهو مناسب لها أكثر من المناخ المحيط. وهكذا فالنباتات تحسّن من ظروف استمرارها بالحياة وبشكل مستقل. الانعزالية تقدم إذن فرصة للحماية. وهي تتيح المجال لتشكيل وحدات أو زوايا بيئية متكاملة وشبه مستقلة لتعيش فيها. يقول ديتر كلاسنز في «الملموس والمجرد» (١٩٨٠): "أثناء تطور الثدييات باتجاه إيجاد وسيط ملائم للبقاء كالماء، ثم الانتقال إلى حماية أوضح للبويضات وأخيرا إلى كيان الأم (الذي هو المانح المباشر للنسل والذي يطور مناخا اضطناعيا داخليا يمثل الشروط التمهيدية للتطور الطموح)، فإن الإنسان قلب التطور إلى حد ما، فالرحم أصبح الآن مكانا اجتماعيا، ما يعني أنه ليس سوى جزء من الوظيفة الوقائية التي (يضطلع بها داخل الأم) لقد خرج الرحم إلى الخارج، لكن هذه العملية لم يكن حدوثها ممكنا لو لم يكن المكان الخارجي قد هُيئ: إنه ـ الرحم الاجتماعي".

المناخ كمسرحة جمالية وثقافية وبكلمات أخرى فالبشر ـ كاختصاصيين في الانعزالية الاجتماعية ـ خبراء في صنع "مناخهم المحلّي" الخاص المناسب لبقائهم. وهم ينشؤون هذا المناخ الخاص الصغير دائما. فهم مثلاً يدفّئون بيوتهم في الشتاء ويستعملون المكيّفات في الصيف حتى ولو كانت هذه الإجراءات بالذات ضارة للمناخ الخارجي ـ العام. وهم يجدون التقارير حول ذلك وفكرة أن التخلّي عن بعض قواعد التدفئة والتكييف قد يساهم بحماية المناخ الخارجي صعبة التصديق. صحيح أن تلك الفكرة أصبحت تنتمي إلى كلاسيكيات الخطاب المعاصر لكنّها تعارض ما يشكّل منذ أكثر من مائة عام التعريف الممارَس للمناخ كمسرحة ثقافية وجمالية ـ أي لا علاقة مباشرة له ببقاء الفرد. وبينما كان الناس في الحضارات الزراعية الكبرى ـ سواء تلك الغنية في الشرق القديم أو الأوربية الأحدث عهداً ـ قد تعلّموا كيف يدرسون ظواهر المناخ المختلفة جداً ويفسّرونها كعلامات ذات علاقة ببقاء الفرد نفسه فهي إما إيجابية أو سلبية بهذا المعنى، ازدادت في زمن الحداثة ذي التقنيات الاعلامية المتقدمة الهوّة بين المناخ المحلّي والخارجي إلى درجة أن أسوأ التوقعات الكارثية يتم إدراكها في الوعي الحديث وكأنها مشهد مسرحي أو ربما كفيلم موضوعه الكوارث.

التواصل حول المناخ في المجتمعات الحديثة

إننا كما يعلّق بيتر سلوتردايك في كتابه: Schäume. Sphären. Plurale Sphärologie (2004) الـذي يتناول فيه تاريخ البشرية من خلال تأملات عن شكل الكرة والفقاعة والزبد، قد تحوّلنا إلى جمهور مناخ: «الأرصاد الجوية الحديثة (والمصطلح الألماني إغريقي الأصل اشتُقّ في القرن السابع عشر، ومعناه الأصلي: سابح في الفضاء) إنه علم الأمطار وكل ما يُبرق في السماء وكل الأجسام التي تسبح فوق الأرض. وقد نجح في فرض شكل جديد تاريخياً من أشكال المحادثة والتواصل بين سكّان الدول الحديثة والمجموعات الإعلامية السياسية وذلك من خلال هذا الشكل الإعلامي الناجح الذي يُدعى «النشرة الجوية» والتي أصبحت بمثابة نقاش الوضع المناخي للأمة؛ المجتمعات الحديثة أصبحت مجموعات تناقش الطقس بالقدر الذي يلقّنها فيه المصدر المخوّل بتزويدها بأحوال الطقس السائدة بالمعلومات حوله. وهكذا تتحول تجمّعات بشرية حديثة تُعد بالملايين إلى مجموعات جيران شبيهة بسكان قرية يتبادلون التعليقات حول الطقس وأنه أحرّ أو أبرد أو أكثر إمطاراً من اللازم بالنظر إلى هذا الفصل أو هذا الوقت من العام وذلك بفضل وسائل الإعلام الحديثة ونشراتها الجوية (...) التي حوّلت التجمّعات القومية إلى جمهور مشاهدين لمسرح مناخي فهي تزودهم على الدوام بمادة جديدة حول أوضاع الطقس وتجعلهم يقارنونها بما يحسوّن به ويخرجون من تلك المقارنة بآرائهم الذاتية. إنهم يحوّلون الطبيعة إلى ممثل يقدم عرضه على مسرح مشترك للجميع هو السماء والناس إلى متفرجين خبيرين. وبهذا يتحوّل كل فرد إلى ناقد مناخي يقيّم آخر المشاهد التي تعرضها الطبيعة وفق ذوقه الخاص.

إن مسرحة المناخ تراهن على طقس اجتماعي مصنوع يكون فيه مهندسو المناخ هم المؤلفون والمخرجون لقصص مُقنعة وصور. إنها تفهم المناخ والطقس على أنهما نتائج لإستراتيجية ولخطة. هذه الخطة يمكن لها أن تهدف إلى تحسين المناخ البيني الخاص ولكن أيضاً إلى تخريب المناخ المعادي. وليس صدفة أن يتم اعتبار الهجوم بالغازات السامة واحداً من الأشكال النموذجية للحرب الحديثة. فهذا الهجوم غير موجّه إلى أجساد الأعداء ولكن إلى محيطهم، إلى جوّهم، إلى مناخهم. كما يقول بيتر سلوتردايك في «الهزة

الهوائية، عند منابع الإرهاب (٢٠٠٢)»: "بدأ القرن العشرون كشفا جديدا عندما هاجمت «كتيبة الغاز» في الجيش الألماني الغربي في ١٩١٥/٤/٢٢ مواقع المدفعية الكندية ـ الفرنسية في قوس إيبر الشمالي بغاز الكلور كسلاح يستخدم للمرة الأولى على نطاق واسع. وكان جنود ألمان قد زرعوا في الأسابيع التي سبقت هذا الهجوم كمية كبيرة من زجاجات الغاز موصولة ببطاريات وبشكل لم يفطن إليه الفرنسيون على أطراف الخنادق ـ في الجبهة ـ. وفي تمام الساعة السادسة مساء قامت قوات استطلاع بقيادة ماكس بيترسون بفتح ١٦٠٠ زجاجة كبيرة (٤٠ كغ) و ٤١٣٠ زجاجة صغيرة (٢٠ كغ) مملوءة بالكلور عندما كانت الريح شمالية إلى شمالية غربية. وكانت نتيجة انبعاث الغاز الذي كان مكثّفاً كسائل في القوارير انطلاق غيمة من الكلور يقدر وزنها بمائة وخمسين طنا غطّت مسافة طولها ستة كيلومترات وعرضها من ٦٠٠ إلى ٩٠٠ متر". إن تجارب كهذه قد طبعت العقلية الحديثة. فهي تشكّل خلفيات مرعبة للطموح الجمعي إلى التحول إلى ما يشبه الضفدع البشري الكوني الذي يريد أن يخلق المحيط الذي يسكن فيه بكل الأشكال الممكنة باستخدام التكنولوجيا المتطورة والتي تمتد من الكبسولة الفضائية إلى البيوت المدفّأة، كما يقول مارشال ماكلوهان في كتابه «فهم الإعلام. أو توسع الحدود البشرية» (١٩٦٤). لكن تلك التجارب والخبرات ألهمت فلسفة القرن العشرين أيضاً من فتغنشتاين (الرسالة) مروراً بهايدغر (استباق الموت) وسارتر (الوجود والعدم) إلى بيتر سلوتردايك. وليس صدفة أن يكون فتغنشتاين وهايدغر وسارتر قد خدموا كمراقبي طقس في الحرب العالمية الأولى في الجبهة الشرقية أو في هجوم لودندورف، أو في الحرب العالمية الثانية على خط ماجينو. كان عليهم توقّع حركة الرياح والغيوم لتقدير المدى المجدي للمدفعية المعادية والصديقة بشكل أفضل.

اليوتوبيا والموضة كيف يُفترض بنا تقييم وتوقع تغيرات المناخ الأرضي المستقبلية إذا كان حتى الفلاسفة لا يستطيعون أن يتوقّعوا جديا إلّا تلك الحوادث القريبة جدا. لكن على من يود الحديث عن المستقبل أن يفرّق أولاً بين المستقبل القريب والمستقبل البعيد. المستقبل القريب هو ما سيأتي خلال ساعة أو غدا أو في أسبوع أو الخريف أو الربيع القادم. ولن يتجاوز المستقبل القريب في أبعد حالاته مدة ولاية تشريعية واحدة أو المدة الفاصلة بين بطولة العالم لكرة قدم والبطولة التي تليها. بعكس ذلك فالمستقبل البعيد يعني القرن المقبل أو حقبة انتصارات تكنولوجية كبرى أو هزائم كارثية. يجري تقسيم المستقبل البعيد إلى حقب والمفهوم المركزي فيه هو «اليوتوبيا»، بينما هو في حالة المستقبل القريب: الموضة. وبناء على هذا التفريق يصبح طرح السؤال مبرّرا عن تأثير حقيقة أن المستقبل البعيد فاقد للإيجابية في الخطاب الراهن، وهو ما يتبدّى من خلال النقاش حول أزمة اليوتوبيا وفيما إذا كان ذلك لم يؤدّ إلى ازدياد الاهتمام بالمستقبل القريب، وبالموضة والتوجّه والتيارات الآنية. وحتى السياسة لا يتعدّى أفق تفكيرها إلاّ نادراً المدى الذي وصله مفسر الأحلام المصري القديم يوسف الذي وضع للفرعون فكرة للتخطيط المستقبلي على أساس توقعات مناخية تغطي أكثر من ثلاث ولايات تشريعية (سبع سنوات سمان وسبع سنوات عجاف). أي مستقبل سيتم بلوغه وبأية تقنيات للتنبؤ والتخطيط؟ كانت الناس تلجأ إلى الكاهن للحصول على النبوءة التي تسهّل اتخاذ قرارات المستقبل القريب، بينما كان المنجّمون وفلكيو العصور القديمة يتولون مهمة وضع تصميمات لحقب وأزمنة المستقبل البعيد. ولكن ماذا بشأن اليوم؟ ما هو المدى الذي يمكن أن تغطّيه الإحصائيات وما هي موثوقية السيناريوهات التي توضع استنادا إلى «المحاكاة الحاسوبية»؟ حتى الحديث عن أنظمة الإنذار المبكّر يؤشّر إلى أن الهيمنة الحالية للمستقبل القريب تجعل التنبؤ بالمستقبل البعيد، سواء في السياسة أو الاقتصاد أو علوم البيئة، مقترنا بصعوبات تقنية ومنهجية.

لكن ذلك يزيد من خطورة أن تتحدّد درجة اهتمامنا بموضوع المناخ بدرجة أهميّته السياسية أي أن نناقشه فقط ما دام ذلك يلائم الصراعات السياسية. وفي حين أنّ تخيّل حدوث حرب نووية كان قبل ربع قرن لا يزال مناسبا، كان ارنست بلوخ يتحدّث قبل ستين سنة في كتابه «مبدأ الأمل» (١٩٥٩) بحماس عن تغيّر مناخي تُحدثه التكنولوجيا: "تكفي بضعة مئات الأرطال من اليورانيوم والثوريوم لتزيل صحارى غوبي والصحراء الكبرى وتحوّل سيبيريا وغرينلاند وشمال كندا والقطب الجنوبي إلى مناطق بجمال الريفييرا." ومن جهة أخرى فقد وُلدنا في القرن الواحد والعشرين في ثقافة لم نخترها، تماما كالمناخ. ويمكن لنا أن نتصوّر أن تلك الثقافة هي قدر مفروض علينا أو أنها مشروع نضعه ونحققة. والأمر نفسه ينطبق على المناخ. التغير المناخي هو تغير ثقافي والعكس. ولعل هذه المرونة هي الأمل في أي تغيير جذري في شروط الحياة المناخية والثقافية وهي التي تلقي الضوء الضروري لرؤية ماضي البشر، أولئك «العمالقة الصغار» بالمعنى الذي قصده هيردر. ولقد ذكر ذلك الفيلسوف الفايماري في «أفكار حول فلسفة تاريخ البشرية» أنّه قد يأتي «رحّالة» ما أو حتى علم جديد وفلسفة جديدة تقوم بالتفكير والعمل بروحية بيئية بدون أية أحكام مسبقة ومبالغات. لكن ذلك الأمل لم يتحقق بعد، حتى الآن.



منطقة في إيسلندا تبدو وكأنها لم تتأثر بالتغير المناخي

Photo: Charlotte Collins

توماس ماخو أستاذ تاريخ الثقافة في جامعة هومبولت في برلين منذ ١٩٩٣ وأحد مؤسسي مركز هيرمان فون هيلمهولتس لتكنولوجيا الثقافة. وكانت آخر المسائل التي شغلته بشكل مكثّف مسألة التغير المناخي.

ترجمة: حسين شاويش

إن الوعي بالمشكلات البيئية الذي بدأ منذ الستينيات من القرن العشرين عمل على وضع لغة خاصة به في تلك المجتمعات التي تُناقش فيها تلك القضايا بكثرة. وتزخر اللغة الألمانية بصفة خاصة بكلمات ومصطلحات جديدة تدين بوجودها إلى مشكلات البيئة. أما التساؤل بشأن ما إن كان لها ما يقابلها في اللغات الأخرى التي تصدر بها مجلة فكر وفن، فهذا متروك لمترجمينا وقرائنا.

رولف. بيرنهارد إسيج ROLF-BERNHARD ESSIG

المناخ والإيكولوجيا والتكنولوجيا الخضراء

كيفية انعكاس المشكلات البيئية على اللغة

إننا كعاملين في المجال اللغوي نعد نوعا فريدا وغريبا من أنواع البشر. فلا يسعنا ترك الكلمات في حوزة معانيها وشأنها. مثلنا في ذلك مثل مشاهدي العروض السحرية المتشككين، نعمل على متابعة تحركات اللغة عن كثب وبكل دقة. وإن هذا لأمر مبرر، نظرا لتوغل أصابع اللغة في جميع المجالات! كما أن الفهم الصحيح للغة من شأنه أن يكون هاما بل وحيويا. يبدأ هذا الفهم الصحيح في الحياة اليومية، مثلما يحدث في حالة تفسير إرشادات استخدام العديد من الأجهزة الإلكترونية التي يعتمد عليها المرء. فهؤلاء من يستخدمون مجفف الشعر داخل حوض الاستحمام على سبيل المثال، من المرجح أن يختبروا شعورا غير سار من الصعق الكهربائي. إلى جانب ذلك تكتسب اللغة وكذا الفهم الصحيح أهمية متزايدة إلى ما أبعد من اللغة التقنية المتخصصة. فاللغة المستخدمة في الحياة اليومية وفي وسائل الإعلام والسياسة تتمتع بقدرة على التأثير في جميع مجالات الحياة.

إذ تعمل على خلق مناخ ملائم لمجموعة محددة من الأحرف والكلمات وكذا الكلمات المركبة. فتنطلق المصطلحات والشعارات والأحرف فجأة وتتوغل في سعادة في جميع اتجاهات حياتنا اليومية، وتطرح نتائج مختلفة في شتى مجالات تفكيرنا المشترك.

ولعل من أكثر الأمثلة المعاصرة الاستخدام المتعدد لكلمة «المناخ» (Klima) بالألمانية، حيث تتقاطع بشكل رائع مع مختلف الكلمات الأخرى، بدءا من التكييف أو «جهاز تنظيم المناخ» (Klimaanlage) ومرورا بمؤشر مناخ الأعمال (Geschäftsklimaindex) ووصولا إلى قمة المناخ (Klimagipfel) ومؤتمر المناخ العالمي (Weltklimakonferenz). والعديد من الناس يساورهم القلق بشأن المناخ البعض يخشى الحفلات الموسيقية



أول سيارة كهربية كان إسمها: «التي لا ترضى أبدا»

الممطرة في الهواء الطلق، والبعض الآخر يهاب تفاقم ظاهرة الاحتباس الحراري.

إلا أن الجدير بالذكر أن تلك الكلمة لم يكن لها في الأصل أية علاقة بالظروف الجوية. فإذا ما ذكرت كلمة «مناخ» في الحياة اليومية، لم يكن المقصود بها ذلك المزيج من درجات الحرارة وضغط الهواء وقوة الرياح ونسبة الرطوبة ومدة سطوع الشمس. بل بالأحرى ميلان محور الأرض. إذ أن كلمة «مناخ» (Klima) قد تطورت عن الكلمة اليونانية «klinein» بمعنى «يهبط، يميل». وفي حالة أن أراد المرء أن يعبر عن ميلان محور الأرض من خط الاستواء باتجاه القطبين، أشار إلى تلك الظاهرة، أي «الميلان»، باستخدام لفظ «المناخ» (klima).

ولم يكن حتى أوائل العصر الحديث أن اكتسبت تلك الكلمة اليونانية الدخيلة معنى مختلفا. حيث اكتسبت مفهوما جغرافيا نظرا لارتباطها بخط الاستواء. وفي القرن ١٦ تُشير الكتابات إلى وجود صلة بين «المناخ» (klima) والحرارة والظروف الجوية.

وهنا يتساءل المرء كيف أمكن للبشر الاستمرار يوما دون هذه الكلمة. فقد أصبح بإمكان المسافرين أن يرجعوا أمزجتهم السيئة إلى المناخ الرطب والحار والمتقلب بشكل لا يطاق. وكذلك حصل المزارعون على عذر لعدم إثمار إحدى أشجار الليمون في الظروف المناخية القاسية. وكذلك أصبح الموظفون قادرين على تلخيص الصعوبات التي يواجهونها في الشركات ويرجعونها إلى: سوء مناخ العمل!

وفي عصر غوته ساد الاقتناع بأن المناخ له تأثير على البشر. وفيما كتب الشاعر إرنست تيودور فيلهلم هوفمان في هذا الشأن: „المناخ والوطن والعادات، ... كم تؤثر على التشكيل الخارجي والداخلي للمواطن العالمي!" وجاء في وصف لودفيج بورنه للحالة النفسية لسكان إحدى المدن في رسائله من باريس عام ١٨٣٢: „دائما ما كان لمناخ باريس الأخلاقي تأثير جيد عليّ ... سرعان ما تخلصت من جميع مخاوفي وألقيت بنفسي مبتهجا وسط زخم الموج الغض".

إلا أن أفضل من استحدث تعبيرات باستخدام كلمة مناخ، كان فريدريش شيلر في مسرحيته اللصوص. حينما سُئل المحتال شبيغلبرج كيف يمكن للمرء أن يصبح محتالا حقيقيا، أجاب قائلا: „... إذا ما أردت أن تتحول إلى محتال فأنت بحاجة إلى عقل كما أن الأمر يتطلب عبقرية وطنية، مناخ خاص بالمحتالين، إذا ما جاز التعبير...".

وما إذا كانت لدينا هنا في ألمانيا تلك «العبقرية الوطنية» اللازمة لـ«مناخ المحتالين»؟ فإنني أفضل ترك هذا التساؤل مفتوحا. إحدى الفرق الموسيقية التابعة لـ «الموجة الألمانية الجديدة» (Neue Deutsche Welle) وهي تيار موسيقي ساد في ألمانيا خلال الثمانينيات، كان لديها فيما يبدو اقتناعا بأنها ليست سوى مناخ جيد للغاية، وأطلقت على نفسها اسم: «مناخ رائع» (Prima Klima). ولم تكن تلك القافية الجذابة بجديدة، إلا أنه منذ ذلك الوقت فقط أن بدأ ظهورها لآلاف المرات في اللغة اليومية ولغة الأعمال. «مناخ رائع!» (Prima Klima)، فهذا ما يتمناه الجميع اليوم أيضا. إلا أن ما ساد في الثمانينيات من استرخاء ومرح بعيدين عن المسؤولية، قد تراجعا أمام الجدية والإلحاح والضغوط، وذلك التيار المروع، إذا جاز التعبير.

تحول في سياسة الطاقة على مدى الأسابيع التي تلت الكارثة النووية لمفاعل فوكوشيما في ربيع عام ٢٠١١، عايش المرء أمرا مماثلا، وإن كان بصورة أسرع وأكثر كثافة في الوقت نفسه. حيث كان الأمر صادما أن يرى المرء العديد من الشخصيات الإعلامية والعامة، لا سيما في ألمانيا، يتخلون سريعا عن مواقفهم البيئية والتي كانوا قد أصروا على تبريرها على مدى سنوات. وهو ما شهدته السياسية في اليابان عقب الانصهارات النووية والانفجارات المتكررة في المفاعل النووي.

ومما لا شك فيه أن الظروف المتغيرة تتطلب تغيرا في نهج التعامل. فالمثل الهندي يقول: „حينما تدرك أنك تمتطي حصانا ميتا، فعليك أن تترجل!" وعلى الرغم من ذلك يتعجب المرء مما أطلقت عليه بعض الصحف بلمسة فكاهية قاتمة «انصهار المواقف» (Positionsschmelze). إنه تلاعب بالكلمات على سبيل المقارنة بين انصهار المواقف المتصلبة وانصهار ثلاثة مفاعلات نووية يابانية قبل ذلك بفترة قصيرة.

ومرة أخرى نشهد في ألمانيا تحولا مفاجئا في سياسة الطاقة أو ما يُسمى بـ (Energiewende). وقد استخدم هذا المصطلح (Energiewende) في المجال العام منذ عام ١٩٨٠. وبشكل أكثر تحديدا من خلال التقرير البديل لمعهد البيئة التطبيقية الذي يشار عنوانه إلى: «النمو والرخاء دون النفط واليورانيوم». ومن هنا تكرر استخدام هذا الشعار في الاستعمال اللغوي في الحياة العامة. وإذا ما أدخلنا اليوم مصطلح «Energiewende» (تغيير سياسة الطاقة) في محرك بحث على الإنترنت، فسوف نحصل على قرابة مليون ونصف نتيجة. ولذا فقضية «تغيير سياسة الطاقة» (Energiewende) تتمتع بمناخ لغوي واجتماعي مثالي. أما عن كيفية تشكل وتحقق هذين المناخين، اللغوي والاجتماعي، فتلك قضية أخرى.

ولن يلحظ سوى القليلين الصلة المباشرة بين ذلك التحول وكلمة أخرى، ألا وهي كلمة «كارثة» (Katastrophe). فكذلك تعود أصول تلك الكلمة، «كارثة» (Katastrophe) إلى اليونانية القديمة وتعني حرفيا «تغير، عكس، تحول»، أو «تحول الأحداث إلى الأسوأ، نحو سقوط البطل» كاصطلاح تقني مسرحي. ولذا فإنه يمكننا أيضا ترجمة مصطلح الكارثة المناخية (Klima-Katastrophe) إلى «تغير المناخ».

وهي قضية تتداولها الألسنة كثيرا في الوقت الراهن، ناهيك عن «الانتقال إلى مصادر جديدة لتوليد الكهرباء» (Stromwende). كما يمكننا ترجمة مصطلح «تحول» في جميع المواضع إلى «ثورة»، إذ أن ذلك المصطلح اللاتيني الأصل لا يعني حرفيا سوى «قلب، تغير جذري» ولذا فهو أيضا نوع من أنواع التحول والتغير.

وفي هذا الصدد تبشر الثورة بتحرك عالمي نحو الطاقة المتجددة، مثل الطاقة الشمسية أو طاقة الرياح. إلا أن الخبراء اللغويين ليسوا من عشاق هذا المصطلح، فهو ليس سوى كلام فارغ من الناحيتين اللغوية والتقنية على حد سواء. وفي علم الفيزياء



أول سيارة كهربية كان إسمها: «التي لا ترضى أبدا»

ينطبق قانون الحفاظ على الطاقة على النظم المغلقة. وابتداءا من نقطة اعتلاج محددة لن يكون بإمكاننا استخدام الطاقة. أي أن الطاقة قد تم استهلاكها فيما يتعلق بهذا المفهوم الفيزيائي. وعلى الرغم من ذلك استطاع مصطلح «الطاقة المتجددة» أن يفرض نفسه في الوقت الراهن وتم بالفعل اعتماده في اللغة. فمن ذا الذي يرغب في خوض معركة عديمة الجدوى؟

إن مصطلح «الطاقات المتجددة» له دوي جميل للغاية في الاستخدام اللغوي ذو الصلة بالسياسة واللوبيات والحياة اليومية، وكأن هناك طاقة متوفرة بلا حدود، ولا ينتج عنها انبعاثات إضافية من ثاني أكسيد الكربون، وتعمل على الحفاظ على الموارد أو أنها ليست قابلة للنفاذ على مدى البضع آلاف سنة القادمة. وهذا ينطبق على الطاقة الشمسية والطاقة الحرارية الأرضية والطاقة الموجية وطاقة الرياح، على عكس الطاقة الكهرومائية. في حين أصبحت الطاقة المستمدة من الكتل الحيوية (النفط والخشب والفحم ..إلخ) محض هراء.

ولكن هذا الاستياء الذي يُستشعر به في نقدي اللغوي والموضوعي ليس أمرا سيئا بالضرورة. فهذا الاستياء هو الذي يحدد معالم الإنسان في المقام الأول، بل وربما يميزه أيضا! لا سيما هؤلاء التقنيون والحرفيون الذين يعتمدون على أنفسهم في إيجاد وتطوير حلول جديدة، انطلاقا من عدم رضائهم واستيائهم من أوجه الضعف في الأنظمة القائمة.

سيارة كهربائية قبل ١٠٠ عام ألهذا السبب أطلق البلجيكي كاميل غناتزي على سيارته الكهربائية ذات شكل الطوربيد „La Jamais Contente" أو «التي لا ترضى أبدا»؟ فهو أول من حطم بسيارته «التي لا ترضى أبدا» حاجز المائة كيلومتر في الساعة وبسرعة ١٠٥,٨٨٢ كم/الساعة وذلك يوم ٢٩ نيسان/ أبريل ١٨٩٩. وفي عام ١٨٩٩! في تلك الأيام لم يكن واضحا بأي حال من الأحوال أن محرك الاحتراق من شأنه أن يفوز ويصبح بذلك المحرك الرئيسي في القرن العشرين، في حين كانت السيارات الكهربائية أكثر سرعة وأكثر نظافة، والسيارات البخارية أكثر احتمالا. إلا أن المرء لا يملك سوى أن يتساءل ماذا كان ليحدث لو استطاعت السيارات الكهربائية أن تفوز في ذلك الوقت! ولكن قلة أسعار النفط وكذا اختراع مفتاح التشغيل الكهربائي قد ضمنت انتصار محركات الاحتراق.

في غضون ذلك، شهدت الكهرباء، قرابة عام ١٩٠٠، طفرة ليس لها مثيل امتدت لجميع أنحاء العالم. حيث تم إنشاء أولى القاطرات الكهربائية في عام ١٨٧٩ وأطلق عقب ذلك بفترة قصيرة أول قطار ترام كهربائي في عام ١٨٨١، وحصل منذ ذلك الوقت على لقب لازال يعرف به حتى الآن. فقد أطلق عليه الناس لفظ «الكهربائي» (die Elektrische).

وقد كانت هذه الطفرة في الواقع بمثابة الطفرة الكهربائية الثانية، إذ ارتكزت في المقام الأول على استنتاجات الباحثين من القرن ١٨ ومطلع القرن ١٩. فلقد كانت لهؤلاء الباحثين اكتشافات رائدة، جعلتنا نلتقي بأسمائهم أينما ذهبنا. فما كان من براعة أحد الكتاب إلا أن أطلق عليهم ذات مرة «أفراد القياس» حيث سُميت وحدات القياس بأسمائهم: منهم على سبيل المثال لا الحصر، أندريه ماري أمبير وأنتوان هنري بيكريل وشارل أوغستان دي كولوم ومايكل فارداي وجايمس بريسكوت جول وإيزاك نيوتن وجيورج سيمون أوم وأليساندرو جراف فولتا وبكل تأكيد جايمس وات.

المستقبل الوظيفي لمصطلح إيكولوجيا إن الديكتاتورية الإيكولوجية الجذرية هي السبيل الوحيد لإحداث تغير مناخي (لمنع حدوث كارثة مناخية) بسرعة كافية. ومع ذلك فإننا لا نستشعر تهديدا من فرض هذا النوع من الديكتاتوريات. لقد ازدادت الأهمية اللغوية للإيكولوجيا في البلدان الغربية بسرعة مطردة، لا سيما في ألمانيا. فتلك الكلمة التي لم تكن سوى واحدة من الألفاظ البذيئة والكلمات الساخرة المفضلة قبل خمسة عشر عاما، أصبحت تُستخدم اليوم في أجنحة رجال الأعمال ووسائل الإعلام ومتاجر السوبرماركت. كما استحدث لفظ «الإرهاب الإيكولوجي» (Ökoterror) تعبيرا عن الشكاوى والمخاوف في إطار الدوائر المحافظة. وهذا يكاد لا يحدث في وقتنا الراهن. أما صحيفة «فيلت» (Welt) المحافظة فقد أصبحت تكتب عن الإيكوقراطية (Ökokratie) الوشيكة دون وضع الكلمة في علامات تنصيص. كما أن كلمة «إيكوقراطية» (Ökokratie) تبدو ألطف من كلمة «ديكتاتورية إيكولوجية» (Ökodiktatur) وأكثر إيحاءا بالديمقراطية. فالترجمة المباشرة لكلمة «إيكوقراطية» (Ökokratie)هي بالتقريب: «الحكم الإيكولوجي» (Herrschaft der Ökologie). لم يعد هذا المصطلح يفزع أحدا بالكاد. وهذا يرجع إلى «الخضر» أو الأشخاص ذوي الأنماط الحياتية «البديلة» والذين كانوا مدعاة للسخرية فيما سبق ويعرفون باسم «المهووسون الإيكولوجيون» (Ökofreaks) أو «الثوار الإيكولوجيون» (Ökorebellen). إلا أنهم قد نجحوا في مجال الأعمال وأصبحوا يشغلون الآن مناصبا مركزية في المجتمع. ومن المهم بشكل خاص في هذا الصدد أنهم استطاعوا إثبات التالي: أن «لمسة إيكولوجية» خاصة يمكنها أن تكون مثيرة في حد ذاتها. لم يعد أحد يخشى «الرجل الإيكولوجي» و «المرأة الإيكولوجية». وأصبحت الإيكولوجية ذائعة وعصرية ورائعة، بل وأصبحت عنصرا ترويجيا. فإلى جانب بعض التعبيرات اللاعنة ذات الصلة بالإيكولوجيا مثل «الوغد الإيكولوجي» (Ökowichten) أصبحت هناك في الوقت الراهن تعبيرات أخرى مثل «الجمهورية الإيكولوجية» (Ökorepublik) و «المنتجات الإيكولوجية» (Ökowaren) و «الاختبار الإيكولوجي» (Ökotest) و «المزارعون الإيكولوجيون» (Ökobauern) و «البذور الإيكولوجية» (Ökosaat) و «السلع الإيكولوجية» (Ökoware) وناهيك عن «الحفاضات الإيكولوجية» (Ökowindeln). ولم يعد حتى الإيكولوجيون يضحكون على كلمات مثل «لاعب الكرة الإيكولوجي» (Ökofußballer) أو «حديقة الحيوان الإيكولوجية» (Ökozoo) التي ربما كان ينبغي عليها أن تستضيف سلالة «الخنازير الإيكولوجية» (Öko-Schweine) المهددة بالانقراض. كما أن هؤلاء الإيكولوجيين هم من قدموا إلينا «عالم اقتصادي إيكولوجي»: يُدعى أوتمار إيدنهوفر وهو أول أستاذ في العالم في «اقتصاديات تغير المناخ» (Ökonomie des Klimawandels) بجامعة برلين التقنية، وحصل بالفعل على لقب «عالم الاقتصاد الإيكولوجي» (Öko-Ökonom) من قبل صحيفة "Potsdamer Neuesten Nachrichten". فإذا ما تأمل كلمة «المنزل الإيكولوجي» سوف يكون بمثابة القطة التي تلاحق ذيلها من الناحية اللغوية وذلك لأن أصول كلمة «إيكولوجيا» ترجع إلى الكلمة اليونانية القديمة «أويكوس» (oikos) بمعنى «منزل» (Haus). وبذلك يكون المنزل الإيكولوجي (Öko-Haus) ما هو إلا المنزل المنزلي. أي أن الاقتصاد كان في البداية نوع من «الاقتصاد المنزلي» (Haus-Wirtschaft) ثم انبثق عنه المصطلح التقني للزراعة (Landwirtschaft) ومنه العلوم الاقتصادية (Wirtschaftswissenschaften). إلا أن الموضة الإيكولوجية الخاطفة ترجع بأكملها إلى الكلمة الأساسية «الإيكولوجيا» (Ökologie) والتي اخترعها عالم الأحياء إرنست هاكل منذ ١٣٥ عاما. يجدر بالذكر أن لفظ «أويكوس» (Oikos) لا يعني منزل بالضرورة، بل يمكنه أن يشير أيضا إلى الوطن، بحيث تكون الإيكولوجيا قد بدأت ككلم أوطان ثم تحولت إلى علم بيئة، يتناول التفاعلات المتبادلة بين الكائنات القائمة وكذا ظروفها الحياتية من الناحية العلمية.

وهناك تحول آخر قد ظهر في اللغة وعلى أرض الواقع بشكل متوازي، ولكنه لم يترسخ بعد في الإدراك العام بشكل صحيح. أولئك الذين انضموا في السبعينيات من القرن العشرين إلى حزب الخضر ذو الوعي البيئي، قد أظهروا تراجعا ملحوظا في أنماط حياتهم. فكانوا يرتدون كنزات محبوكة يدويا وسترات الجيش الألماني المخففة وما سمى بـ «خف يسوع» أو أحذية رياضية، كما فضلوا الإقامة في الريف حيث اختبروا أنماطا حياتية بديلة في إطار المجتمعات المحلية. وكان امتلاك المركبات بمثابة خطيئة إن لم تكن سيارات تحمل أسماء حيوانات: مثل عدد من السيارات القديمة من بينها الخنفساء (فولكسفاغن) وسيتروين والمعروفة باسم البطة (Citroen 2CV) وحافلات بولدوج (فولكسفاغن). بقدر ما كان ذلك الموقف مفهوما وسديدا باعتباره موقفا معارضا للتكنوقراطية الهوجاء، يعد التحرك الحالي نحو التكنولوجيا الخضراء سديدا وموضع ترحيب. إن التكنولوجيا الخضراء لا تعمل على تحفيز السياسيين والناخبين الخضر فحسب، بل غالبية المواطنين القادرين على تصور حياتهم في «المدن الخضراء» (Greencitys). إن الخضر الأوائل لا يسعهم استيعاب العديد من العبارات والمفردات الصديقة للبيئة التي استحدثت في الوقت الحالي، مما يبرهن من جهة أخرى على أن مناخ المجتمع وتغير المناخ الفعلي من شأنهما أن يغيرا من اللغة في غضون عقود قليلة.

إن ما قاله فيلسوف الطبيعة هراقليط منذ ٢٥٠٠ عام لا زال صحيحا بل ومحفزا في الوقت نفسه: «كل شيء يتدفق» (Alles fließt). فالتيار الكهربائي يتدفق والمعلومات تتدفق بسرعة وكفاءة، كما أن اللغة تتدفق في سعادة، شريطة أن يكون المرء متحمسا وسريع الاستيعاب وفي وضع التأهب. فليس من شأن كل ضربة تصيب الإنسان أن تعوقه. فالارتفاع المفاجئ في ضغط التيار الكهربائي من شأنه أن يشعل الضوء في ذهن المرء، بل ويرشده إلى حالة من التنوير غير مسبوقة. فتبدأ الخلايا العصبية في إطلاق نبضاتها الكهربائية الأصغر حجما والأكثر نفعا، تطلقها في كل مكان فتشتعل شرارة مثمرة للغاية بين مساحات ذلك العضو الأكثر تعقيدا في الكون حتى يومنا هذا: إنه العقل البشري.

رولف. بيرنهارد إسيج كاتب وناشر حر، يقيم في مدينة بامبرغ. اشتهر بمؤلفاته حول تاريخ التعبيرات الاصطلاحية الألمانية.

ترجمة: هبة شلبي

رغم أن التغير المناخي هو أحد مشاكل الحاضر الأكثر إلحاحا، إلا أنه لا يوجد إلا القليل جدا من المعالجات الأدبية لهذا الموضوع، ومن بينها رواية „ذوبان جليدي" للإيليا تروييانوف. في المقال التالي يشرح الكاتب أسباب اختياره لهذا الموضوع.

إيليا تروييانوف ILIJA TROJANOW

عن كتابي „ذوبان جليدي"

رواية عن كوارث التغير المناخي



منطقة في إيسلندا تبدو وكأنها لم تتأثر بالتغير المناخي

Photo: Charlotte Collins

← لا أستطيع أن أتذكر المرة الأولى التي واجهت فيها موضوعي «التغير المناخي» و «الاحتباس الحراري». تبدو لي هذه القضية مألوفة جدا وكأنها رافقتني طوال حياتي، إلا أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحا. لا يمكن أن يزيد الأمر عن خمسة عشرا عاما. لكنني وقبل أن أسمع للمرة الأولى عن انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، كنت قد شهدت التبعات الوحشية للتصحر. وكتبت أحد نصوصي الأولى تأثرا برحلة مدرسية إلى بحيرة توركانا بشمال كينيا. وكان عبارة عن مرثية مفعمة بالعاطفة عن الظلم النهائي والفقر المدقع وحمل عنوان: «حزن الأنهار الجافة».

رافقني منظر البشر المصابين بالهزال طوال أشهر لاحقة واحتجت لفترة حتى تمكنت من إزاحة هذا الشعور بالقلق العميق. وعندما حاولت تصور التبعات الملموسة لارتفاع درجة حرارة الأرض، تداعت إلى ذهني امرأة من شمال كينيا برزت عظامها من جلدها وتشبثت بذراعي فيما كانت تطلب مني بإلحاح ألا ابتعد قبل أن نتغلب سويا على الجفاف. ارتفاع الحرارة درجة أو درجتين وارتفاع مستوى المياه لستين أو ثمانين سنتيمترا، وأربعمئة وخمسون أو خمسمئة جزء من المليون من ثاني أكسيد الكربون المركز في الهواء - تنطوي مثل هذه القيم المقدرة استدلالا والمثيرة للجدل على سيناريوهات كارثية، لكنها لا تجعل هذا التهديد مرئيا. ولا تفجر الخيال. وبينما لا أستطيع ليومنا هذا نسيان المرأة المصابة بالهزال، يصعب علي أن أتذكر هذه التقديرات الكئيبة التي انتبهت لها مؤخرا بقوة في السنوات الأخيرة.

جعل التهديد مرئيا ربما لهذا كتبت رواية عن عالم متخصص في الكتل الجليدية، تذوب الكتلة الجليدية التي كان يراقبها ذات صيف حار. ويصاب باليأس والحيرة ويغرق في أزمة وجودية، ويصبح أكثر تشككا فيما يخص حضارتنا ويرفض أسلوبنا الاقتصادي وطريقة حياتنا وروحانيتنا. لكنه يجد سعادة مؤقتة في ذاك المكان الذي لم يكن مهددا (بعد) من الذوبان العظيم، إنها القارة القطبية الجنوبية. ثم يعمل عالم الكتل الجليدية السابق على ظهر سفينة ليشرح للسياح عجائب القارة القطبية الجنوبية. لكن بقدر شعوره بأن الطبيعة البكر للقارة القطبية الجنوبية قد أحيت روحه، بقدر ما يغمره الأسى لمعرفته بمصيرها، إذا ما حاول الإنسان تطويعها لأغراضه. تحاصره رؤى عن اغتصابها ونهبها، تولدت من تفاصيل صغيرة: سيجارة ألقاها جندي بين طيور البطريق، وعطب أصاب سفينة أخرى، وتصريحات متغطرسة طائشة من قِبل الركاب. فالقارة القطبية الجنوبية هي آخر أيكة مقدسة على الأرض - وتصور دمارها غير محتمل للباحث المتخصص في الكتل الجليدية. ولهذا يرى أن عليه أن يحول دون تدخل البشر في القارة القطبية الجنوبية.

عندما يقوم المرء بالبحث من أجل رواية، تتضح له بعض الأمور أكثر، ويعي بعضها الآخر لأول مرة. ومن ذلك أيضا أن القارة القطبية الجنوبية هي المنطقة الوحيدة في العالم المحمية بموجب اتفاقية دولية من الانتفاع الاقتصادي ومن حق السيطرة على أراضيها. وبينما تنتظر الدول المجاورة للمنطقة القطبية الشمالية بفارغ الصبر أن تستخرج ثرواتها المعدنية، فإن الاتفاقية الدولية الخاصة بالقارة القطبية الجنوبية مستمرة حتى عام ٢٠٤٨. وبينما يمكن حساب نهاية المنطقة القطبية الشمالية بشكل واقعي، لا يزال الحفاظ على القارة القطبية الجنوبية ممكنا. فالمنطقتان القطبيتان يمثلان حقا النقيضين المتنافرين تماما لعصرنا: ففي ناحية ثمة جليد موسمي، وفي الناحية الأخرى أرض صلبة، وفي ناحية ذوبان جليدي لا يتوقف وفي الناحية الأخرى غطاء جليدي على عمق أربعة آلاف متر، ثمة ناحية محكوم عليها بالفناء، أما الناحية الأخرى فمحمية بقدر معقول، ناحية تعد مرآة لقدرتنا على التدمير، والأخرى رمز لإلهامنا. باختصار: في الأعلى شر وفي الأسفل خير، في الأعلى جحيم وفي الأسفل جنة.

ذاكرة الأرض ليست القارة القطبية الجنوبية مجرد مكان طبيعي رائع مكون من تشكيلات صخرية وجليدية ضاربة في القدم، ولا تجتازه سوى طيور هادئة ترسم رسائل خاطفة في السماء الأحادية اللون فحسب، وإنما تحتوي أيضا على مخزن ضخم للمياه الأكثر طزاجة والهواء الأنقى على سطح الأرض. كما أن الجليد هو ذاكرة الأرض. لقد تمكنت عمليات الحفر التي يجريها مشروع نواة الجليد الأوروبي في القارة القطبية الجنوبية من الوصول إلى عمق ٩٠٠,٠٠٠ عام. وبامتداد الطريق لأسفل يصبح تاريخ كوكبنا مرئيا ويتضح بجلاء كيف طورنا خلال قرون قليلة قوة تدميرية لا يمكن أن تُوصف بشيء آخر سوى أنها مرضية. عندما يرى المرء القذارة في نهاية عمود النقاء الجليدي يشعر بأنه من الإهانة أن يكون المرء إنسانا. ويتساءل ما إذا كانت النزعة الإنسانية لا تزال كافية كمبدأ مثالي. لقد أنفقنا الكثير جدا من طاقتنا على إنقاذ الإنسان (أو على الأقل التخفيف من معاناته)، بحيث تحتم علينا الآن أن نتساءل كيف يمكن لنا أن نخلِّص الطبيعة. لأنها لا تعاني من الفناء (مثلما يرد في رسالة بولس إلى مؤمني روما) بل من البشرية. ويتضح ذلك أيضا بجلاء في بثور الجدري التي استوطنها الإنسان على حافة القارة القطبية الجنوبية، إنها حطام محطات صيد الحيتان، معدات إبادة جماعية صدئة. حيثما يستقر الإنسان، لا يستغرق الأمر وقتا طويلا حتى يتم إفناء الثروة الحيوانية القيّمة بواسطة الصناعة. قبل صيد الحيتان كان يتم سلخ عجول البحر الوبرية من أجل جلودها حتى انقرضت، ثم ثم قُتلت أفيال البحر وتم إحماء المدافئ بطيور البطريق لنقص الفحم، وعندما انقرضت أفيال البحر، كانت طيور البطريق تُغلى للحصول على زيوتها. يتم الانتفاع بكل شيء - ينجح الإنسان الدؤوب باستمرار في أن يظهر للطبيعة مدى تعاملها المُتلف وغير المفيد مع مواردها. اختفت الحيتان، وخلت المحطات. هنا نجد في أحد الخلجان: القصة الحزينة للطمع والشطط الإنساني. ومن الحاسم أن نفهم أن صيادي الحيتان الذين قاموا خلال عام واحد بقتل نحو أربعين ألف حوت للحصول على زيوتها، لم يكن باستطاعتهم تخيل أنه لن تكون ثمة حيتان في يوم من الأيام. تماما كما يجادل كثيرون اليوم أيضا بأنهم لا يستطيعون إلحاق أي أذى بالأرض. يشرح جيرد دايموند في كتابه «إنهيار»، أن معظم الحضارات قد انهارت على مرأى من أهلها.

قد يشعر كثير من العلماء بقلق وجودي بسبب هذا التفاؤل الظاهري الضبابي الذي يشوب نظرتنا. فحتى وقت قريب كان السائد هو أنه لو حللنا المشكلة بشكل صحيح، فسنقوم بحلها. لو فهمنا كيف يعيش كائن ما، فيمكننا أن نبقيه على قيد الحياة. لم نكن نحتاج سوى لأدلة قاطعة لكي نجعل العالم أفضل. لم يكن التقدم سوى مسألة مرتبطة بالعمل الدقيق. وكانت البيانات عبارة عن مخطط أولي للقرارات الصائبة. من ذا الذي لا يزال يعتقد في ذلك الآن؟ منذ السبعينات يدور جدل حاد حول فرضية غايا: الكوكب كمنظومة تكافلية

(والإنسان كفيروس). وقد حملت الفرضية اسم الإلهة غايا (الأرض) التي كانت تُعبد في دلفي في الماضي كإلهة للمستقبل. لقد غرقت وسيطاتها في نشوة الإثيلين ـ واليوم تنتج صناعتنا الإثيلين بكميات هائلة، موجودة في ملابسنا وفي الأشياء التي نستخدمها يوميا، في أجسامنا، ونحن كمستهلكين مخدرين، ولذلك فقدنا القدرة على التنبؤ بما هم قادم.

أحيانا تبدو الكتلة الجليدية مثل حوت لفظه البحر، وربما تكون النهاية الوشيكة للكتل الجليدية هي المجاز الأكثر تعبيرا عن القدرة التدميرية لأسلوبنا الاقتصادي الذي يدمر ما هو جوهري، لكي ينتج ما لا لزوم له. لقد أشار أستاذ الجيولوجيا، الذي استقبلني مؤخرا في مكتبه المتواضع، إلى لقطات بالقمر الصناعي على شاشة حاسوبه تظهر نهاية كتلة جليدية. إنها لقطة مقبضة، فخلال أعوام قلائل تفقد الكتلة الجليدية بسرعة حجمها. ويظلم سطحها، يمتص الجليد أشعة الشمس ويذوب أكثر فأكثر، إنه تأثير قاتل يزداد مفعوله من تلقاء نفسه ويطلق عليه العلماء اسم تأثير الهروب (وربما بلغة أكثر شاعرية: نقطة اللاعودة). ثم تتفتت الكتلة الجليدية إلى قطع صغيرة. أوضح لي أستاذ الجيولوجيا السبب وراء عدم قدرتنا على توقع الكوارث. لا يوجد نموذج يمكنه حساب المجهول، وحساب التبعات العديدة التي قد تزيد من قوة عملية ارتفاع الحرارة، كالغازات الأخرى المسببة للاحتباس الحراري، التي ستنبعث جراء ذوبان الطبقة الجليدية. لا يوجد نموذج يأخذ تأثير الدومينو في حسبانه. بعض المدخلات البسيطة قد تقلب الأمور رأسا على عقب، كأن يسقط جبل جليدي فجأة، وبسببه لا يسمح لركاب سفينة سياحية بوطء أي جبل جليدي (لكن هذا المبدأ لا يسري على كل الكوكب). وثمة مشكلة أخرى: كل حل موضعي يزيد من تشوش النظام أكثر فأكثر مما يقود إلى عدد لا نهائي من المفاجآت المحتملة. وإذا ما ترجمنا ذلك إلى لغة الأساطير فستعني نظرية التعقيد الحسابي أن أرضنا التي تخلخل توازنها عبارة عن متاهة، تقود فيها كل تفريعة طريق إلى دمار جديد. لقد تلاشى تفاؤلي أثناء سماعي لذلك. في المقابل، قال أستاذ الجيولوجيا، يدعي الساسة أن على المرء أن يفعل كذا حتى يحدث كذا، أي أن حل المشكلة يسير بشكل خطي. وكيف ستستمر الأمور من بعد؟ سألته أثناء الوداع. لا أعرف، قال الأستاذ بصوت هادئ



نبع ماء حار في إيسلندا
Photo: Charlotte Collins

وأضاف، حتى الآن وقعت أمور أسوأ بكثير مما توقعناه نحن المتخصصين. وليس ثمة ما يشير إلى أن شيئا سيتغير في هذا القانون.

فرصة البقاء الوحيدة: أقل بكثير إلا لو تغيرنا، وهذه مهمة كبرى. معظمنا تربى على تصور الجنة والنار، الخطيئة والعقاب، الملائكة والشياطين. لدينا إطلاع جيد على سفر التكوين: „وباركهم الله وقال لهم اثمروا و كثروا واملأوا الارض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الارض". وإذا ما أفرغنا كل المحيطات من أسماكها وسممنا كل أراضي الزراعة، فعلام سنتسلط إذن؟ نحتاج لموقف جديد إزاء الطبيعة، ولقطيعة مع ألفي عام من طغيان المركزية البشرية. لكي نخلص البشرية، علينا نحن أن نُنزل الإنسان من عليائه. فمن المنظور التوحيدي الكلاسيكي تعتبر زيادة انبعاثات ثاني أكسيد الكربون المتزايدة دعما إلهيا للوصول للهدف الأخروي المنشود.

وإذا ما انشغل الإنسان بهذا الموضوع لمدة أطول، فإنه يفكر بهوس شخص متخصص ويحمل معه دائما معارفه التي لا تقبل أي مهادنة. ليس القليل بكثير، بل إن فرص البقاء هي الأقل بكثير. ليست أقل فقط بل وهي مختلفة أيضا،

لأن الكوارث تترى بوتيرة أسرع مما كنا نظن
ولأن الخطوات الصغيرة لن تكون كافية

لن نتمكن من الحيلولة دون بعض الكوارث. ارتفاع درجة الحرارة كلمة لها وقع دافئ، لكن ترجمتها إلى الواقع الاجتماعي ستعني مزيدا من النزوح الجماعي والمجاعات الأسوأ والحروب الأكثر ضراوة. كل الأنظمة الحياة في طريقها للتقلص لأننا نفسد مجالها الحيوي. والمسؤول الرئيسي هو اقتصادنا القائم على مفهوم خذ ـ صنع ـ اتلف الذي يعمل بالطاقة الإحفورية. إن أمراض الرأسمالية هي الاستهلاك والإهلاك. والقوة الوحيدة في العالم الغنية والمتغلغلة بما يكفي والقادرة على تغيير هذا الوضع، هي القوة ذاتها المتسببة فيه. وهي لن تفعل ذلك، لذا فلا بد من التغلب عليها. وتلك هي مهمة عصرنا الكبرى.

إيليا ترويانوف كاتب ألماني من أصل بلغاري، حققت روايته «جامع العوالم» نجاحا عالميا كبيرا وتُرجمت إلى عدة لغات منها العربية. صدرت له مؤخرا رواية «ذوبان جليدي».

ترجمة: أحمد فاروق



منظر جوي لمدينة أربيل القديمة تظهر فيه الحدائق البيتية
Photo: G. Gerster. From: Saudi Aramco World Nov./Dec. 2012

كان الشرق، أقله في العصور القديمة المتأخرة والوسطى، يشتهر بفن الحدائق. ثمة تجانس بين الطبيعة والحضارة في أحسن صوره لصالح الطبيعة والإنسان على حد سواء. أما اليوم فإن التمدن والنمو السكاني يهددان فن الحدائق الشرقي، إلا أنه في الآن ذاته مازال يوفر العديد من نقاط التواصل العقلاني مع الطبيعة في المستقبل.

إيكارت إيلرس ECKART EHLERS

الحدائق في الإسلام

هل هي تقليد للحفاظ على البيئة؟

البازارات والجوامع والقصور، هي أولى المعالم التي تثير خيال السائح الغربي في الشرق الإسلامي. زيارة المواقع الأثرية، المعبرة جزئيا عن حضارات قائمة منذ آلاف السنين، أو بقايا الحرف اليدوية الفنية التي مازالت تمارس حتى اليوم أو نتف التعبيرات المستمرة عن الثقافة الشعبية وتقاليدها في المدينة والريف تكمل «النظرة من الخارج»، وهذه كثيرا ما تكون مبسطة وسطحية.

مع كامل التقدير للآثار الرائعة لهذه الثقافات المدينية في معظمها ولتنوعها المحلي والتاريخي، لا يطرأ السؤال عن ظروف نشوئها ومآلاتها إلا قليلا. وأهمها عامل الماء. بصرف النظر عن سهوب النيل، ودجلة والفرات والهند فإن الطابع الغالب على الشرق الإسلامي هو الصحراء والبادية. الجفاف ونقص المياه هي أبرز خصائصه البيئية. الماء هو العنصر المهيمن على كافة مناحي الحياة. يستحيل وجود غطاء نباتي كثيف، أو تنوع في عالم الحيوان والنشاط الإنساني أو الزراعة أو التطور المديني دون توافر مياه كافية. الواحات صغيرها وكبيرها هي المراكز الأهم للثقافتين الريفية والحضرية وسط طبيعة قاحلة للغاية. وهذه تتبدى على شكل مساحات زراعية مروية، أو حدائق غناء بتخطيط متقن وأسوار عالية كمنازل للحكام أو وقف ديني، أو بساتين ومزارع تستثمر في وسط صحراوي جاف ، كما أنها تتبدى أيضا في الحدائق المنزلية

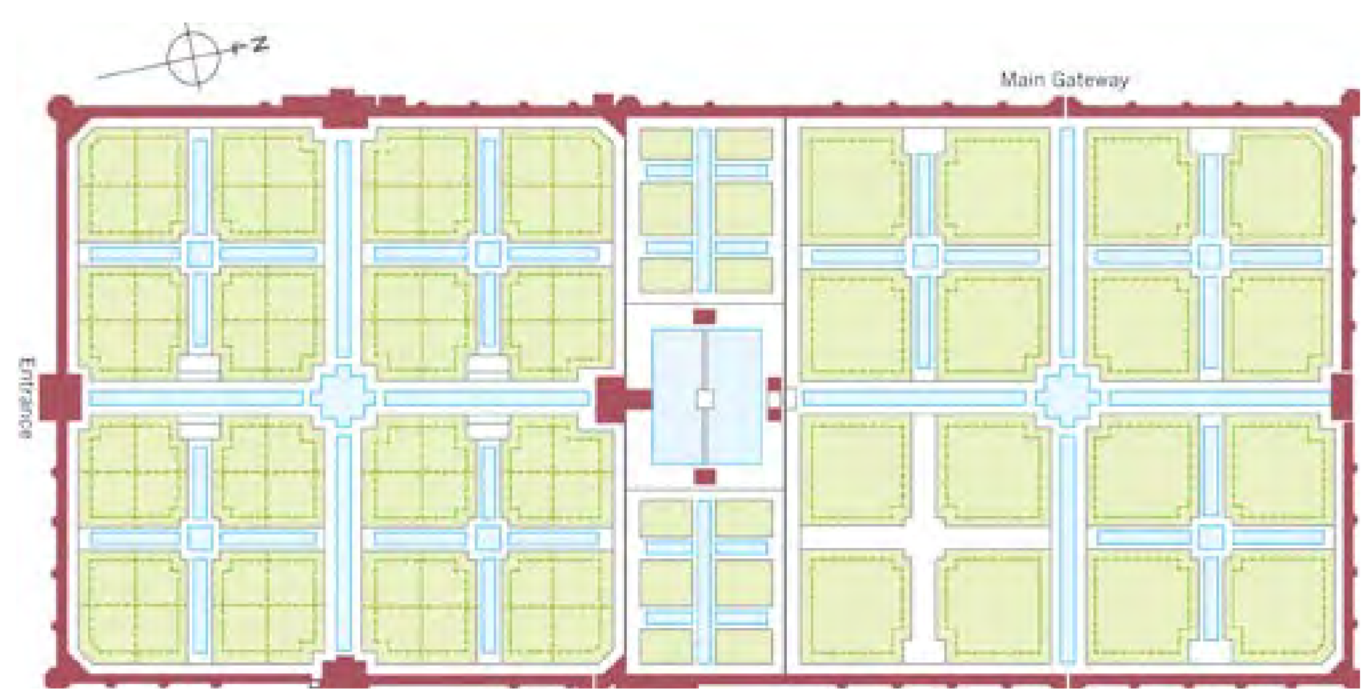
الصغيرة والرقع الخضراء حول البحرات والبرك داخل أفنية المنازل المدينية. إنها واحات الإنتاج الزراعي، واحات الراحة والتأمل والاسترخاء. والماء والخضرة الظليلة هي المكونات الرئيسية لهذه الجزر.

حدائق الإسلام ـ الرؤية القرآنية ليس من المستغرب، نظرا لظروف المعيشة الشديدة في المناطق الجافة في الشرق الإسلامي، أن تكون للواحات والحدائق المروية مكانة خاصة في الإسلام كما يرد في الأحاديث النبوية والآيات القرآنية. وخير مثال على هذا سورة الرعد الآية ٣٥ التي تلعب دورا كبيرا ويستشهد بها كثيرا: „مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكُلُها دائم وظلُّها وتلك عقبى الذين اتقوا". كما يرد في آيات أخرى تصوير بديع للجنة والنعمى التي بُشِّر بها المؤمنون. فسورة الإنسان مثلا لا تكتفي بذكر ينابيع تتفجر من الأرض (الآيات ٥ و ٦)، بل تعد أيضا بكروم وأعناب وأشجار „دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا" (الآية ١٤). الوفرة والنعيم هما العاقبة الحسنى في الآخرة لمن ثابر على التقوى والصلاح في الحياة الدنيا. عطفا على هذه البشارة، لا غرابة أن توصف الحدائق الدنيوية الرائعة والفخمة، خاصة حدائق السلاطين المنتشرة من المغرب غربا حتى امبراطورية المغول شرقا بالجنان الأرضية، كناية عن الجنة السماوية وبشائر الحياة الممتعة بعد الموت. إن نظرة وتقييما موضوعيين لثقافة الحدائق في الشرق الإسلامي باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الثقافة المادية والروحية لهذا المنطقة تتطلب الإشارة إلى الجذور ما قبل الإسلامية لهذه الظاهرة. فالعناصر الجوهرية لثقافة الحدائق الإسلامية ظهرت قبل الإسلام بعصور في الحدائق المعلقة الأسطورية التي بناها سمير أميس في بغداد البابلية وكذلك الحدائق العظيمة للأخمينيين الفرس في بازارقادش وغيرها من البلاطات في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد. والأمر نفسه ينطبق على تأثيرات الغرب القديم. كان الإغريق، وخاصة الرومان قد عاشوا في حواضرهم في كنف فيلات فيها حدائق خضراء ونوافير، أو في منازلهم الريفية على تخوم المدن. بصرف النظر عن استمرار هذا النمط المعيشي في إيطاليا اليوم، نقل الرومان نمط حياتهم الممتد عبر ألفي عام إلى كافة أصقاع امبراطوريتهم التي وصلت إلى أقاصي الفرات.

وقد اكتسبت الحديقة في العالم الإسلامي عمقها الروحاني، وبذلك الجمع الفريد بين الدين والروح والثقافة، بعد تشبعها بصورة عن فردوس السماء. في تعليق موسع على معرض في برلين حول موضوع «حدائق الإسلام» كتبت الصحفية كاميلا بليشين عن دور وقيمة الجنان الأرضية على النحو التالي: „نحو مئة وثلاثين مرة يذكر النبي محمد، ناطقا باسم الله، هذه الجنة حيث تجري الأنهار والخمور والحليب والعسل، وظلال الأشجار الباسقة تمنح الهناءة والبرودة والروائح الزكية تنبعث من بحار الزهور والرياحين، سكنا للأتقياء، جنات عدن فيها ورود ونرجس، نخيل ورمان ومتع وملذات سامية للصالحين في الآخرة. ساعد المخزون البشري للصور عن الفردوس الخيال الإنساني بسهولة على استقرار البناء الإيماني للمسلمين الذي يقطن فيه اليوم حوالي مليار ومائتي مليون إنسان"، (فرانكفورته آلغماينه تسايتونغ، ٢١ /١/١٩٩٤، ص ٣٥).

حدائق الإسلام ـ أنماط الواقع الدنيوي ولكن كيف تجسدت هذه الآثار الرائعة فنيا وحضاريا في الواقع الأرضي؟ هذا بغض النظر عما إذا أخذنا في عين الاعتبار النمذجة التقليدية، الغربية طبعا، للحدائق الإسلامية كخلفية للدراسة (مثلا نموذج موينيهان: الحدائق، حدائق القصور، حدائق اللذة في كتابه الموسوم: «الفردوس حديقةً في فارس والهند المغولية»، لندن ١٩٨٠) أو أخذنا تفاصيل منطقة ثقافية بعينها مثلما فعل أتيللو بيتروجيوللي، أفضل الخبراء في شؤون هندسة الريف والمدينة الإسلاميين. يميز الأخير بين مفهوم عربي وفارسي وتركي «للطبيعة، للريف وللمكان» وبذلك تأويلهم الخاص للجنة القرآنية وتجسيماتها الأرضية (أنظر: آ. بيتروجيوللي (إعداد): «الحديقة الإسلامية»، شتوتغارت ١٩٩٥). أينما ينظر المرء سيجد أن الماء والخضرة الكثيفة التي توفر الظل والبرودة المنعشة ـ ويفضل أن تكون ثمة أشجار مثمرة وعشب ـ هي من الملامح التي لا غنى عنها في هذه الجنة الأرضية.

بعيدا عن الوظيفة والموقع والمساحة تتوافق الحدائق الإسلامية كافة في معايير العمارة بدرجة أقل أو أكثر. فعمودها الفقري ومحور بنائها الرئيسي هو مجاري الماء، سواء في شكل حمامات بالغة الزينة وقنوات أو برك تحيطها أحواض ورود ومتنزهات تشرح الصدر. وعلى الجانبين مساحات خضراء (العشب، أحواض الزهور، الأشجار أو الشجيرات) في أشكال هندسية متعاكسة كإنما في مرآة. أكثر النماذج انتشارا هو نمط «جهار باغ» (الحدائق الأربعة)، فهذا النموذج الرئيسي، القابل للتقليد والتعديل حسب المساحة والموقع الطبوغرافي، يتواجد في مجمل مناطق انتشار ثقافة الحدائق الإسلامية. تكتسب الحدائق سحرا خاصا، عندما تزرع على مدرجات تربط مختلف مستوياتها درجات وشلالات مياه. لم ينس المصممون بناء أجنحة خاصة، أو مظلات مرمرية أو منصات



منصوبة في الجداول ومقاعد لراحة القاطنين في الجنة الأرضية. البحرات، النوافير أو الشلالات الصغيرة تزين أيضا المرافق بمحاذاة المحاور الرئيسية وفي نهاياتها وتساهم بذلك في حميمية هذه الواحات ضمن بيئاتها القاحلة.

ازدهـر التصوير الأرضـي للحياة السماوية خلال القرون الأولى لبلوغ الحضارات العربية الإسلامية ذراها في القرنين الحادي والثاني عشر، خاصة في صقعيها المغربي والأندلسي وحتى فترة الحكم المغولي في القارة الهندية خلال القرنين السادس والسابع عشر. من نافل القول إن التشعب المكاني والامتداد الزماني أديا إلى أنماط وأشكال مختلفة في عمارة الحدائق وثقافتها. الصـورة أعـلاه دلالـة بينة على مستويات التمايز. عموما لا يخطئ من افترض أن الطابع الديني التأملي الأصلي أزيح مع مرور الوقت لصالح المظاهر الدنيوية السلطوية. رويدا رويدا غدت «حدائق الإسلام» «حدائق في العالم الإسلامي»، أي أنها تحولت إلى إبداعات نادرة ذات طبيعة فنية وثقافية تاريخية لسلاطين وسلالات ذات حساسية فنية أو تدمن مظاهر الرفاهية والبذخ وبذلك نظائر جديرة بالمقارنة مع الحدائق الأوروبية في عهود الحكم المطلق في فرنسا أو الحدائق الانكليزية في القرنين الثامن والتاسع عشر.

الحدائق في العالم الإسلامي: ساحة ترفيه و«رئة خضراء» للمدن اليوم تحولت الحدائق في الإسلام إلى فراديس أرضية من طبيعة مختلفة كليا. فهي من ناحية أصبحت أهدافا مثيرة للسياحة الوطنية والقومية لرمزيتها الفنية التاريخية وميزاتها التقنية المائية كما أنها تدر الأموال. أجمل وأشهر الأمثلة على هذا حدائق ونوافير وأحواض الحمراء في غرناطة، بمرافقها البديعة من العمارات المبنية ببالغ الدقة، بيارات البرتقال، أحواض الزهور وكل ما تشتهيه النفس من نوافير وبرك. كما أن الحدائق الملكية في فاس، مكناس أو مراكش لا تحمل فقط دلالات دينية روحية، بل إنها علامة فارقة على التعايش الفني الراقي بين العمارة وترشيد الماء وبناء الحدائق، أكثر مما هي علامة على الديني. وشهيرة أيضا تلك الحدائق الفارسية التي لا تميل كثيرا للتأمل الديني، بل إنها كانت بالدرجة الأولى ملاذا للحكام كباغ فَن في قاشان أو بساتين الحكام الصفويين في أصفهان، أو باغ إرم في شيراز، على سبيل المثال لا الحصر. أما ذروة ثقافة الحدائق في الإسلام فتتمثل في إبداعات المغول المذهلة من كابول ولاهـور إلـى دلهي وحدائق شاليمار في سريناغار / كشمير. على وجه خاص تبيّن حدائق القياصرة المغول ومرافقها على ضفاف بحيرة دال في مرتفعات كشمير المعتدلة أن الحدائق كانت تبنى أساسا لإرضاء الرفاه الأرضي للقياصرة المستبدين وأتباعهم المقربين على حساب الرعية المغلوبة على أمرها المعرضة لرسوم ودفوعات تقصم الظهر. هذه بعض من الأمثلة، دون الادعاء بكمال المعلومات، تجسد واحدا فقط من نواحي فن الحدائق الإسلامي الشرقي التي تدهش اليوم الجمهور الدنيوي وتدفعه للاطراد في إنشاء الحدائق.

الناحية الأخرى هي تزايد استخدام تلك الحدائق القائمة على أسس دينية أو سلطوية كمساحة مفتوحة للجمهور العريض ومتنزها لأبناء المدن في ضواحيها أو في نطاقها. من الأمثلة الصارخة على هذا هو المتنزه الشهير وسط اصفهان في إيـران. جهار باغ (الحدائق الأربعة) كان ذات يوم جزءا من منطقة القصور الصفوية

مخطط لحدائق شاليمار في لاهور بباكستان
من كتاب: Crowe, S. - Sh. Haywood:
The Gardens of Mughul India.
Delhi u.a.O. 1973.

وبساتينها. أما اليوم فهي أحد المحاور الرئيسية في المدينة المليونية، وتتميز بأقنيتها المائية وأشجارها الظليلة، عـلاوة على قربها مـن الحوانيت والفنادق والمطاعم وغيرها. الأمـر نفسه ينطبق على كثير من الحدائق الملكية في المغرب. إلا أن وسط آسيا حالة استثنائية، حيث اعتبرت القصور السامانية والتيمورية وسواها من المواقع الأثرية والجوامع والحدائق القديمة في بخارى وسمرقند ومواقع آخرى كثيرة خلال العهد السوفييتي إشـارات إلـى السلطة الدينية الاقطاعية وجُعلت في مرحلة مبكرة متنزهات للجمهور. بصفة عامة كانت معظم الجنان الأرضية تقع في الأصقاع البعيدة أو خارج أسوار المدن. مع التطور المديني السريع في بلدان الشرق الإسلامي صارت أغلب هـذه المرافق تقع في «قلب المدينة» الأخضر. وبهذا غدت مناطق استجمام عامة يقبل عليها سكان المدن المزدحمة في الوقت الحاضر.

إذا كان لحدائق الإسلام تقليد يمتد لقرون عديدة وكانت تجسد تعايشا بين الـروح والفن والثقافة، فقد اكتسبت في عالم اليوم العقلاني ميزة إضافية ووظيفة غير مألوفة إلا بالكاد وهي تحولها إلى «رئة خضراء» في الحواضر ذات الكثافة السكانية العالية. قلبت الحداثة والتصنيع وعوادم السيارات الكثير من المدن إلـى حاضنات حـرارية خانقة بالدخان تفتقر الهواء النقي. وهذا يسري خاصة على فضاء الشرق الإسلامي الجاف والحار أصلا. المساحات الخضراء، خزانات المياه والأشجار متشعبة الأغصان العالية توفر البرودة المنعشة وتنقي الهـواء. التبخر هـو الوسيلة الأولـى لتخفيض درجة الحرارة والحصول على البرودة المنعشة عبر المساحات المائية وأوراق الشجر والنبات. بهذا تنال الجنان الأرضية السابقة دورا آنيا في الحواضر لم يأبه به مؤسسوها. ولهذا يمكن وصفها بالعنصر الجوهري للجدال الدائر حول «المدينة الخضراء» ولدور الحدائق المدينية في مناخ المدينة.

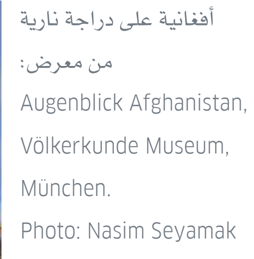
أمـا اليـوم فـلا تـؤثر حدائق ومتنزهات الماضي وحدها في مناخ المدينة. إنما المساحات المستغلة للزراعة في المدن، بل وأفنية الدور التي لا تحوي عادة سوى بركة صغيرة ونباتات الزينة، تخلق واحات مناخية صغيرة يشعر بها سكان المدينة كجنان أرضية قريبة من سكناهم. إن باحات الدور حيث تبنى الغرف عادة حول فناء رئيسي كما في جميع أنحاء الشرق تكاد تكون مقدَّرة لخلق مثل هذه الواحات المناخية. وحسب الوضع الاجتماعي لسكانها قد تكون هذه الدور مجمعات سكنية بمصادر مياه كبيرة تحيطها أروقة ظليلة وقاعات مهواة هي مقرات مؤقتة لتجار المدينة أو كبار الملاكين الذين يفضلون حياة المدينة على حياة الريف. الغالبية العظمى من المنازل تظل متواضعة كما ذكر أعـلاه، حيث نجد أصغر البرك المائية مسورة غالبا بأصص النباتات. كما أن الأفنية الداخلية تكون صغيرة بحيث تُنشَّر حولها في أشهر الصيف الحارة شراشف مشربة بالماء تعد ببعض البرودة. إن الأثر المتبادل للماء والنبات على الواحات المناخية الصغيرة المحلية يسري أيضا في الريف والقرى. فالحدائق المسيجة وأشجار الفاكهة لا تزرع فقط بغية العائد الاقتصادي، بل إنها أيضا واحات نضرة للهدوء والاستجمام البشري في الوسط الريفي لأهل القرى والضيع ولسكان المدن المحيطة بهذه الواحات الباحثين عن الراحة والاسترخاء.

الحدائق في الإسلام. جنان أرضية إنها وعد في الآخرة للمسلم الصالح وساحة ودلالة على الغنى للحكام المسيطرين، وواحـات هـدوء واسترخاء مـن ضغوط الحياة لابن المدينة والقرية اليـوم. لا يخطئ المرء حين يزعم أنه لم يعد للانعكاس والتأمل الديني دور في الحدائق الرائعة إلا بالكاد. بدلا من ذلك أخذ الاقتصاد والاستهلاك السبق في استخدام الجنان الأرضية. كما أن الاستهلاك الترفيهي سواء العالمي أو الاقليمي أو المحلي يلعب الدور الأقوى. في الماضي القريب جدا برز المعنى المناخي المديني لتلك الحدائق والمتنزهات التاريخية: الحضارة والطبيعة تأخذان دربا جديدا في سبيل التعايش.

إيكارت إيلرس أستاذ جيولوجيا متقاعد في جامعة بون.

ترجمة: كاميران حوج




أفغانية على دراجة نارية
من معرض:
Augenblick Afghanistan,
Völkerkunde Museum,
München.
Photo: Nasim Seyamak

ليست مشكلات أفغانستان البيئية بأقل من مشاكله الأمنية جوهرياً. بل إن من الأصعب أن نقول أنّهما مترابطتان. وتصطدم المحاولات المتردّدة للسلطات المسؤولة عن البيئة بنقص الوعي البيئي لدى السكّان. هذا رغم أن للأفغان تقليدياًعلاقة وثيقة جداً بالبيئة

تقي أخلاقي TAQI AKHLAQI

أنا ألوّث، إذن أنا موجود

الإشكالية البيئوية في أفغانستان

„طفلي مريض منذ فترة طويلة. ليس ثمة أيّ تحسّن في حالته، إنه يظلّ يسعل الليل بطوله حتى الصباح. وترتفع حرارته في النهار. هل ترى كم أصبح نحيلاً؟"

هذا ما قاله والد يحمل طفله المريض في ذراعيه وينتظر الطبيب في مشفى خاص لكي يسأله إن كان يستطيع فعل شيء لهذا الطفل ذي الخمسة أعوام. وعندما سألته: „ماذا قال الأطبّاء؟" أجابني: „رئتاه ضعيفتان، فبمجرّد أن يستنشق الغبار والدخان تأتيه هذه الحالة. أنظر إلى سيلان أنفه. كل هذا من التلوّث. من تلوّث الماء والهواء".

الارتباط بالطبيعة تثير مشكلة تلوّث البيئة الانتباه، على الأقل في المدن الأفغانية الكبيرة وخاصة كابول. فهي تدعو للقلق فعلاً. وليس صعباً العثور على أسباب ذلك القلق. فمن السهل إدراك خطورة التغيرات المناخية والبيئية على الحياة في بلد كأفغانستان يعيش ٨٠٪ من سكّانه على الموارد الطبيعية. كما أن السلطات الصحّية كانت في تموز/ يوليو ٢٠٠٩ قد أعلنت أن تلوّث البيئة يودي بحياة ٣٠٠ إنسان سنوياً في كابول وحدها. ومنذ ذلك الوقت تتوالى التصريحات المشابهة التي تؤدّي إلى إثارة لا انتباه السكّان فحسب بل وقلقهم أيضاً. فالناس

تريد أن تعرف أسباب الفيضانات الأخيرة وهبوط مستوى المياه الجوفية. وأن تعرف أسباب الازدياد المتواصل في نسبة تلوّث هواء المدن وامتلائه بجزيئات الغبار. وقد يعتقد المراقب الخارجي أن المشكلة البيئية لا يمكن أن تكون موضوعاً للنقاش في هذا البلد بسبب انشغاله بمواضيع أمنية أخطر بكثير كموضوع الحرب والسلام ومجموعات المعارضة المسلّحة ومشاكل البنية التحتية والتداخل بين القوى المحلية والدولية وأخيراً المحافظة على إنجازات السنوات الأخيرة، وهي مواضيع ملحّة عليه أن يصارع ليجد لها حلاً. رغم ذلك فهذه المواضيع كلّها لم تجعل الأفغاني ينسى بيئته. ثمة ارتباط ثقافي عميق بين الأفغان وبين بيئتهم الطبيعية وهي ما تزال متجذّرة في وعيهم منذ قرون. هذا الارتباط يمكن رصده بسهولة في أمثالهم وشعرهم وحكاياتهم. فهناك الكثير الكثير من الأقوال والأمثال السائرة والتي مصدرها الطبيعة. وهذه بعض الأمثلة:

كلّما زاد حمل الشجرة زاد انحناؤها
(مثل يضرب على تواضع الحكماء)
تلوّث الماء سببه النبع
(ومعنى ذلك أن الأمر المقصود خطأ من أساسه)
تفتقر كابول إلى المال ولكنّها لن تفتقر أبداً إلى الثلج.

يلاحظ المرء كيف تم استخدام كلمات الشجرة والماء والنبع والثلج في هذه الأقوال. كما أن تعلّق السكّان بالشاي الأخضر منذ أجيال كمشروب مفضّل هو مؤشّر آخر على هذا الارتباط بالطبيعة. حتى الرئيس كارزاي يحرص عادة على وجود فنجان من الشاي الأخضر أمامه على الطاولة في الاجتماعات الرسمية.

هموم مستوردة أم حقيقية استدعى مجلس الشيوخ الأفغاني مدير مديرية الشؤون البيئية في الأيام الأخيرة من السنة الماضية ليستجوبه حول بعض مسائل حماية البيئة. كانت الأسئلة تتركّز حول أسباب تلوّث الهواء ووجود تركيز كبير من الغبار الناعم في الجو والأمراض الرئوية والكلوية وأمراض البلعوم. الأشجار تختفي وتزداد الفيضانات بشكل لا مثيل له وتتراكم الفضلات في كل مكان. وقد خرجت من مراقبتي لتلك الجلسة باستنتاج أن ثمة جديّة تامّة في طرح تلك الأسئلة والحصول على أجوبة لها. لم يكن أحد قد طلب منهم عقد تلك الجلسة. لو كانت أسئلة أولئك الأعضاء تدور حول طبقة الأوزون أو الحيّز الحيوي لدببة القطب الشمالي أو آخر تطورات مناطق الأمازون لكان بإمكاننا القول بأن مصدر تلك الأسئلة هم غربيّون ألحّوا على «الشيوخ» الأفغان حتّى أقنعوهم بطرحها ليصنعوا من ذلك كلّه عرضاً دعائياً. لكن تلك الجلسة تميّزت بالحيوية والإثارة بحيث يمكن فعلاً استبعاد أي نظرية مؤامرة.

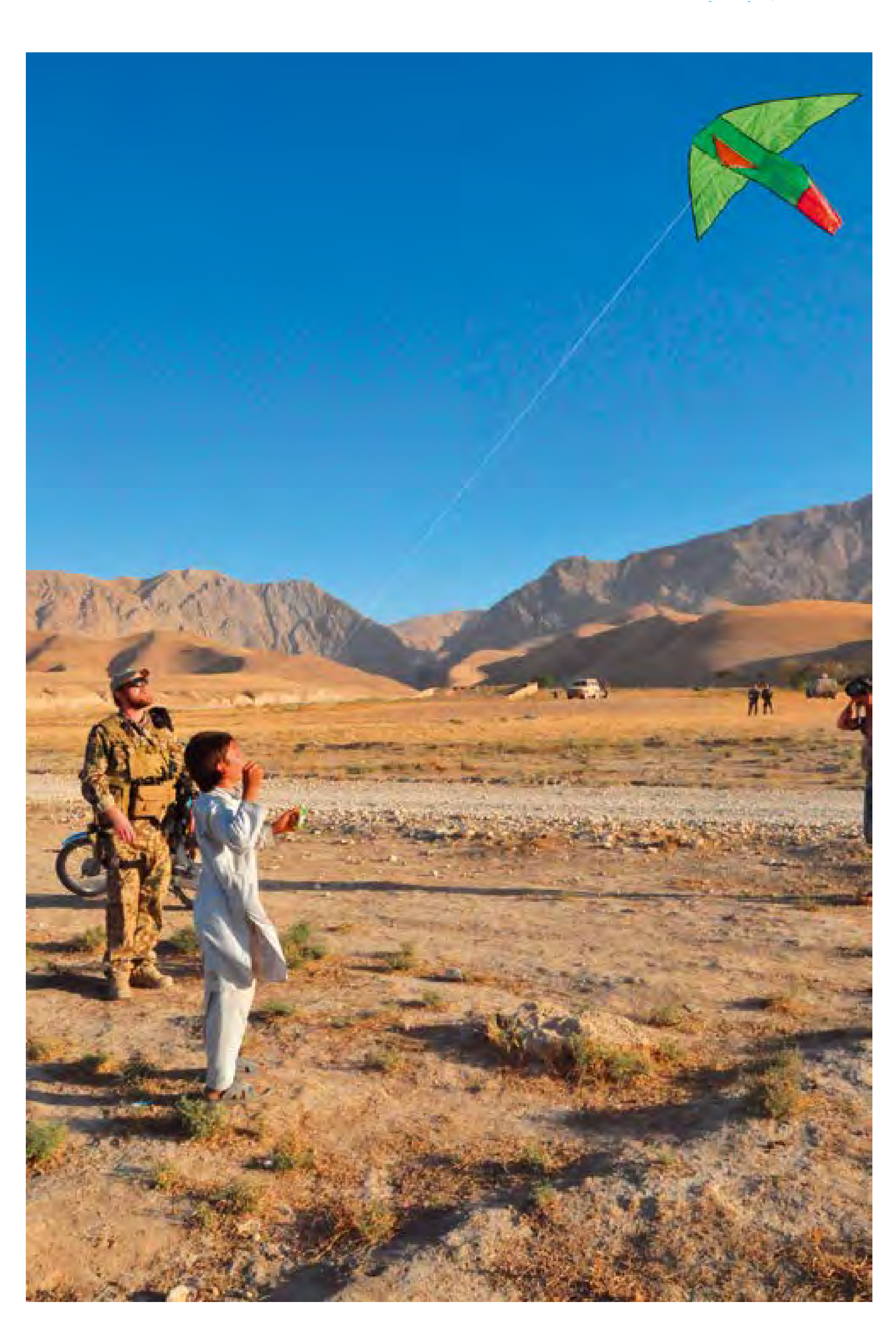
لخّص مصطفى زاهر، مدير مديرية الشؤون البيئية، في جوابه على أسئلة «الشيوخ» الأسباب الأكثر جوهرية لتلوّث البيئة كالتالي: الازدياد السريع لعدد السكّان في المدن، وبالنتيجة انخفاضه في الريف. ازدياد الكثافة المرورية في الشوارع الكبيرة. استخدام الخشب والمحروقات الأحفورية كالفحم الحجري في البيوت والمصانع. نقص الوعي البيئي أو انعدامه وتراجع المساحات الخضراء.

ثم عالج موضوع دور الأجهزة الرسمية الأخرى فاشتكى من عدم التعاون ومن غياب الاتفاق فيما بينها. وكان مما قاله: „سيسوء الوضع أكثر طالما لا تحتلّ حماية البيئة مكاناً بين أولويات التخطيط الحكومي".

وتذكر الحكومة من جهتها باستمرار وجود حدود لا يجوز تجاوزها وتحدّيات بيئية كبيرة داعية المواطنين إلى شعور أكبر بالمسؤولية والقيام بها. أما المواطنون فهم يبدون استعداداً للتعاون وتحمل المسؤولية لكنّهم يقولون أنهم لا يستطيعون تغيير الشروط العامة. هناك تلويث دائم للمياه السطحية والجوفية مثلاً. فكابول المدينة ذات الأربعة ملايين من السكّان ليس فيها قنوات صرف صحّي عامة وهناك حفرة خاصة لمياه النفايات لكل بيت. وليس أمام الناس حل آخر، كما أن الحكومة ليست لديها إمكانيّات إنشاء قنوات للصرف الصحي. وشبه ذلك يحصل فيما يتعلق بتلوّث الهواء. إن البيئة يتم تدميرها على كل المستويات. ويسمع المرء بين الغينة والأخرى أصواتاً تحذيرية وتُقرع أجراس الإنذار. ولكن لمن تقرع الأجراس في الواقع؟

وداعاً أيتها السماء الزرقاء „يقول الطبيب أن علينا أن نحافظ على دفء المنزل". „لقد اشتريت هذه السنة كمية من الخشب تزيد خارفاراً كاملاً (٥٦٠ كغ) عن السنة الماضية كيلا يصاب الطفل بالنزلة الصدرية. لقد وصف لنا الطبيب مزيداً من الأدوية. ربما يشفى الطفل هذه المرة". قال الوالد هذه الكلمات وضمّ الطفل إلى صدره وغادر المستشفى في الوقت الذي كان سعال الطفل الشديد مازال مسموعاً ويتواصل. إن قطع الأشجار لاستخدامها كخشب للتدفئة في الشتاء هو تقليد قديم. الناس تشتري الخشب للتدفئة ويساهمون من خلال ذلك سواء بوعي أو بدون وعي بتدمير الغابات. حسب إحصائيات البرنامج البيئي للأمم المتحدة ، فقد اختفى ٥٠٪ من الغابات التي لا تقدر بثمن في هذا البلد، وذلك فقط حتى عام ٢٠٠٨. لحقت بالوالد وابنه وسألته إن كان تلوّث البيئة واختفاء الغابات لا يسبّبان له القلق فقال بأنّه مهموم فعلاً بسبب تلوّث البيئة مشيراً إلى ابنه المريض، لكنّه لا يفكّر بالغابات.

جندي ألماني يلعب مع طفل أفغاني
من معرض: Augenblick Afghanistan,
Museum für Völkerkunde, München
Photo: Bundeswehr



إذن فإن هموم الأفغان تقتصر على ما يتعلّق بظروفهم الخاصّة ولا تتخطّاها كثيراً بالعادة. إنّهم لا يفكّرون كثيراً بذوبان أنهار الجليد ولا بارتفاع منسوب البحار أو اختفاء الدب القطبي أو ثقب الأوزون، فهم يعتقدون على العموم أن ذلك كلّه لا يؤثّر عليهم ولايعنيهم. ليس لدينا شواطئ سيغمرها الماء ولا دببه تتعرّض للخطر في حديقة حيوان كابول. أما مسألة طبقة الأوزون فلم يشغل الأفغان أنفسهم جديّاً بها.

ولكي ألفت نظره إلى أهمية الأشجار في تنقية الهواء سألت الرجل عن السبب الذي جعل الهواء يزداد تلوّثاً في السنوات الأخيرة بعد قطع كل ذلك العدد من الأشجار. كان جوابه مدهشاً، فقد قال لي وبكثير من التأكيد: "إن هذا التلوّث وهذه الأمراض هي أمور جديدة. لقد جاءت كلها بمجيء الغربيّين إلى بلادنا. ولم يكن أحد يذكر شيئاً من هذا كلّه قبل ذلك". وعندما سألته كيف توصّل إلى هذه النتيجة لم أحصل على جواب ولم يلبث أن غادرني. هذا النوع من التحليلات والاستنتاجات يمكن العثور عليها بشكل عادي تماماً في الأوساط التقليدية. بل إنها منتشرة جداً. واذا اعتبرنا هذا الموقف نمطياً فيما يتعلّق بالواقع الأفغاني وأمكننا تعميمه نستطيع أن نفهم انعدام التفاهم بين السياسيين الغربيين والأفغان وسبب مشاكل التواصل الدائمة بينهم. وهو تواصل يتعلّق به مصير أفغانستان ويشوبه سوء الفهم الدائم. تماماً كسماء كابول التي اختفت زرقتها في الغبار الكثيف وودّعت بذلك أهل المدينة منذ زمن.

حماية البيئة: إدارة صغيرة، لا أكثر تبدو مديرية البيئة الأفغانية وحيدة بلا سند حقيقي في مواجهة التحدّيات ومشاكل البيئة الكبرى. وهي المؤسسة الرسمية الأولى في تاريخ بلدنا التي تهتم بشؤون البيئة. وكان تأسيسها في عام ٢٠٠٥ حدثاً تاريخياً. وقد تلا ذلك أوّل قانون لحماية البيئة في عام ٢٠٠٧ الذي حدّد مهام السلطات الرسمية في هذا الحقل، وخاصة مهام مديرية البيئة نفسها. يتضمّن هذا القانون مهمّتين جوهريّتين في سبيل حماية البيئة:

١) وضع مسودّة قانون بهذا الخصوص.
٢) مراقبة الظروف البيئية.

يشرح القانون الذي تمت صياغته بمساعدة أختصاصيي البيئة في الأمم المتحدة طرق ووسائل حماية الحيوانات البرّية والمياه والغابات والمصادر الطبيعية الأخرى. فضلاً عن ذلك فقد انضمّت أفغانستان إلى عدد من المعاهدات والمواثيق الدولية، وهي مجموعة من الخطوات إلى الأمام التي يذكرها المسؤولون الأفغان بفخر كإنجازات حقّقوها ويؤكّدون على أن جهودهم قد تركّزت على بناء الوعي البيئي لدى المواطنين. وهم يذكّرون بنوعين من الجهود المبذولة ويُثنون على ما جرى من مبادرات:

١) كاستعداد شركات الهاتف المحمول لنقل أخبار البيئة في خطوطها.
٢) جمع الفتاوى والاجتهادات الدينية التي تخدم حماية البيئة.

ورغم أن نقل الرسائل النصّية (SMS) يُعتبر مبادرة محمودة بلا شك، إلاّ أن ارتفاع التكاليف جعل تطبيقها محدوداً. كانت الرسالة النصية الأخيرة التي تلقّيتها على هاتفي المحمول مثلا تعود إلى ١٦ أيار/ مايو ٢٠١٢ وهي رسالة قصيرة بالفارسية وهذا مضمونها: "إن زراعة الأشجار وشجيرات الزينة وحمايتها والعناية بها هي جزء من أخلاقيات الإسلام والبشرية".

أما النوع الثاني من الجهود فقد بدأ في ٢٧ حزيران/ يونيو ٢٠٠٩ وهو بلا شك بحث طويل النفس. وقد قال ممثّلو مديرية حماية البيئة في كابول في ذلك اليوم أن هدفهم هو إدخال مادة «الفقه الإسلامي لحماية البيئة» في منهاج التعليم العالي وذلك بمساعدة العلماء ووزارة التربية والتعليم. وهم يعتقدون أن من شأن ذلك أن يؤدّي إلى هدفين، الأول هو أن يعي الناس أن حماية البيئة هي أحد مواضيع الدين الهامة. الثاني هو خلق قواعد فقهية إسلامية لحماية البيئة. وهذه المادة القانونية ـ الفقهية يُفترض أن تُدرّس في المدارس بحيث يعرف الناس أن حماية البيئة هي جزء جوهري من الدين.

النزعة الدينية متأصلة في نفوس الأفغان. ومازلنا نتذكّر جهادهم ضد الجيش السوفييتي. فقد نفروا لقتاله لأنّهم كانوا يسمعون باستمرار أن دينهم في خطر ويحتاج إلى نجدة المؤمنين. وأعتقد أن الأفغان كانوا وما

يزالون متديّنين وهذه الحقيقة يعرفها الإداريون البيئيّون هنا ويحاولون استثمارها بذكاء. وهم يدّعون أنهم قد استطاعوا اقناع الناس بضرورة حماية البيئة بعد ثلاث سنوات من العمل من خلال القواعد الدينية الموافقة. وفي حين يستمر تدمير المصادر الطبيعية يدّعي ممثّلوا الإدارة البيئية هؤلاء أنهم خفّفوا من سرعة ذلك التدمير على الأقلّ، وأن مهمّة حماية البيئة تم توكيلها لمؤسسة لا تحظى إلاّ بجزء يسير جداً من ميزانية الدولة وقد قيّدت بحدود ماليّة لا تسمح بكثير من العمل.

مدينتنا بيتنا إن شئنا الصدق فلا بد من القول أن بعض العادات القديمة والجديدة والسلوكات الخاطئة التي فرضت نفسها بالتدريج خلال سنوات الحرب على ثقافتنا تلعب دوراً أساسيّاً في التلوّث الذي أصاب البيئة في الأعوام الأخيرة. الأفغان مستعدّون أن يفعلوا ثلاثة أشياء في الأمكنة العامة: أن يبصقوا وأن يرموا المهملات في الشارع وأن يبولوا. وقد خفّت ممارسة العادة السيّئة الثالثة، لكن كلاّ من العادة الأولى والثانية لا يزال يمكن مشاهدتها دائماً وفي كل مكان. ولتحسين هذا الوضع قامت بلدية كابول بكتابة هذه الجملة في كل مكان في المدينة وعلى ملابس موظّفيها أيضاً: «مدينتنا بيتنا». والأفغان يفسّرون هذا القول بطرق مختلفة. فواحد من أصدقائي مثلاً كان يأكل فاكهة في الشارع ورمى قشرتها على الرصيف، وعندما أبديت احتجاجي على هذا السلوك قال: „هذه بلدي وأنا حرّ أن أفعل هنا ما أريد“، قالها وكأنه كان يعني: „أنا ألوّث، إذن أنا موجود“. أي أنه كان يريد إثبات وجوده. وعندما سألته: „ماذا بشأن القول: هذه مدينتنا، هذا بيتنا؟“ قال لي ضاحكاً: „نعم فأنا أفعل هذا في بيتي أيضاً“. يرمي الكثير من الأفغان الفضلات في الشارع وفي الأمكنة الأخرى دون أن يتدخّل أحد لمنعهم عادة. ولنا أن نتخيّل حجم الكارثة التي أدّى إليها هذا السلوك المتواصل خلال السنين العشر الأخيرة. لن تستطيع بلدية كابول بشعارات قديمة كهذا الشعار: «مدينتنا بيتنا» إزالة جبل القمامة أبداً. ربما كان الأمر بحاجة إلى أقوال أدقّ وأكثر فعّالية كي يستجيب لها الناس بشكل أكثر وعياً وتحمّلاً للمسؤولية ولكي يفتّحوا أعينهم جيّداً على ما لحق ببيئتهم من تلويث.

المناجم والتعدين، صحوة التنّين ورغم كل هذه المصاعب الحالية فإن تنفيذ خطط التصنيع والتعدين الموضوعة سيكون من شأنه تسديد الضربة الأخيرة لطبيعة أفغانستان الجميلة والنادرة. إذ أن نتائج بعض التحرّيات تفيد بوجود مخزون هائل من الحديد والنحاس والليثيوم في أعماق الجبال الأفغانية من ناحية وحقول من النفط والغاز الطبيعي من ناحية أخرى. ولعلّ الوضع الأمني وخطورته الكبيرة على الاستثمار هو الذي منع الشركات العالمية من المباشرة في استغلال هذه الثروات الخام الأفغانية. إن انعدام الأمن هو سيف ذو حدّين، فهو بحد ذاته قد خرّب الطبيعة الأفغانية من جهة، لكنّه يمنع تنّين التعدين وصناعة المناجم من دخول البلاد من جهة أخرى. ويسود القلق العميق أصدقاء البيئة وحماتها فيما يتعلّق بالأضرار والتحدّيات الناشئة عن عمل الشركات العالمية التي لا تفكّر إلاّ بمصالحها الخاصّة وأرباحها عندما تبدأ بالحفر واستخراج المعادن. صحيح أننا سنصبح أغنياء بسبب ثرواتنا الطبيعية الخام ولن نعود عالة على المجتمع الدولي، بل إننا سنستطيع المساهمة في دعم السلام، لكنّنا سنسرّع بذلك من تخريب طبيعتنا الجميلة. لن تعود مياهنا نقيّة ولن تستطيع تربتنا وهواؤنا الاستمرار في إنتاج النباتات والثمار التي ننتجها الآن. يقول رئيسنا: „إننا نستطيع من خلال مشاركة قوى عالمية وأخرى إقليمية في استثمار الموارد المعدنية الأفغانية أن نضمن اهتمامها باقتصادنا ودعمه وأن نستطيع أن نعيش أخيراً بسلام. وهذا وضع يمكن اعتباره استثنائياً في التاريخ الأفغاني في مرحلة ما بعد الاستقلال“. ويقول ناشطو البيئة إن أفغانستان مازالت تفتقر إلى قوانين موجّهة بخصوص الثروة المعدنية والمناجم وهي ليست في وضع يمكّنها من الدفاع عن مصالحها في مواجهة الشركات متعددة الجنسيات العملاقة. إن القرارات السريعة وغير المدروسة جيّداً يمكن أن تهدد السلام التاريخي المأمول في أفغانستان. إنها علاقات معقّدة ستقرّر مستقبل البيئة في هذا البلد. وكل العوامل متشابكة في هذا الشأن: البيئة مع السلام، السلام مع الاقتصاد، السلام والاقتصاد مع الثقافة. وأخيراً فإن حياتنا ومستقبلنا متشابكان ومترابطان مع كل هذه العوامل.

الحقيقة هي أن كل بلدان العالم من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها تجري وراء مصالحها. ومهمّتنا هي إيجاد التناغم بين تلك المصالح المختلفة ومصالحنا الخاصة كي نستطيع العيش بسلام. إنها ”مهمة هرقلية“، وهي وإن لم تكن مستحيلة لكنّها شاقّة جداً.

تقي أخلاقي كاتب وصحفي أفغاني يعيش في كابول.

ترجمة: حسين شاويش

في مقابلة مع مدير التخطيط للوكالة الوطنية لحماية البيئة في أفغانستان (NAPA) سألناه عن الجهود الرسمية التي تُتخذ في أفغانستان من أجل حماية البيئة وما هي العقبات التي تواجه حُماة البيئة.

تقي أخلاقي TAQI AKHLAQI

نحن جميعا نجلس في قارب واحد

مقابلة مع كاظم هومايون

فكر وفن: هل من الممكن بداية أن تصف لنا الهيكل التنظيمي لدائرتكم وكم عدد الموظفين لديكم، وما هي الولايات التي تتواجد فيها فروع المنظمة؟

كاظم هومايون: بعد عام ٢٠١١ وقبل أن تنشأ الوكالة الوطنية لحماية البيئة كمؤسسة مستقلة، كان هناك قسم مشابه له داخل وزارة الطاقة والمياه. في ذلك الوقت كان لدينا ٢٠٠ موظف، وعندما أصبح القسم في عام ٢٠٠٥ مستقلا بذاته عن باقي الأقسام ارتفع عدد العاملين فيه إلى ٤٠٠ موظف، وحاليا لدينا فروع لهذه المنظمة في جميع أنحاء الولايات الأفغانية البالغ عددها ٣٤ ولاية، وقد وصل عدد الموظفين فيها جميعا إلى ٨٥٠ موظفا.

ماهي مهمات الوكالة؟

أولاً يجب علي أن أذكر بأن الوكالة ليست هيئة تنفيذية. أما بالنسبة إلى المهام فهي تشمل التنسيق والتخطيط والإشراف. نحن نحاول وبطرق مختلفة رفع الوعي البيئي لدى المواطنين. كما نشارك أيضا في إعداد مشاريع وسن القوانين والأنظمة والخطط وأيضا نشارك في وضع قائمة الأولويات للمهمات. وأما على المستوى العالمي فقد انضممنا إلى اتفاقيات دولية عدة، البعض منها تم التوقيع عليها، والبعض الآخر لا زلنا على قائمة الترشيح.

ماذا حققتم حتى الآن عمليا؟

لا بد أن أقول بصراحة بأنه حتى الآن لم نستطع القيام بانجازات عملية تستحق الذكر وذلك بسبب الصعوبات على مستوى البلاد. نحن ما زلنا حديثي العهد في هذا المجال وعملنا إلى الآن كان بشكل رئيسي مقتصرا على صياغة تشريع القوانين، ولدينا انجازات بهذا الخصوص، فعلى سبيل المثال استطعنا أن نجعل بعض القوانين واللوائح ولأول مرة نافذة المفعول وذلك على مستوى البلاد، مثل قانون حماية البيئة. وبالإضافة إلى هذا، لقد حددنا المواصفات والمقاييس للحد من التلوث البيئي المتعلق بموضوع محركات السيارات وحدود التلوث. هذه المعطيات وعلى أساسها يتم تحديد المخالفات البيئية. وبالتعاون مع وزارة الثقافة استطعنا أن نجعل «مادة حماية البيئة» أن تكون من ضمن المنهاج الدراسي في المدارس لرفع مستوى الوعي البيئي لدى الطلاب. وقبل ثلاث سنوات نصحنا وزارة التعليم العالي أن يكون فرع «حماية البيئة» من ضمن برنامج التدريس في كلية الجيولوجيا بجامعة كابول بحيث يستطيع الطلاب أن يحصلوا في هذا الاختصاص على درجة البكالوريوس. نصائحنا واستشاراتنا في هذا المجال كانت أبعد من ذلك بهدف أن يكون فرع «حماية البيئة» يُدرس أيضا في الجامعات الخاصة. نحن نحاول على مستوى الولايات أن نستفيد من قدرات تأثير رجال الدين وأئمة المساجد وذلك بتزويدهم بالمعلومات العامة عن البيئة، ولهذه الغاية ننظم اجتماعات ولقاءات معهم. وهكذا نكون قد بذلنا جهدنا في التأثير تدريجيا بشكل ملموس ونأمل أن نتمكن من رؤية نتائجها قريبا.

لماذا يتدهور الوضع البيئي في أفغانستان باستمرار؟

هناك عدة أسباب وعوامل مختلفة التي تقوم على تدمير البيئة، مثل: النمو الضخم في عدد سكان المدن، وارتفاع نسبة الولادة، وانتشار الفقر، وتقلص الطبقة الوسطى، التي هي من الممكن أن تكون الداعم الأكبر لحماية البيئة والديمقراطية والحريات المدنية. والفقراء يشعرون بأنهم مجبرون على قطع الأشجار من أمام منازلهم لتدفئة بيوتهم. وعدم وجود البنية التحتية، وعدم وجود ثقافة الاستخدام السليم للموارد الطبيعية بيئيا، والتصحر واختفاء الغابات على نطاق واسع، حتى الآن كما نعلم بأن ٥٥٪ من الغابات في ولايات كونار،

ونورستان، ننجرهار قد اختفت منذ عام ١٩٧٩، وتآكل التربة، وأخيرا الاهمال وعدم اكتراث الحكومة. حتى الآن كان اهتمام الحكومة الأفغانية بالبيئة ضعيفا، لأن مسألة البيئة ليست على قائمة أولوياتها. فبعض النصوص القانونية تشير فقط إلى الدور الحيوي للبيئة، الذي له علاقة مباشرة على حياة الناس.
للأسف إن هذا الاهتمام محدود ومكتوب على الورق فقط. فعلى سبيل المثال، خصص لميزانية الوكالة هذا العام ٨٧٠,٠٠٠ دولار أمريكي، بينما ميزانية الحرس الرئاسي هي أكثر منها بـ ٨٠ مرة. ومن هنا بإمكانك أن تعرف مدى اهتمام الحكومة الأفغانية بموضوع البيئة.

ما هي الأسباب وراء عدم اهتمام الحكومة؟

السبب الأول يرجع إلى النقاش اللانهائي للحكومة مع الشركاء في الداخل والخارج. والسبب الثاني هو أن بعض كبار المسؤولين في الحكومة أرسلوا عائلاتهم إلى الخارج ليلتحقوا بها بعد أن تنتهي فترة ولايتهم في الحكم. هذا يعني أنهم لن يهتموا ببيئة البلد ولا حتى بمجرد التفكير فيها.

كيف ترون المصالح الدولية؟

التغيرات المناخية والبيئية هي أفضل مثال على «القرية العالمية»، لأن قطع أخشاب الغابات في منطقة ما يؤثر أيضا بشكل سلبي على مناطق أخرى. وهكذا نجد أنفسنا جميعا في قارب واحد.
لقد علمنا من خلال لقاءاتنا مع ممثلي المنظمات الدولية، أن معظمهم تهمهم القضايا الدولية المشتركة مثل موضوع التلوث البيئي وتآكل طبقة الأوزون في الغلاف الجوي. المجتمع الدولي مهتم بتفاصيل المشاكل المحلية لبلد ما، مثل تلوث المياه الجوفية وازدياد النفايات الصناعية والبلدية.
من خلال عضويتنا في بعض الاتفاقيات والمعاهدات الدولية نتعرف على واجبات المجتمع الدولي وخاصة لمجموعة العشرين (G20)، كما نحاول أن نستفيد منها من أجل تحسين بيئتنا. على سبيل المثال: حصلت فيتنام في عام ٢٠٠٩ على ٩٧٠ مليون دولار أمريكي من أموال لإعادة إحياء التربة الملوثة لديها. نحن لدينا الامكانية والقدرة للحصول على أكثر من ١٩ مليار دولار أمريكي وخاصة أن آثار تغير المناخ واضحة في منطقة آسيا الوسطى.

كيف يمكنك أن ترى اهتمام وتعاون السكان؟ هل حدثت تغيرات في سلوك السكان في السنوات الأخيرة؟

نعم، لقد نجحنا على الأقل في توجيه اهتمام السكان ووسائل الإعلام إلى هذه المشكلة ومنحهم الوعي. نحن نعلم أن الدول المتقدمة تبذل على الأقل ٥٠٪ من جهودها لرفع مستوى الوعي العام. فيما يتعلق بالوكالة الوطنية لحماية البيئة يجب أن أقول بأننا نركز ٧٠٪ إلى ٧٥٪ من جهودنا على هذا الموضوع.
تتوجه جهودنا على تعليم الناس وإيقاظ حسهم بمسائل البيئة، لكي يستطيعوا في الانتخابات الرئاسية المقبلة



ثلوج، قرية بشرق أفغانستان
من معرض:
Augenblick Afghanistan, Museum für Völkerkunde,München
Photo: Farhad zalmaiki

أن يعطوا صوتهم الانتخابي لمرشح يقدم لهم برنامجا خاصا للبيئة، كما يقال رؤية خضراء للأشياء. أنا أعتقد أن الوضع سيستمر في التدهور طالما موضوع حماية البيئة لا يجد له مدخلا إلى عالم السياسة.
نحن نريد أن نوقظ الناس حتى يستطيعون الدفاع عن حقوقهم ولكي يستطيعوا الضغط على الحكومات والأحزاب. هناك مثال واضح على هذا التحول في الوعي هو هزيمة الرئيس الفرنسي جاك شيراك أمام الاشتراكيين أثناء الانتخابات الرئاسية وذلك عندما قطع شجرة أمام مجلس المدينة في باريس، وبسبب هذا التصرف شُتم الرئيس شيراك ووصف بأنه إرهابي ضد البيئة. ولهذا أنا متفاءل في المستقبل.

بما أن الوكالة ليست هيئة تنفيذية، إذن كيف يتم التعاون والتنسيق لتحقيق برنامجكم مع الهيئة التنفيذية؟

في بعض الأحيان تكون الجهات الحكومية حجرة عثرة في طريقنا. وخاصة وزارة المالية تنتقد باستمرار ميزانيتنا الصغيرة وتحاول تقييدها، في حين سنويا يصرف الملايين من الدولارات على أثاث مكاتبها، نحن نلاقي صعوبات في فرض خططنا الخضراء الإنسانية والإسلامية، والتي هي دائما عرضة للسؤال. في ظل هذه الظروف شكلنا لجنة التنسيق البيئي في العاصمة وأعضاؤها هم من رؤساء التخطيط من جميع الوزارات والمنظمات الحكومية ويشاركون في الاجتماعات الشهرية.
نحن نسمح لهم بالمشاركة في التخطيط وإبداء الرأي ونطلب منهم أن يراعوا مواقفنا الخضراء في برامجهم على المدى البعيد أو القريب. إلى جانب هذا شكلنا لجنة تحت اسم «لجنة لمنع تلوث الهواء» تتألف من جميع نواب الوزراء ورئيس مكتب المعايير الصناعية ومحافظ مدينة كابول، وممثلي المجتمعات المدنية والنقابات في أفغانستان. جميع أعضاء اللجنة يجتمعون شهريا لمناقشة السبل والوسائل للحد من تلوث الهواء في كابول، لأن الناس قلقون لحد كبير من زيادة تلوث الهواء في كابول.
وإذا تركنا هذه المهام للوزارات فإنها سوف لا تلقى أية اهتمام منهم. الشيء الوحيد الذي يمكننا القيام به هو إبلاغ مجلس الوزارة بتلك المهام حتى تقوم بإصدار القرارات الضرورية. فقط إلى هذا الحد نستطيع التأثير وما تعدى ذلك لا نستطيع فعل شيء. مرة تقدمنا باقتراح لتشكيل «قوة شرطة لحماية البيئة» من أجل تنفيذ البرامج البيئية ومن أجل منع تدهور البيئة. هذا الاقتراح رفض من قبل وزارة الداخلية بحجة أن جميع المؤسسات ستقوم بعد ذلك بتقديم طلباتها من أجل تشكيل شرطة خاصة بها.

هل تتوفر لديكم الامكانيات والمعدات الضرورية؟

نحن طلبنا ستة أجهزة قياس لمراقبة تلوث الهواء، لكن إلى الآن لم نحصل سوى على جهاز قياس واحد فقط ويتم استخدامه في مدينة كابول. ولا نملك على أجهزة أخرى لقياس التأثيرات البيئية الأخرى مثل تلوث المياه أو لقياس درجة الضوضاء.

ما هي أكبر مخاوفكم بالنسبة إلى مستقبل المناطق الطبيعية الأفغانية؟

للأسف الشديد تلوث الهواء هو قلقنا الأكبر. فكمية الجسيمات الضارة هي أكبر بسبع مرات من معدل المتوسط العالمي وبمعدل ثلاثة أضعاف مقارنة مع بلدان المنطقة. ووفقا لدراسة مشتركة للبنك التنموي الآسيوي فإن كمية الجسيمات الخطيرة المتواجدة في الهواء تجاوزت الخط الأحمر وتعتبر من بين الأسباب المتعددة لأمراض الرئة بما في ذلك سرطان الرئة. نحن قلقون بسبب الوقود ذي النوعية الرخيصة التي تحتوي على مادة الرصاص المسببة لتلوث الهواء والمياه، وكل هذا بسبب البيروقراطية والفساد المنتشرين في البلاد.

ما هي التدابير التي قمتم بها فيما يتعلق بالتنقيب واستخراج الاحتياطيات الطبيعية والتلوث الصناعي؟

للأسف إن التعدين يزيد من تدهور البيئة بدءا من التنقيب وحتى يتم استخراج المعادن من باطن الأرض. من خلال تجارب دول أخرى يتبين لنا أنها أحيانا تنفق على التدابير البيئية لاستخراج المعادن أكثر مما يدر المنجم عليها من أرباح. نحن أبلغنا وزارة الصناعة والمناجم مخاوفنا هذه، والوزارة كانت على علم بالمشكلة وقامت بانشاء قسم خاص لمواجهة تلك التحديات. وقد قام ممثلونا بقراءة عقود التنقيب قبل أن يتم التوقيع عليها وقدموا اقتراحاتهم اللازمة، وهذا بحد ذاته خطوة إيجابية. وعلى الرغم من ذلك فإننا نعتبر بأن الفساد المنتشر في المؤسسات الحكومية هو التحدي الأكبر لنا والذي من الممكن أن يحبط كل جهودنا.

تقي أخلاقي كاتب وصحفي أفغاني يعيش في كابول.

الرابط: www.afghan-web.com/environment/nepa.html

ترجمة: م. أمين المهتدي

زياد الميمي ونضال كاتبة ZIAD MIMI AND NIDAL KATIBA

البيئة والتغير المناخي

فلسطين والمنطقة العربية مثالا

تعتبر البيئة والمشاكل البيئية من أهم التحديات التي تواجه دول العالم شعوبا وحكومات وعلى رأس هذه التحديات التغير المناخي الناجم عن ظاهرة الاحترار العالمي نتيجة لتراكم غازات الدفيئة في الغلاف الجوي والذي يعتبر شاغلا مشتركا للبشرية. ومع اختلاف مدى الأهمية التي تتعامل بها مختلف الدول مع هذه التحديات نتيجة لاختلاف الأولويات فإن الدول العربية تتميز بقائمة طويلة من الاهتمامات والأولويات التي تسبق البيئة والتغير المناخي ويتربع على رأس القائمة: الخطط التنموية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة ومنها الحد من البطالة ومكافحة الفقر وتأمين الخدمات التعليمية والصحية الأساسية لشعوبها المتنامية التي تتسم بمعدلات نمو مرتفعة، ولا تعتبر فلسطين استثناءً من هذه القاعده بل تنسجم معها تماماً.

وحيث أن التغير المناخي أضحى في الآونة الأخيرة حقيقة علمية لايرقى لها الشك ودعم ذلك المشاهدات والشواهد التي لا تحصى في مختلف دول العالم من مظاهر طقس ومناخ متطرف مثل الأعاصير والفيضانات ودرجات الحرارة المرتفعه جدا أو المنخفضة جدا وكذلك موجات الجفاف والحرائق التي قضت على مئات الملايين من الأشجار ويضاف إلى ذلك جميعا ارتفاع مستوى سطح البحر بما يؤثر سلبا على المناطق الساحلية التي تعتبر عادة من أهم المراكز الاقتصادية والسياحية لمعظم الدول الشاطئية. ومن الجدير بالذكر أن السنوات الأخيرة شهدت تسجيل العديد من الأرقام القياسية في درجات الحرارة والفيضانات والعواصف الاستوائية وكذلك في قيمة الخسائر المادية الناجمة عن تلك الكوارث.

وعلى المستوى الدولي تم إنشاء العديد من الهيئات البيئية الناظمة للعمل البيئي الدولي والتي يعتبر أهمها برنامج الأمم المتحدة للبيئة وكذلك تم تبني العديد من الاتفاقيات البيئية الدولية والتي يعتبر إعلان ستوكهولم في العام ١٩٧٢ القاعدة الأساس لها ثم تلاها في العام ١٩٩٢ إعلان ريو دي جانيرو والذي انبثق عنه الاتفاقيات الثلاث حول تغير المناخ والتصحر والتنوع الحيوي، وفيما بين التاريخين تم ولادة العديد من الاتفاقيات منها اتفاقية فيينا حول المواد المستنفذة لطبقة الأوزون ثم بروتوكول مونتريال والعديد من الاتفاقيات الرئيسية والفرعية في شتى المجالات البيئية.

وحيث أن الموضوع متشعب جدا ويتقاطع مع العديد من القطاعات التنموية والحياتية فسيتم في هذا المقال استعراض سريع ومختصر من وجهة نظر الكاتبين لهذه التحديات في فلسطين والمنطقة العربية.

أهم التحديات البيئية والمناخية في فلسطين والشرق الأوسط تعتبر إدارة النفايات الصلبة والسائلة الصناعية والمنزلية بالإضافة إلى التلوث الناتج عن الصناعات المختلفة وتدهور المصادر البيئية والتغير المناخي من أهم التحديات التي تواجه فلسطين والمنطقة العربية. وقد تم إنشاء وزارات للبيئة أو ذات علاقة بالموضوع البيئي في العديد من دول المنطقة بحيث أخذت على عاتقها إدارة الشان البيئي في دولها وقد كانت هذه الوزارات رائدة في إصدار التشريعات والقوانين الناظمة لمختلف الأمور والمواضيع التي تلامس الموضوع البيئي وقد كان لها اليد الطولى في الدفاع عن البيئة وعناصرها أمام مختلف التحديات التي تواجه هذه الدول.

كما مثلت هذه الوزارات دولها في شتى المحافل والمؤتمرات البيئية الدولية والإقليمية. أما في فلسطين فقد أنشئت وزارة شؤون البيئة في العام ١٩٩٨ وصدر قانون البيئة رقم (٧) لعام ١٩٩٩ وكانت من أوائل الدول التي تصدر تشريعات وقوانين بيئية على مستوى المنطقة العربية.

بلا شك أن المنطقة العربية وفلسطين على وجه الخصوص كانت وما زالت على دراية ووعي كبير بالتحديات البيئية التي تواجهها، إلا أن قائمة الأولويات الطويلة قد حدت بشكل كبير من قدرتها على التعامل معها بمستوى التحدي والتهديد، وربما اعتبرت بعض المستويات السياسية العليا الموضوع البيئي نوعا من الترف الزائد ولم تكن على إطلاع بمدى المخاطر الناتجة عن عدم التصدي لهذه التحديات وأهمية حملها على محمل الجد وبالمستوى المطلوب. ولهذا يعتبر الكاتبان أن توعية صناع القرار في المنطقة العربية يعتبر من الأهمية بمكان حيث أن الإجراءات الاحترازية في التعامل مع التحديات البيئية (proactive approach) يوفر على هذه الدول مبالغ طائلة قد تضطر لها في حال وقوع هذه الكوارث وعلى سبيل المثال الفيضانات وموجات الجفاف وخلافه.

كما يجدر بالذكر بأن الدول العربية تتمتع بمكانة مرموقة في المفاوضات البيئية الدولية وخصوصا مفاوضات تغير المناخ حيث أن المملكة العربية السعودية ومصر تتمتعان بحضور لافت للنظر في هذه المفاوضات حيث أن السعودية تتميز بطاقم تفاوضي عالي الكفاءة ومنقطع النظير من حيث الخبرة والقدرة التفاوضية وقد احتل العديد من السعوديين مراكز مرموقة في الهيئات التفاوضية الدولية وربما يعزى ذلك الاهتمام وعلى هذا المستوى لأهمية المفاوضات ونتائجها على اقتصادها واقتصاد الدول المنتجة للنفط وخصوصا دول مجلس التعاون الخليجي. وبالتالي كانت على الدوام المنافح والمدافع بشدة عن مصالح هذه الدول نتيجة لتأثر اقتصادياتها بأية قرارات دولية هادفة للحد من استخدام الوقود الأحفوري الذي يعد السبب الأهم لارتفاع درجة حرارة الارض.

وحيث أن الدول العربية كانت موجودة في البدايات وفي خلال جميع مراحل التفاوض حول تغير المناخ بصفتها الإقليمية وبصفتها جزء من مجموعة الـ ٧٧ والصين والتي تضم في عضويتها ١٣٣ دولة فقد كان لها دور بارز في إصدار اتفاقية الأمم المتحدة لتغير المناخ والتي بنيت على قاعدة المساواة (equity) ومبدأ المسؤولية المشتركة ولكن المتباينة (common but differentiated responsibility -CBDR) لجميع الدول مع الأخذ بعين الاعتبار الاحتياجات المشروعه ذات الأولوية للبلدان النامية لتحقيق نمو اقتصادي مطرد والقضاء على الفقر.

البيئة والمناخ مع الصراع العربي الإسرائيلي من أهم المبادئ الدولية البيئية أن البيئة لا تعرف الحدود وبالتالي فإن الإجراءات التي تتخذها دولة الاحتلال الإسرائيلي تؤثر سلبا وبشكل مباشر على البيئة في الجانبين. ومن المسلم به أن إسرائيل بصفتها دولة احتلال فقد تعمدت على مدار حكمها وسيطرتها على الأراضي الفلسطينية على إهمال البيئة الفلسطينية بشكل تام وممنهج أدى على مدى سنوات الاحتلال الممتدة منذ عام ١٩٦٧ إلى تدمير البيئة وعناصرها المختلفة وذلك حتى العام ١٩٩٤ فترة استلام السلطة الوطنية الفلسطينية لمقاليد الحكم والسياسة على الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧. إلا أن الاعتداءات والانتهاكات الإسرائيلية للبيئة الفلسطينية استمرت واتخذت منحى أكثر تطرفا بعد اتفاقية أوسلو وإقامة السلطة الوطنية الفلسطينية ومن هذه الاعتداءات والانتهاكات على سبيل الذكر وليس الحصر: نهب إسرائيل لمصادر المياه الفلسطينية حيث إنها تسيطر على كامل المصادر المائية الفلسطينية وتستنفذ ٨٢٪ منها، كما أن إقامة جدار الضم والتوسع رافقه تدمير شامل للبيئة في المناطق التي بني الجدار فيها وفي المناطق المحيطة وشمل ذلك تجريف مساحات شاسعة من الأراضي واقتلاع ما يزيد على المليون ونصف مليون شجرة معظمها من أشجار الزيتون المعمرة والتي تم سرقة معظمها وزراعته في الداخل الإسرائيلي أو في المستوطنات الجاثمة على الأراضي الفلسطينية، كما تضمنت هذه الاعتداءات إلقاء النفايات الصناعية الخطرة في الأراضي الفلسطينية وكذلك إلقاء مياه المجاري الخارجة من المستوطنات في الأودية المائية مما يؤدي إلى تلويثها وتلويث المياه الجوفية التي تعتبر المصدر الأساس للمياه في فلسطين، ويضاف إلى ذلك الحرب على غزة في عام ٢٠٠٨ وكذلك الإعتداء الأخير عليها في العام ٢٠١٢ وقد أصدر برنامج الأمم المتحدة للبيئة عدة دراسات حول أثر الإحتلال الإسرائيلي على البيئة الفلسطينية ومنها تقييم الأضرار البيئية بعد الانسحاب من المستوطنات التي جثمت



واد جاف يقع بين قطاع غزة وإسرائيل
Photo: Stefan Weidner



تلوث بيئي
مقطع من الجدار العازل
قرب قلنديا
Photo: Stefan Weidner

على أرض القطاع وتم تدميرها من قبل قوات الإحتلال قبل إخلائها وكذلك تقييم الأضرار البيئية بعد الحرب على غزة، كما أصدرت وزارة شؤون البيئة دراسة حول أثر الجدار على البيئة الفلسطينية.

بالاضافة لكل ما ذكر فقد كان للاحتلال دور غير مباشر أدى إلى زيادة الضغط على المصادر البيئية المتاحة نتيجة سيطرة الإحتلال على ما يقارب من ٦٢٪ من الأرض الفلسطينية والتي تم تصنيفها (أراضي ج) ضمن اتفاقية أوسلو والتي تضمن السيطرة الإسرائيلية الأمنية والإدارية على هذه الأراضي. يضاف إلى ذلك منع إسرائيل السلطة الوطنية الفلسطينية من تنفيذ المشاريع البيئية الوطنية مثل إنشاء مكبات النفايات المركزية ومحطات معالجة المياه العادمة والتي تحتاج إلى إذن من الطرف الإسرائيلي قبل تنفيذها.

وعلى العموم فقد تم إجراء العديد من الدراسات حول أثر الصراع العربي الإسرائيلي على البيئة الفلسطينية وكذلك ركزت بعض هذه الدراسات على أثر التغير المناخي على الصراع العربي الإسرائيلي وأثره على الأمن في المنطقة وقد صدرت هذه الدراسات من قبل العديد من مراكز البحث الأوروبية وقد أشارت بوضوح إلى أن الإحتلال يلعب دورا خطيرا في مضاعفة الأثر السلبي لتغير المناخ على التنمية والأمن المائي والغذائي في فلسطين والمنطقة عموما مع الأخذ بعين الاعتبار أن المصادر المائية المحدودة ستكون العنصر الأهم من حيث تأثرها بالتغير المناخي حيث أن التوقعات تشير إلى أن كميات الأمطار ستنخفض حوالي ٢٠٪ حتى العام ٢٠٥٠ وأن درجات الحرارة سترتفع بمعدل ٢,٦-٢,٥ درجة مئوية مع نهاية القرن الحالي وكذلك من المتوقع مع نهاية القرن أن يجف نهر الأردن بشكل شبه كامل.

تكيف الدول العربية مع التغير المناخي كما ذكر في المقدمة تقوم الدول العربية بالعديد من الإجراءات الخاصة بالتكيف مع آثار التغير المناخي وكذلك في مجال الحد من الانبعاثات لغازات الدفيئة. وتلخص تقارير الإبلاغ الوطنية الدورية المرفوعه من قبل الدول العربية إلى سكرتارية إتفاقية الأمم المتحدة الإطارية لتغير المناخ الجهود الوطنية المبذولة من قبل كل دولة في التعامل مع تغير المناخ.

وعلى صعيد الجامعة العربية فقد تم الاتفاق خلال مؤتمرات القمة العربية المتعددة على إعلان عربي موحد يمثل موقف الدول العربية من مفاوضات تغير المناخ كما أصدرت جامعة الدول العربية «الخطة العربية للتعامل مع التغير المناخي» والتي تم إعدادها بالتشاور والتنسيق بين الخبراء العرب في مجال التغير المناخي وتعتبر الخطة منهجا ونموذجا متميزا نأمل أن يجد طريقه للتنفيذ على أرض الواقع.

الصوت الفلسطيني والمحافل الدولية فيما يخص التغير المناخي حتى تاريخ ٢٠١٢/١١/٢٩ كانت فلسطين تشارك في مؤتمرات الأطراف الخاصة بالإتفاقية الإطارية لتغير المناخ بصفة كيان مراقب (Observing Entity) حيث شاركت فلسطين في المؤتمر الخامس عشر للأطراف والذي عقد في كوبنهاجن بوفد ترأسه رئيس الوزراء د. سلام فياض وضم في عضويته وفود من وزارة شؤون البيئة وسلطة المياه ووزارة الخارجية. وقد تم في المؤتمر الإعلان عن الإستراتيجية الوطنية للتكيف مع تغير المناخ. وتعتبر وزارة شؤون البيئة هي نقطة الاتصال مع الاتفاقية وكذلك نقطة

الاتصال مع الهيئة الحكومية الدولية المعنية بالتغير المناخي IPCC.

بعد التصويت في الجمعية العامة للأمم المتحدة على رفع مستوى تمثيل فلسطين إلى مستوى دولة مراقب غير عضو تم على الفور رفع التمثيل في المؤتمر إلى صفة دولة مراقب (Observing State). وبالتالي تشارك فلسطين في الاجتماعات الدورية لمؤتمرات الأطراف في الاتفاقية الإطارية لتغير المناخ بصفة مراقب مما يعني أن للوفد الفلسطيني حق المشاركة في المفاوضات والاجتماعات دون الحق في التصويت على القرارات ودون الحق في المشاركة في الأجسام والهيئات المنبثقة عن المؤتمر وكذلك دون حق الاستفادة من صناديق التمويل الدولية ذات العلاقة بالتغير المناخي والتي تزيد عن ٢٠ صندوق تقدر ميزانياتها بعشرات المليارات وذلك بحجة أن فلسطين ليست دولة موقعه على الاتفاقية. ومن الجدير بالذكر أن فلسطين عضو كامل العضوية في مجموعة الـ ٧٧ والصين والتي تعتبر من أهم المجموعات التفاوضية في الاتفاقية وتمثل معظم الدول النامية وعادة ما تجتمع قبل مؤتمرات الأطراف لتنسيق وتوحيد المواقف التفاوضية. ونود الإشارة في هذا الصدد أن فلسطين حاولت ومنذ أكثر من عامين وبالتنسيق مع مجموعة الـ ٧٧ والصين الحصول على قرار من مؤتمر الأطراف بهدف ضمان إمكانية الاستفادة من صناديق تغير المناخ بهدف تمكينها من تنفيذ الإستراتيجيات والخطط الوطنية الخاصة بالتغير المناخي وكذلك تمكينها من تنفيذ المشاريع المتعلقة بالتكيف مع الآثار السلبية للتغير المناخي مع العلم بأن فلسطين لم تكن في يوم من الأيام من الدول المسببة للتغير المناخي العالمي وإنها في الوقت ذاته من الضحايا التي تعاني بشدة من آثاره وعلى مختلف الصعد والقطاعات وأهمها في مجال المصادر المائية والأمن الغذائي وخصوصا أن فلسطين تعتبر من الدول التي يمثل فيها القطاع الزراعي عصباً هاماً للاقتصاد الوطني فيها وللأسف لم تتمكن فلسطين من الحصول على هذا القرار رغم الدعم الكامل من مجموعة الـ ٧٧ والصين إلا أن معارضة الولايات المتحدة للمطلب أعاق من الموافقة عليه حتى تاريخه.

المعارف التقليدية السائدة والتغير المناخي على مستوى فلسطين لاشك بأن المعارف التقليدية تنبع أهميتها من كيفية التعامل مع التحديات البيئية ونخص هنا التغير المناخي. فلقد مر على فلسطين والمنطقة عموما فترات من الجفاف وأخرى من الفيضانات ولقد تعامل معها المجتمع الفلسطيني وكون خبرة يجب الاستفادة منها والاستثمار فيها. ونود أن نذكر بقصة النبي يوسف علية السلام التي وردت في القرآن الكريم حول توالي سنوات الجفاف السبعة وكيفية إدارة الأزمة بنجاح، وكذلك هناك العديد من الأمثلة المشابهة. ونذكر أيضاً بأن المعارف التقليدية تعتبر أحد الأعمدة الهامة التي يأخذها المجتمع الدولي عند التخطيط للتكيف مع آثار التغير المناخي.

إن الممارسات غير الرشيدة تعتبر أحد الأسباب المؤدية للتدهور البيئي والتغير المناخي ومنها أنظمة الاستهلاك التي قد يكون أحد أسبابها العوز والفقر من رعي عشوائي وتحطيب جائر وغيره وبالتالي الضغط على المصادر أو أن يكون بسبب نمط الاستهلاك الترفي كما في بعض الدول الغنية اقتصادياً في المنطقة.

لا شك بأن أنماط الاستهلاك البشرية في الدول الغنية هي من أهم الأسباب المؤدية للتغير المناخي والتدهور البيئي. وخصوصا عندما نعلم أن الإدارة غير الراشدة في استخدام المصادر المتاحة والتي يعتبر الكثير منها غير متجدد وخصوصا مصادر الطاقة الأحفورية، يؤدي إلى تدهور بيئي ينعكس سلباً ويضاعف من مشكلة التغير المناخي المتسارع. ونشير كذلك إلى أنماط الإستهلاك الغذائية وخصوصاً عندما نعلم أن إنتاج كيلو واحد من اللحم البقري يستهلك ١٥,٠٠٠ لتر من المياه بينما يستهلك إنتاج الكيلو غرام من الأرز ١٣,٥٠٠ لتر وكيلو القمح ١,٥٠٠ لتر من المياه. ولقد ظهر مصطلح البصمة المائية في العام ٢٠٠٢ وتم تعريفها بأنها مؤشر على استخدام المياه التي تأخذ في الحسبان كل من الاستخدام المباشر وغير المباشر للمياه من قبل المستهلكين أو المنتجين. وتعرف البصمة المائية للفرد أو لمجموعة أو لمؤسسة بالحجم الكلي للمياه العذبة المستخدمة لإنتاج السلع والخدمات المستهلكة من قبل الفرد أو المجتمع أو التي تنتجها الشركة. وقد قدرت البصمة المائية لمواطني الولايات المتحدة بحوالي ٢٨٤٠ متر مكعب سنويا للشخص الواحد، بينما في اليابان حوالي ١٣٨٠ متر مكعب وفي الصين حوالي ١٠٧٠ متر مكعب سنويا. ونشير هنا إلى تقرير بريطاني نشر في أوائل العام الحالي أكد على أن نصف الغذاء المنتج بالعالم تقريبا يرمى في القمامة لسوء أعمال الحصاد والتخزين ووسائل النقل، وكذلك السلوك غير الرشيد للبائعين والمستهلكين. وهذا يشير إلى أن كميات هائلة من المياه ومواد ومدخلات الإنتاج تهدر ناهيك عن التلوث المصاحب لعمليات الإنتاج.

د. زياد الميمي أستاذ بكلية الهندسة المدنية في جامعة بيرزيت ومتخصص في إدارة الموارد المائية.
م. نضال كاتبة مدرس بجامعة بيرزيت.

يهدد تحوّل المناخ البلدانَ الجنوبية والشرقين الأدنى والأوسط أكثر مما يهدد دول الشمال الغنية. ومع ذلك فلا يعلم إلا القلائل كيفية تحوّل المناخ في هذه المناطق المهددة بشكل ملموس. وهذه المساهمة تتعرض إلى التهديدات التي تشهدها الهضبة الإيرانية على سبيل المثال.

إيكارد إيلرس ECKART EHLERS

تحول المناخ والطبيعة في الشرق

هضبة إيران نموذجا

تحول المناخ والطبيعة في الشرقين الأدنى والأوسط بات معروفاً الآن بأن المناخ والبيئة يتغيران وفق المقياس العالمي الشامل وباتت تعرف كذلك أسباب هذه التحولات التي يشار إليها دائماً، وهي ذوبان الثلوج في المناطق القطبية وغرينلاند والجبال الشاهقة على الكرة الأرضية وارتفاع مستوى سطح البحر. وأصبحت العواصف والأعاصير تدمّر سواحل البلدان الاستوائية ومدنها وقراها وأراضيها الزراعية، وتسفر الفيضانات ومواسم الجفاف عن الكثير من الضحايا بين سكّان المناطق المنكوبة.

ومنذ عشرين عاماً الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ يسجّل تغيرات المناخ الشاملة والتحولات الطبيعية والعوامل البيئية المرتبطة بها. وبغض النظر عن الاستفادة من هذه الملاحظات فيما يتعلق بتطوير نماذج مناخية أو خلق آفاق بيئية مستقبلية، إلا أنها تظهر على الدوام بأن الإنسان أصبح يتحول إلى عنصر فعّال فيما يخص تحوّل المناخ والتغيرات البيئية على الأرض وبشكل واضح. ويشير العلماء إلى أن الإنسان يلعب دوراً رئيسياً في عملية الانبعاثات الغازية ويعتبر السبب الرئيسيّ في ارتفاع درجات الحرارة وعواقب هذا الارتفاع على المناخ. ويجري النقاش في الوقت الحاضر حول زمننا الراهن باعتباره مرحلةً مهمة جيولوجياً وعاملاً بيئياً جوهرياً.

ويثبت التأمل الدقيق للدراسات العلمية بأنّ هذه المصادر والمعلومات الوثيقة المتربطة بآفاق المناخ على الكرة الأرضية موزعة بطريقة غير متساوية. وهي مستمدة من الشبكات الكثيفة لمحطات المراقبة والرصد في بلدان الشمال الصناعية المتطورة، حيث نجد أكبر مراكز البحث والمختبرات التي تحلل هذه المعلومات وتقيّمها. وبهذا المعنى فليس من المفاجئ أن تعمم هذه النتائج على صعيد عالمي. ويبدو أن المعلومات ذات الطابع التعميمي والتي تنطوي على تنبؤات عالمية لا تصلح لعكس الحقائق والتطورات المحلية المتعلقة بتغيرات المناخ والطبيعة. وهذا ينطبق على أجزاء كبيرة من الشرقين الأدنى والأوسط، خاصة في المناطق التي دمرتها الحروب والواقعة بين لبنان غرباً وأفغانستان شرقاً، حيث تكون شبكة المراقبة والرصد المناخيين ضعيفة للغاية. وتكون تقييماتها خاطئة إلى حدّ ما؛ وغالباً ما يكون هناك نقص في العاملين المتدربين على تقييم المعلومات التي تسجلها هذه الشبكة ووضعها في إطار الخطاب العالمي. ويمكن القول باختصار: إننا لا نعرف إلا القليل عن تحوّل المناخ والطبيعة في أرجاء واسعة من الشرق الإسلامي، فضلاً عن أننا كثيراً ما نعتمد على إشارات وملاحظات متفرقة أو نتائج بحث محدودة.

هضبة إيران والأراضي المحيطة بها وهي منطقة مهمة لبحث تحوّل المناخ والطبيعة

تلعب هضبة إيران والمناطق المحيطة بها دوراً جوهرياً في مجال البحث المستقبلي في ميدان تحوّل المناخ والطبيعة في الشرقين الأدنى والأوسط. ويعود ذلك أولاً إلى أن هذه الهضبة الجافة في إيران تقع نحو ألف متر فوق سطح البحر، وهي مكان نموذجيّ لتسجيل تقلبات درجات الحرارة وهطول الأمطار. وثانياً أنّ سلسلة جبال زاغروس الشاهقة الواقعه في غرب البلاد والتي يبلغ ارتفاع بعضها أربعة آلاف ومتئي متر وجبال بورز في الشمال، حيث تصل قمّة جبل ديمواند إلى خمسة آلاف وستمئة وواحد وسبعين متراً تشكّل، باعتبارها أكثر الأراضي ارتفاعاً في البلاد، أرضيةً حساسةً للغاية لقياس التغيرات الطبيعية في إيران. وتزداد إمكانية الرصد هذه إذا ما وضعنا سلسلة الجبال الواقعة فوق هضبة إيران والتي يصل ارتفاع بعضها إلى أربعة آلاف وخمسمئة متر، فتقدم لنا معلومات إضافية عن تحول المناخ. وثالثاً أن إيران تمتلك البنية العلمية والخبرة المتخصصة للقيام بالأبحاث المنتظمة في هذا المجال، لتتحول إلى صلة ربط مهمة في سلسلة أبحاث البيئة العالمية؛ إلا أن هذه الطاقات تشهد في الوقت الحاضر حالة من الاضطراب.

وهناك ثلاثة أمثلة تدلل على التحوّل التاريخي والمعاصر للمناخ والبيئة الطبيعية في هضبة إيران والمناطق المحيطة بها. وهي:

- العوامل الجيولوجية والجغرافية القديمة
- التغيرات الحالية في مخزون المياه ومصادر المياه الجوفية
- نتائج الأبحاث الحديثة وفقاً للدراسات الميدانية المحلية.

العوامل الجيولوجية والجغرافية القديمة يعتبر تحوّل المناخ والتغيرات المرتبطة به من أمطار ودرجات حرارة ونبات وحيوان وعمليات الإنتاج الزراعي ظواهرَ تترك آثارها العميقة على تاريخ تطوّر الأرض في كلّ مكان ومنذ ملايين السنين. فالبحيرات المالحة العملاقة وسهل دشت الكبير قبل كلّ شيء وأحواض البحيرات التي لا تغذيها الأنهار والأحواض الطبيعية الكبيرة التي كانت زماناً أنهاراً فوق هضبة إيران، تعتبر كلّها شواهد على ذلك التحوّل المتواصل. وتشير أحواض البحيرات والأنهار العديدة الممتدة عبر هذه الهضبة والنظام القديم للحقول المدرّجة إلى وجود خزين كبير من المياه وإلى كمية من المياه التي كانت تجلبها الأنهار. ولا سيما تلك الرواسب وأكوام الطمي التي تغطي الجبال والمرتفعات في أواسط إيران، والتي يطلق عليها عموماً مصطلح «مساحات السهول». وكانت كثيراً ما تتردد عبارة أن الجبال تغرق في طميها وحجرها لوصف عوامل التعرية تلك التي حدثت في ظل ظروف أكثر رطوبةً مما هي عليه اليوم. وبالطبع أن هذه العمليات تجري اليوم أيضاً، لكنها تسير ببطء عادةً فلا تتيح المراقبة المباشرة. وتشكل العواصف المصحوبة بالأمطار الغزيرة أحياناً حالات استثنائية لهذه القاعدة.

التغيرات الحالية في مخزون المياه ومصادر المياه الجوفية تتجسد طبيعة التغيرات السريعة في منسوب المياه فوق هضبة إيران والمناطق المحيطة وبقوّة عبر النشاطات الإنسانية مباشرة، ويتضح ذلك عبر تغيير الناس للمسار الطبيعي للأنهار القليلة والغزيرة المياه موسمياً أو على امتداد العام. ويقلّص حرف مسار الأنهار وبناء السدود لأغراض الريّ المنسوب الطبيعي للمياه لدرجة أن هذه الأنهار القليلة المياه أصلاً لا تكاد تصل إلى مصباتها الطبيعية. وتتمثل المشكلة الأشد خطورةً من جفاف الأنهار في شح المياه الجوفية للبلد. وقد أوشكت التقنية الثقافية التي تعود إلى آلاف الأعوام والقائمة على نظام الريّ عبر القنوات والتي كانت تشكل العمود الفقري للزراعة المركزّة في الواحات المنتشرة على الهضبة الإيرانية، أوشكت على الانهيار بفعل تحوّل المناخ والاستغلال المفرط للمياه الجوفية.

وترتبط القنوات والسهول التي وصفناها للتو ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً، وقد صممها الإنسان آنذاك على هيئة أروقة تحت الأرض وهي تحافظ على دوران المياه الجوفية في سفوح المناطق الجبلية. ويتم تعقّب مياه الأمطار والجيلد الذائب المغمورة في ترسبات المياه المنهمرة عبر الجبال والتي تصل إلى عمق مئة متر تحت الأرض، حيث ما يسمى بالتربة الأم، فتنتقل شيئاً فشيئاً إلى سطح الأرض عبر الأروقة العميقة والتي يصل طولها أحياناً إلى سبعين كيلومتراً. وتتمتع تقنية القنوات التي طوّرت بشمال إيران قبل ميلاد المسيح بأهمية خاصة بالنسبة للزراعة، وما زالت تتمتع بها إلى اليوم. وكانت القنوات مهمة حتى الحرب العالمية الثانية ليس فقط لإرواء الحقول والبساتين، بل لتزويد الكثير من القرى والمدن بمياه الشرب. ويقدر عددها بنحو خمسة وثلاثين ألف قناة، وانخفض عددها اليوم إلى أقل من عشرة آلاف قناة. فالاستخدام المفرط للمياه الجوفية الطبيعية من ناحية والحفر الآلي للآبار لأغراض الري أو الشرب والذي يؤدي إلى انخفاض مستوى المياه الجوفية من ناحية ثانية، إضافة إلى انخفاض منسوب مياه الأمطار في المناطق الجبلية والتي تؤمن المياه اللازمة لمخازن المياه الطبيعية، هذه كلّها دلائل بارزة على عملية التصحّر. ويمكن ملاحظة ظاهرة التصحّر هذه في هضبة إيران بصفتها تعبيراً صريحاً عن تحول المناخ والطبيعة، وينطبق ذلك بصورة خاصة على التجمعات السكنية في الواحات الواقعة وسط الهضبة الإيرانية، حيث نلاحظ القرى المهجورة وتقلّص مساحة الأراضي الزراعية أو جفاف غابات النخيل، إضافة إلى رمال الصحراء التي باتت تغطي بساتين الفواكة والخضار التي تزرع بشكل مركّز، فالصحراء أخذت تمتد باستمرار.

نتائج الدراسات الحالية على ضوء البحوث الميدانية المحلية مازال قليلاً جداً عدد البراهين العلمية الدقيقية المتعلقة بتحوّل المناخ في إيران، وتعد الدراسة الصادرة حديثاً عن تحوّل المناخ والطبيعة في شمال شرقي البلاد وتأثيراتها على الرعاة الجبليين الرحّل في هذه المنطقة حالة استثنائية في هذا السياق. وتتناول الدراسة جبل زبلان كوه في أقليم أذربيجان على سبيل المثال والذي يبلغ ارتفاعه أربعة آلاف وسبعمئة وأربعين متراً والأراضي المحيطة به، بعد تحليل نتائج رصد ومراقبة مناخية لأكثر من أربعين عاماً في بعض الأحيان؛ وتبرهن بشكل واضح على تقلبات المناخ في الصيف والشتاء معاً وعلى زيادة فترات الجفاف بسبب تراجع معدل الأمطار. ويؤدي ذلك في الشهور الواقعة بين حزيران وتشرين الأول إلى ارتفاع معدلات الحرارة المصحوبة بانخفاض معدل الأمطار إلى بروز ظواهر الجفاف في المراعي التي ترعى فيها ماشية الرعاة الرحّل، إضافة إلى جفاف القنوات. ونرى التصحر باعتباره ظاهرة تتحكم فيها الطبيعة حتى في هذه المناطق المفضلة مناخياً فوق الهضبة الإيرانية بسبب هطول الأمطار بنسب كبيرة. ويخلّف تراجع نمو الكلأ الصالح للرعي في المناطق الجبلية والأراضي المنخفضة آثاراً حادة على تربية الماشية التي تشهد بدورها تراجعاً حاداً، ويدرك الرعاة تماماً هذه التغيرات نظراً لمعرفتهم الدقيقة بمحيطم الطبيعي. وهم يعتبرون تقلّص حجم مساحات الرعي صيفاً في مناطق الكلأ المرتفعة وتراجعها أيضاً في الوديان أيام الشتاء عائقاً كبيراً، فضلاً عن تقليص حجم المراعي البديلة بسبب الصراعات مع السكّان الفلاحين المقيمين في المنطقة والذين يربون المواشي ويحولون مساحات الرعي إلى حقول زراعية. وتظهر هذه العوامل وغيرها أنّ تحوّل المناخ والطبيعة ليس مجرد ظاهرة طبيعية وعلمية، بل إن هذا التحوّل يترك نتائج وخيمة على الحياة اليومية للناس والاقتصاد.



منظر جوي لجبال في إيران تظهر فيه السيول
من كتاب: Mousavi, Hg.: Irans Erbe in
Flugbildern von G. Gerster. Mainz 2009

وتشير التغيرات المثيرة التي رصدت في بحيرة أورمية القريبة من الهضبة الإيرانية إلى الاتجاه نفسه الذي سارت فيه التغيرات المدونة علمياً والتي طرأت على مناخ منطقة زبلان كوه وطبيعتها. وتبلغ مساحة البحيرة المالحة والراكدة أكثر من خمسة آلاف كيلومتر مربع، وتحتوي على كمية كبيرة من الأملاح تضاهي نسبتها في بحيرة أورال، وهي معرضة للجفاف اليوم. ويعد انحسار مستوى البحيرة بحوالي سبعة أمتار ما بين ١٩٩٥ و ٢٠١١ مؤشراً بارزاً على تحوّل المناخ، ويؤكّد ذلك تراجع نسبة الأمطار بمعدل أربعين مليمتراً في المنطقة المحيطة ببحيرة أرومية في الفترة الواقعة بين ١٩٩٧ و ٢٠٠٦ هذا التحوّل. بيد أن هناك دوراً كبيراً للناس في هذا الأمر بسبب إقامة السدود أو حرف مسارات الروافد التي تغذي بحيرة أرومية وذلك لسقيّ المزروعات.

هل يمكن اعتبار الشرقين الأدنى والأوسط برميل بارود المستقبل؟ وينطبق الأمر الذي أشرنا إليه في هضبة إيران ومحيطها والأدلة القاطعة على ارتفاع درجات الحرارة بمعدلات كبيرة ونقص الأمطار وزيادة حجم الكوارث الطبيعية مثل الجفاف والفيضانات، ينطبق على البلدان المجاورة لإيران غرباً وشرقاً، فالمناخ هناك معرّض أيضاً للتحوّل الشديد. ويعتبر الإنسان، هنا أيضاً، سبباً رئيسياً لتحوّل المناخ والطبيعة وضحيته في آن واحد بسبب انعكاسات ذلك على مقومات وجوده. فهل يعتبر الشرقان الأدنى والأقصى ليس فقط برميل بارود سياسياً، وإنما أيضا برميل بارود بيئياً في المستقبل؟

تشير التقديرات النموذجية وآفاق المستقبل التي وضعتها الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ إلى هذه الاتجاهات بشكل لا لبس فيه. وجاء في تقريرها الأخير الخاص بقارة آسيا عام ٢٠٠٧ ما يلي: "من المرجح أن آسيا كلّها ستشهد ارتفاعاً في معدلات الحرارة وستبلغ أعلى معدل لها في وسط آسيا" (ج١، ص ٨٧٩، ٢٠٠٧) ويقصد بذلك بلدان الشرقين الأدنى والأوسط. وفيما يتعلق بالأمطار في إيران فإنّ الدراسة تتوقع "تراجع نسبة الأمطار الصيفية في آسيا الوسطى" (المصدر ذاته). وستكون نتائج ذلك وخيمة للغاية.

ويخلص المؤلفون في تحليلهم لتأثيرات هذه الظواهر على مجتمعات غرب آسيا وشرقها واستراتيجيات التكّيف معها وانعكاساتها السريعة على المجتمعات المعنية، خاصة على إيران والمناطق المحيطة به، يخلصون إلى القول "إنّ محاصيل القمح ستتراجع بنسبة ثلاثين في المئة حتى عام ألفين وخمسين وسيخلف تحول المناخ في غرب آسيا نقصاً حاداً في المياه خلال القرن الواحد والعشرين" (ج٢، ص ٤٨١).

وتؤكّد التوقعات بوضوح وإجماع إلى التغيرات الكبيرة التي تتعرض لها البيئة في منطقة الشرقين الأدنى والأوسط، بحيث أن الصراعات في المستقبل سوف لا تقتصر على الأيدلوجيات أو استغلال الثروات الطبيعية مثل النفط والغاز فحسب. وتشير النزاعات الحالية حول أهم عنصر حياتي حاسم وهو «الماء» إلى نشوب نزاعات دولية بين تركيا وسوريا والعراق. ويرى عدد كبير من الخبراء والمحللين السياسيين في "المياه سبباً للحرب والصراع" وفي خلق تحديات خطيرة في القرن الواحد والعشرين. وسيؤدي انخفاض معدل الأمطار الطبيعية في هضبة إيران إلى تراجع إنتاج المواد الغذائية على نطاق واسع، مما يجعل الوضع أشد حرجاً مما هو عليه الآن في ظل النمو السكّاني الذي تشهده إيران. ويشمل هذا التراجع نباتات الاستهلاك الحيواني والبشري معاً، أي القمح واللحوم ومنتجات الألبان، وكذلك تزويد السكّان بنموهم المضطرد في المدن والأرياف بالمياه العذبة، فضلاً عن مياه الاستخدام المنزلي والصناعي، وذلك ليس في إيران وحدها.

والمناخ هو أحد المقومات المهمة التي تغلب على ثقافة الشرق الإسلامي وسكّانه، وقد أُولي اهتماماً واسعاً فكرياً وبشريا وتقنياً وتشهد على ذلك الآثار العظيمة التي خلفتها هذه الثقافة. وسيشكّل المناخ وتحوّل الطبيعة تحدياً تكنولوجياً كبيراً في المستقبل أيضاً، وبهذا المعنى فإنه سيعمّق من مضمون مفهوم الثقافة المتعارف عليه، ليصل إلى بعده التكنولوجي.

إيكارد إيلرس عمل أستاذاً لعلم الجيولوجيا في جامعة بون الألمانية.

ترجمة: حسين الموزاني

النفط هو المادة التي تتوقف عليها حركة اقتصادنا، وهو مورد طبيعي، رئيسي، بالنسبة لرفاهيتنا. وباعتباره المادة، التي تستخدمها، المصانع لتحريك الآلات والمحركات، يبدو النفط اليوم كما لو أنه مادة لا يمكن الاستغناء عنها في الحياة اليومية ولا مجال لاستبدالها من خلال مادة أخرى.

إيفا أورشبرونغ EVA URSPRUNG

عالم النفط على حقيقته

الجانب المظلم في عمل مألوف



ثوار نيجيريون ضد
تنامي نفوذ شركة شل
من معرض:
Letzte Ölung Nigerdelta.
Staatliches Museum für
Völkerkunde, München
Photo: Michael Kamber

خلال المائة عام الأخيرة، جرى استهلاك حوالي تريليون، أي حوالي مليون مليون برميل من النفط، علماً أن البرميل الواحد يساوي ١٥٩ لتراً. والملاحظ هو أن الطلب على النفط، قد ارتفع من حوالي عشرة ملايين برميل يومياً في العام ١٩٦٤ إلى حوالي ٨٩ مليون برميل في العام ٢٠١١. هذا ومن المتوقع، أن يواصل هذا الطلب، ارتفاعه في السنوات القادمة.

وبالنسبة إلينا، فإن التنقل يحظى بعظيم اهتمامنا: فقطاع النقل، يستحوذ على حوالي نصف كمية النفط المستخرجة. فبحسب ما أعلنه المكتب الاتحادي الألماني للمركبات (KBA)، بلغ عدد السيارات في ألمانيا وحدها حتى مطلع العام ٢٠١١ حوالي ٥٠,٩٠٢,١٣١ سيارة، علماً أن حوالي ٤٢,٣ مليون من هذه السيارات هي سيارات خاصة.

وحين يتحدث المرء في بلادنا عن النفط لا عجب، إذاً، أن نرى المواطنين الألمان، يكتفون في أغلب الأحيان بالإعراب عن عظيم امتعاضهم من الارتفاع المتواصل في

أسعار النفط. أما ظروف الإنتاج، فهذا أمر لا يعيرونه اهتمامهم عادة. كما تفضل وسائل الإعلام، عدم توجيه الأنظار صوب الكارثة التي يسببها إنتاج النفط في بعض الدول المنتجة. فوسائل الإعلام نادراً ما ترغب في توجيه الأنظار صوب أفريقيا لاسيما حين نكون، نحن أنفسنا، المستفيدين من الكارثة الناشرة ظلالها في هذه القارة.

فمع أن النفط يجري استخراجه من حوض نهر النيجر في نيجيريا، منذ أكثر من خمسين عاماً إلا أن المرء لا يزال يستخدم نفس الأنابيب القديمة لنقله وما انفك أصحاب الشأن يتجاهلون ضرورة ترميم هذه الأنابيب وإصلاح ما حل فيها من عطب. وما برح هؤلاء يحرقون الغاز، على مدار اليوم كله وفي كثير من الأحيان، في مناطق تبعد عن التجمعات السكنية أقل من ٣٠٠ متر. فحرق الغاز أقل السبل كلفة للتخلص من الغاز، المتصاعد من الآبار التي يستخرج المرء منها النفط. وهكذا، صار يتعين على السكان، العيش مع الضوضاء، وأعمدة الضوء المتعالية ليل نهار، والاستكانة صاغرين، إلى السُخام والهواء الملوث. فهذا السخام يستقر على الجلد، وعلى الأغشية المخاطية والجهاز التنفسي ويلوث، أيضاً، الأراضي الزراعية والأنهار والبحيرات ويتسلل في نهاية المطاف إلى داخل أجسامهم من خلال تسلله إلى المواد، التي تشكل العنصر الرئيسي في غذائهم اليومي. وغني عن البيان، أن هذا التلوث يؤدي إلى أمراض خطيرة، أمراض تصيب الجهاز التنفسي وتسبب انتشار الأورام السرطانية بين السكان ووفاة الأطفال قبل ولادتهم وارتفاع معدلات التشوهات الخلقية، بين الأطفال حديثي الولادة. من هنا، لا عجب، والحالة هذه، ألا يزيد العمر المتوقع عن ٤١ عاماً في المتوسط.

على صعيد آخر، ما عاد بالإمكان التزود بالمواد الغذائية بالنحو التقليدي، أعني من خلال الزراعة وصيد الأسماك: فبفعل هطول المطر الملوث بنحو دائم وتسرب النفط من الأنابيب، إما لأن هذه الأنابيب قد علاها الصدأ، أو لأنها تتعرض، من حين لآخر، إلى عمليات تخريب مختلفة، لذا تراجعت إنتاجية القطاع الزراعي بنحو كبير وما عادت الأسماك قادرة على الحياة في المياه الملوثة. وهكذا، صار لزاماً جلب الأبقار والماعز والأغنام من شمال نيجيريا.

من ناحية أخرى، لا يوجد طريق معبد في المنطقة النفطية، كما لا يتوافر السكان على الكهرباء، ولا إمكانيات مالية لديهم لشراء النفط. وهكذا، وللحصول على ما يحتاجون من نفط، تراهم مجبرين على إحداث ثقوب في الأنابيب مراهنين على نجاتهم من الانفجار الذي ينشأ، من حين لآخر جراء هذه الثقوب، ومعرضين أنفسهم إلى المخاطر الناجمة عن تدخل القوات العسكرية. والملاحظ هو أن محطات تعبئة البنزين كثيراً ما تغلق أبوابها ـ فالبنزين يشح، في كثير من الأحيان، ليس في أسواق حوض نهر النيجر فقط، هذا الحوض الغني بالموارد النفطية، بل وفي أسواق باقي المناطق من نيجيريا.

وينشأ عن هذه الأوضاع البائسة ضغط يدفع الأفراد إلى التفتيش عن فرص للهجرة: فتراجع خصوبة الأراضي الزراعية بنحو مستمر، وتلوث المياه، بفعل استخراج النفط واستحالة الحصول على فرصة عمل (شرعية)، والأساليب التعسفية والقمعية التي تمارسها عناصر الشرطة والجيش والوحدات شبه العسكرية التابعة إلى شركات النفط، تدفع الرجال الشباب على وجه الخصوص، إلى الهجرة إلى عالم الرفاهية: إلى أوروبا، مخلفين وراءهم نساءهم وذلك لأن على عاتقهن تقع مسؤولية تربية أطفالهن في ظل ظروف لا تطاق.

الكفاح من أجل الوقوف في وجه الكارثة يبذل مصورون يعملون لحساب الصحافة الدولية جهوداً عظيمة في بعض الأحيان لفضح خلفيات وملابسات إنتاج النفط. وغني عن البيان، أن احتمال نشر الصور الفاضحة لهذه الخلفيات والملابسات في الصحافة الدولية، يكون أكثر تحققاً حينما تختطف مجموعات متمردة مواطناً أجنبياً. عند إذن تتاح للمرء، لفترة قصيرة من الزمن، مشاهدة صور تكاد أن تعبر عما ستكون عليه الحال، بعد بلوغ العالم نهايته. ففي هذه الصور يشاهد المرء انتشار بحار بترولية لا نهاية لها وتصاعد أعمدة النار بفعل حرق الغاز، واختراق أنابيب النفط القرى المختلفة، ومتمردين متنكرين، ومواطنين تحولوا إلى جموع جائعة بائسة.

إن تاريخ المقاومة الشعبية أمسى، منذ عقود كثيرة من الزمن، بؤرةً تستقطب انتباه الرأي العالمي من حين لآخر. فعلى سبيل المثال وبعد محاكمة صورية أثارت استياء عالمياً، جرى في عام ١٩٩٥ إعدام الكاتب والمناضل المدافع عن الحقوق المدنية كين سارو ويوا، ومعه ثمانية من شركائه في النضال. وكما هو معروف فقد كان كين سارو ويوا قد أنشأ في عام ١٩٨٩ «حركة حماية شعب الأوجوني».

وخلال عامي ٢٠٠٢ و ٢٠٠٣، احتلت بضعة ألوف من النسوة ميناء التصدير التابع إلى شيفرون/تكساكو، وبضعة من محطات استخراج النفط. وكانت هذه النسوة قد هددن بخلع الملابس والتعري بنحو تام. وتجدر الإشارة هنا إلى أن التعري الكامل ينطوي بحسب الثقافة المحلية على لعنة لا ترحم. كما يُعتبر



«ساعدوا الدلتا»، شعار كتبه أحد الشباب
على جسده في إحدى المظاهرات، نيجيريا
من معرض: Letzte Ölung Nigerdelta
Staatliches Museum für
Völkerkunde, München
Photo: George Osodi

التعري، سلاحاً ينذر بنحو نهائي ببدء الصراع بين الحياة والموت.

والملاحظ هو أن الصراعات والنزاعات تزداد تفاقماً، وأن حوض نهر النيجر، قد صار مسرحاً لعمليات تخريب واختطافات مختلفة وأن الحكومة تواظب على شن ضربات انتقامية. من هنا، كثيراً ما يلقى سكان المناطق النفطية، (بما في ذلك الأطفال أيضاً) حتفهم جراء أعمال العدوان والممارسات التعسفية المنتهجة من قبل قوى الأمن. وتنطبق هذه الحقيقة، بنحو خاص، على الأساليب التي تنفذها «قوة المهمات الخاصة» التي جرى إنشاؤها عام ٢٠٠٤، وذلك لحماية مصالح شركات النفط.

وابتداءً من عام ٢٠٠٦، تظهر في الساحة حركة متطرفة، تهدف إلى تحرير دلتا النيجر. وكانت هذه الحركة قد ألحقت خسائر فادحة بمعدات شركة رويال دتش شل ووجهت ضربات موجعة، لما تقوم به هذه الشركة في مجال استخراج النفط. كما كانت هذه الحركة قد قامت خلال عامي ٢٠٠٦ و ٢٠٠٨ باختطاف أجانب زاد عددهم على المائتين، ولم تطلق سراح الكثيرين منهم إلا بعد أن حصلت على مبالغ مالية كبيرة. وعلى خلفية النزاعات والتوترات المستمرة، أنهت شركة شل في عام ٢٠٠٦ أعمالها في القسم الغربي من حوض نهر النيجر.

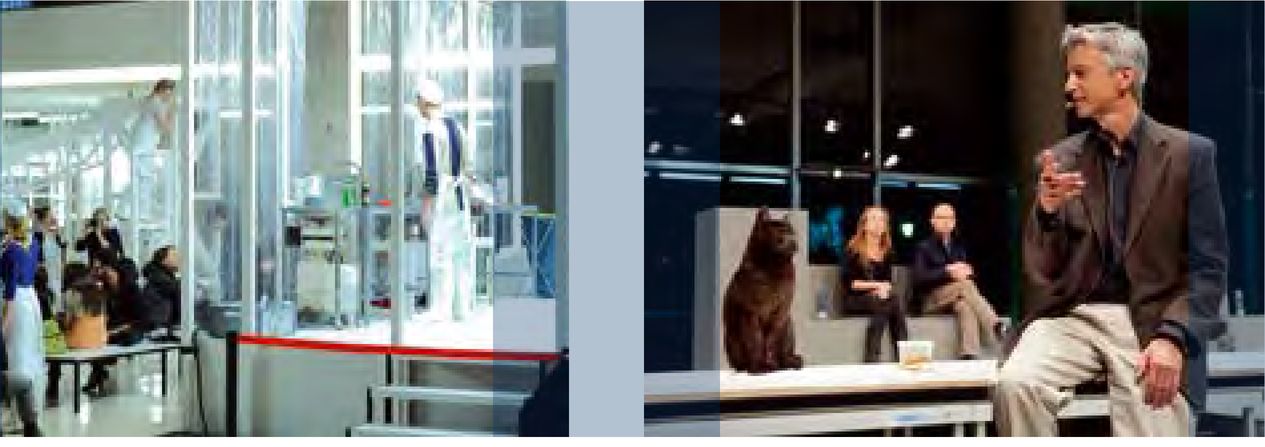
الغطس في أعماق البحر وينطبق الأمر ذاته على الشركات الأخرى الناشطة في تلك المنطقة، أعني شركات من قبيل توتال وموبيل وآجيب وشيفرون. فالتوترات المستمرة في المنطقة دفعت بهذه الشركات، في السنوات الأخيرة، إلى نقل الإنتاج إلى المناطق البحرية القريبة من الساحل. ومرة أخرى تبقى أبعاد الكارثة الناشرة ظلالها على هذه المنطقة خفية عن الأنظار (حتى الآن): فظاهرياً تسود الجو العام هنا منصات „نظيفة" لاستخراج النفط، ومعدات تستخدم أحدث التكنولوجيات، وعمال جاؤوا من شتى البلدان الصناعية وحازوا على مؤهلات متقدمة. ويعيش هؤلاء العمال في أحياء سكنية محروسة بنحو قوي ومعزولة عن باقي السكان؛ وفي حين يعيش هؤلاء العمال خلف أسلاك شائكة عالية الارتفاع وفي أجواء عائلية تنعم بالرفاهية، وتمتع نفسها بما في مساكنها من أحواض للسباحة، يعيش إلى جوارهم سكان لم تتسع لهم غير مدن الصفيح ولا يتوافرون حتى على مياه الشرب النظيفة.

ويُستخرج النفط من البحار من عمق يصل إلى بضعة كيلومترات. وغني عن البيان أن هذه الأعماق يسودها ظلام معتم وبرودة عالية. وفي هذه الأعماق لا يستطيع المرء تلمس طريقه من غير الاستعانة ببرامج الكومبيوتر. وتتم الحفريات من خلال أجهزة تحكم تعمل من بعيد، أي من المنصات، ووفق أساليب غاية في الدقة. على صعيد آخر، فإن النفط الساخن إلى درجة الغليان يفقد شيئاً فشيئاً من السخونة ويتصف بالبرودة وهو يتجه إلى سطح البحر. وفي سياق انتقاله تتكون مواد ضارة تتسبب في تآكل الأنابيب وإلحاق الدمار فيها. وبهذا النحو تنشأ فتحات في الأنابيب، لا يجري اكتشافها إلا في وقت متأخر جداً. بيد أن هذا كله هو ليس الأمر الوحيد الملوث للمياه: فلو أخذنا بحر البلطيق بمفرده، كمثال من بين أمثلة كثيرة، فإننا سنلاحظ أن عمليات استخراج النفط تضخ في هذا البحر، يومياً حوالي مليون طن من „مياه جرى استخدامها في عمليات الإنتاج" واحتوت بالتالي على مختلف المواد الكيميائية المضرة.

وتؤكد حملات الدعاية التي تقوم بها شركات النفط على اهتمام هذه الشركات بسلامة البيئة على مستوى العالم أجمع؛ زاعمة أنها لن توفر جهداً في استخدام „أنظف" التقنيات في عمليات استخراج النفط، وذلك رغبة منها في المحافظة على سلامة البيئة. ولكن، وعلى خلفية الدمار الناشئ في بيئتنا المحلية، لا مندوحة للمرء من أن يسأل عن فرص المحافظة على البيئة في بحار العالم الأخرى.

إيفا أورشبرونغ فنانة ومنظمة معارض نسماوية، قامت بالاشتراك مع هانس نيفيدال بتنظيم معرض «الطقوس الأخيرة في دلتا النيجر - مأساة استخراج النفط عبر الفوتوغرافيا المعاصرة» في متحف ميونيخ الإثنولوجي.

ترجمة: عدنان عباس



من خلال سلسلة فعاليات ضخمة يوجه دار ثقافات العالم بمدينة برلين جهوده نحو بلورة تصور عن الأنثروبوسين، أو العصر الجيولوجي البشري. وحسب هذا التصور لم يعد المناخ والطبيعة من الظواهر الطبيعية، بل ظواهر من صنع البشر. وكيف ينعكس ذلك على تصورنا لأنفسنا؟ زميلنا في فكر وفن تابع الفعاليات الافتتاحية.

عالم غرابوفاك ALEM GRABOVAC

الإنسان أم الطبيعة؟

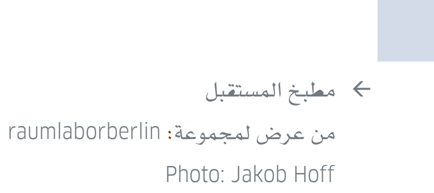
تصور الأنثروبوسين

اصطحب الجيولوجي البريطاني يان زالازيوفيتش معه قطة إلى المحاضرة. إنه أستاذ محاضر بجامعة ليستر وعضو لجنة علم الطبقات الجيولوجية لدى الجمعية الجيولوجية بلندن، إلى جانب كونه واحدا من مجموعة باحثين يلعبون دورا بارزا في عملية تحليل ظاهرة الأنثروبوسين. جلست القطة فيلو ذات الذيل الأسود أمامه على المنضدة.

وخلال المحاضرة التي ألقاها بدار ثقافات العالم، حرص يان زالازيوفيتش على الاهتمام بفيلو وإطعامها. لقد أوضح زالازيوفيتش أن فيلو ترمز في تصوره إلى عصر الأنثروبوسين. فالقطط المنزلية «فيليس سيلفيستريس كاتوس» هي إحدى الفئات البيولوجية القليلة الرابحة في ظل ذلك العصر الذي بدأت فيه سيطرة الإنسان على العمليات الجيولوجية عند سطح الأرض.

أصبحت فيلو محور اهتمام المحاضرة، إلا أنه قد بدت عليها علامات الضيق لرغبتها في الطعام. ربت زالازيوفيتش على فيلو وقدم إليها طعاما مستكملا حديثه دون توقف. يقول زالازيوفيتش أن الإنسان يُمثل اليوم ثلث الكتلة البيولوجية لجميع الفقاريات الأرضية. أما الجزء الأكبر من الثلثين المتبقيين فتحتله تلك الحيوانات التي تُعد غذاء بالنسبة إلينا: مثل البقر والأغنام والخنازير والماعز. ويذكر زالازيوفيتش أن نسبة الحيوانات البرية الحقيقية تقلصت إلى ما دون الخمسة بالمائة. أي أننا بصدد عملية اكتساح بيولوجي لا نظير له في تاريخ الأرض، كما جاء على لسان زالازيوفيتش. في هذه الأثناء استرخت فيلو وبدأت تُنصت للمحاضرة. إن القطط المنزلية تحتل مكانة بين الحيوانات المستأنسة والبرية، حيث اتجه البشر في جميع أنحاء العالم إلى تربيتها واستطاعت لذلك أن تتكاثر بشكل رائع. ووصل عددها في الوقت الراهن إلى ٢٥٠ مليون قطة منزلية. إلا أنه في مقابل ذلك تحولت الفهود والنمور إلى أكبر الفئات الخاسرة. ولذا يؤكد زالازيوفيتش في نهاية محاضرته، أن القطط هي إحدى الفئات القليلة المستفيدة في عصر الأنثروبوسين.

العصر الجيولوجي البشري لعل العديد من القراء يتساءلون عن ماهية الأنثروبوسين؟ أي نوع من المصطلحات هذا؟ وإلى أي الأشياء يرمز؟ وما هو مصدره؟ صيغ مصطلح الأنثروبوسين من قبل عالم الأرصاد الجوية الهولندي الحائز على جائزة نوبل بول ج. كروتزن وذلك خلال مؤتمر عام ٢٠٠٠. وقام بعد ذلك بعامين بتجسيد نظرية «عصر من صنع الإنسان» التي طرحها في مقال بعنوان «جيولوجيا البشرية» وذلك في مجلة «نيتشر» العلمية. فمن المنظور الجيولوجي يوضح بول ج. كروتزن أننا نحيا فيما يُسمى بعصر الهولوسين. بدأ عصر الهولوسين منذ نحو ١١،٥٠٠ وجاء بعد العصر الجليدي أو العصر البلستوسيني. إلا أن البشرية قد أحدثت تغيرات كبيرة على وجه الأرض، بحيث أصبح من الأنسب التحدث عن عصر



جيولوجي جديد ـ ما يُطلق عليه «الأنثروبوسين». يؤرخ كروتزن عصر الأنثروبوسين إلى نهاية القرن الثامن عشر، حيث بدأ عصر التصنيع باختراع الآلة البخارية، وهو ما عمل على تغيير العالم بشكل جذري. وقد نجم عن هذا التحول الجذري عدة نتائج من بينها زيادة نسبة الغازات المسببة للاحتباس الحراري وتدمير طبقة الأوزون وإزالة الغابات والصيد الجائر في المحيطات واستغلال الموارد الخام والنمو السكاني العالمي غير المتوقع. ويؤكد كروتزن أن كافة تلك العوامل التي قد تسبب فيها الإنسان تتطلب اتباع نهج مختلف في التعامل مع الأرض. وفيما كتبه: "ما لم تكن هناك كارثة عالمية ـ كتصادم نيزك أو حرب عالمية أو تفشي وباء ـ ستظل البشرية قوة بيئية رئيسية على مدى آلاف السنين. إن العلماء والمهندسين بصدد مهمة شاقة لإرشاد المجتمع نحو الإدارة المستدامة بيئيا خلال عصر الأنثروبوسين".

"تلك المهمة المروعة التي تتمثل في إرشاد المجتمع إلى التنمية المستدامة في عصر الأنثروبوسين" صاغها بول ج. منذ عشر سنوات بالتحديد، وتمحورت حولها فعاليات مشروع الأنثروبوسين التي امتدت على مدى أربعة أيام بدار ثقافات العالم ببرلين. فخلال عدد لا حصر له من الفعاليات ناقش العلماء من مجالات الفلسفة والجيولوجيا والفن والأنثروبولوجيا والاجتماع والثقافة والفيزياء والأدب والمناخ، الآثار متعددة الجوانب لعصر الأنثروبوسين. حيث أثيرت قضايا عدة على مدى تلك الأيام، وذلك في إطار مشهد متعدد التخصصات. هل لا زال من الممكن على الإطلاق أن يتم العمل بمفاهيم ومصطلحات مثل «صناعي» و «طبيعي»؟ هل لازال هناك وجود لـ «الطبيعة» في شكلها النقي والأصلي؟ إلى أي مدى نعد قادرين على الاعتراف مسبقا بالنتائج الناجمة عن أفعالنا وتقييمها؟ ماذا يُمثل مصطلح الأنثروبوسين لقضايا الاستدامة والنظم القانونية الحديثة؟

أطلق هذه المبادرة الكيميائي وعالم المناخ الأسترالي ويل ستيفن. في محاضرة له بعنوان «الأنثروبوسين: إلى أين نحن ذاهبون على وجه الأرض؟» كرس جهوده نحو التساؤل ما إن كانت الإنسانية بصدد التدمير الذاتي. ووفقا لما توصل له ويل شتيفين، نعيش الآن عقدا حرجا بالفعل، اقترن بالتسارع الكبير الذي لحق الحرب العالمية الثانية. حيث بدأ في ذلك الوقت العديد مما نسميه اليوم بالعولمة. عرض ستيفن العديد من الرسوم البيانية المخيفة حول تزايد انقراض الأنواع والصيد الجائر للأسماك في مياهنا، وارتفاع وزيادة ظاهرة الاحتباس الحراري وما يرتبط بها من كوارث طبيعية ناجمة عن التغير المناخي. وقد حذر ستيفن موضحا أننا إذا ما استمرينا على ما نحن عليه، لن ننجح في الحد من ارتفاع متوسط درجات الحرارة بما لا يتعدى الدرجتين. فخلال العشر سنوات القادمة سوف يتقرر ما إن كان لا يزال لدينا فرصة أم لا.

عقب هذه المقدمة لويل ستيفن يتساءل المرء عن الجديد بشأن مفهوم «الأنثروبوسين». في عام ١٩٧٢ نشرت منظمة «نادي روما» دراسة بعنوان «حدود النمو» حذرت فيها من أن النمو السكاني الراهن وارتفاع نسبة التلوث البيئي واستغلال الموارد الطبيعية، جميع تلك العوامل سوف تقود البشرية إلى كارثة اقتصادية وإيكولوجية. كما أن التغيرات العالمية لم تخفى أيضا على مجال العلوم الإنسانية. فعلى سبيل المثال لا الحصر، وصف أولريش بيك في كتابه «مجتمع المخاطر» عام ١٩٨٢ التهديدات والأخطار الذاتية التي نجمت عن الإنسان في عصر التصنيع الحديث: „الأمـر لم يعد يتعلق (فقط) باستغلال الطبيعة، وتحرير الإنسان من القيود التقليدية، بل (...) يتعلق إلى حد كبير بالمشكلات المترتبة على التنمية التقنية ـ الاقتصادية في حد ذاتها. فقد ارتدت عملية

← مطبخ المستقبل
من عرض لمجموعة: raumlaborberlin
Photo: Jakob Hoff
© Haus der Kulturen der Welt

↗ مطبخ المستقبل
من عرض لمجموعة: raumlaborberlin
Photo: Joachim Loch
© Haus der Kulturen der Welt

→ يان زالازيوفيتش يحاضر بوجود قطته فيلو
Photo: Sebastian Bolesch
© Haus der Kulturen der Welt

التحديث بشكل «انعكاسي» وأصبحت تُمثل قضية ومشكلة ذاتية. وعلى ذلك فإن التشخيص الزمني في حد ذاته ليس بجديد، بل مصطلح الأنثروبوسين نفسه.

مصطلح حديث وواقع قديم لقد أوضح العلماء خلال المؤتمر أن إحدى الافتراضات الأساسية التي يستند إليها الأنثروبوسين تقضي بعدم وجود طبيعة وبأن كل شيء قد أصبح من صنع الإنسان. ولكن، هل يعد ذلك اكتشافا رائدا حقا؟ لقد أقيمت تلك الفعالية بدار ثقافات العالم، في وسط منتزه تيرغارتن ببرلين الذي يضفي من خلال تصميمه المماثل للطبيعة صبغة فريدة على معالم مدينة برلين منذ ما يقرب من ٥٠٠ عام. فنجد على سبيل المثال أن الملك البروسي، فريدريش الثاني، قد عهد في عام ١٧٣٠ إلى معماري تصميم المناظر الطبيعية، جيورج فينتسيلاوس فون كنوبلسدورف، بمهمة تحويل ساحات الصيد الخاصة بالملك إلى حديقة عامة وفقا للنموذج الفرنسي. قام كنوبلسدورف بتجميل الحديقة بالأزقة الخلابة والأسوار الزخرفية والممرات المائية الواسعة والمتاهات ذات الطراز الباروكي المتأخر وشخصيات من الأساطير القديمة. فتلك الطبيعة التي صنعها الإنسان تحيط بدار ثقافات العالم ببرلين منذ عدة قرون بالفعل.

لقد تم شواء ثور على سيخ على شرفة سطح دار ثقافات العالم ذات الإطلالة على منتزه تيرغارتن. وقد قامت فرقة الفنون راوم لابور برلين بتشييد خمسة أكشاك في البهو، حيث يتم إعداد لحم الثور مع بعض الأطباق الجانبية. يتمثل الهدف من تلك الأكشاك في تجسيد العلاقة بين كل من الإنسان والطبيعة والحيوان والآلة. بدت تلك الأكشاك وكأنها معامل من المستقبل، يقف فيها أشخاص بمعاطف بيضاء يملئون الوجبات في أكواب صغيرة. يصل عدد الوجبات التي تُوزع على الزائرين إلى ١٠٠ وجبة، يتم تسخينها مسبقا في أفران المايكروويف. أما عن مذاق لحم الثور الذي تم إعداده، فلم يستطع كاتب هذا المقال أن يقرر بشأنه نظرا لأنه قد أصبح نباتيا بالفعل قبل أن يتم صك مصطلح الأنثروبوسين.

كيف كانت المحاضرات المختلفة؟ حاول أكيل بلغرامي، أستاذ الفلسفة بجامعة كولومبيا بنيويورك، أن يوضح من الناحية التاريخية الفلسفية، أن إنكار الأخلاق والقيم من قبل العلوم الطبيعية تعين استبداله بإدراك جديد «للمعايشة الواقعية للعالم». وشرح إرله إلليس، أستاذ الجغرافيا والأنظمة البيئية بجامعة ماريلاند، أن الإنسان قام بالفعل بتغيير وتحوير أكثر من ثلاث أرباع مساحة سطح الأرض. إلى جانب ذلك ألقت أورسولا ك. هايزه، أستاذة اللغة الإنجليزية بجامعة كاليفورنيا، محاضرة حول «ببغاء الأمازون الأخضر الخدين»، والذي يكاد يكون قد اختفى من موطنه الأصلي بالمكسيك بفعل قطع وحرق الغابات. إلا أن تجارة الببغاوات قد أدت إلى تكاثر ببغاوات الأمازون خضراء الخدين، التي فرت من المنازل في كاليفورنيا بشكل رائع. وعلى ذلك تزخر منطقة خليج سان فرانسيسكو بهذا النوع من الببغاوات التي تعدت أعدادها الألف ببغاء، ويُشار إليها رسميا الآن باسم «الطيور من أصول مهاجرة». أما إليزابيث بوفينيللي، أستاذة الأنثروبولوجيا، فقد طرحت تساؤلا استفزازيا عما إن كانت جميع الحيوات تتمتع بنفس القيمة أم لا، واستندت في ذلك إلى مثال لإحدى قبائل سكان أستراليا الأصليين. فأي المخلوقات والأنواع تتمتع بحق البقاء في عصر الأنثروبوسين؟ وفيما طرحته كريستينا فون براون، الباحثة الثقافية بجامعة هومبولت ببرلين، ذكرت أن المطالبة بالمسئولية المتبادلة دائما ما تنطوي على خطر بزوغ إيديولوجيات جديدة. تنبأ عالم الاجتماع، ألدو هازلر، بـ «عصر التفرد»، بمثابة عالم اجتماعي متقلص تعيش فيه نخبة صغيرة في مجتمعات مغلقة وتحيا فيه الغالبية العظمى كنفايات بشرية. وطالبت مؤلفة الكتب العلمية والصحفية، إيما ماريس، بإدارة عبر وطنية جديدة للأرض، وتتسم بطابع ائتماني. إلى جانب ذلك تناولت فرقة سمود للفنون الإعلامية من نيويورك، تلك الأماكن واللحظات التي يلتقي فيها العامل الجيولوجي مع البشري. وقد أحضروا معهم قطعة صخرية من أحد مواقع تخزين النفايات النووية بفنلندا يحوي باعتباره حليفا للبشر، النفايات المشعة لآلاف السنين.

عصر القطط كانت المحاضرات بلا شك مثيرة للاهتمام وغنية بالمعلومات، إلا أنها على الجانب الآخر لم تكد تذكر شيئا جديدا. إلى جانب ذلك لم يتم تمثيل صناع القرار من مجالي السياسة والاقتصاد في هذه الفعالية، وود المرء لو تم التطرق إلى آرائهم حول عصر الأنثروبوسين. إذ أن إحدى القضايا المستقبلية الرئيسية ستتمثل في كيفية تطبيق نتائج أبحاث الأنثروبوسين في إطار الأنظمة السياسية والاقتصادية ذات المرجعية الذاتية. إلا أنه لأمر جيد أن يعمل مشروع الأنثروبوسين في دار ثقافات العالم، على خلق وعي متعدد التخصصات بالمخاطر التي تهدد البشرية. فالمشروع لم يغلق أبوابه بعد، فعلى مدى عامين مقبلين ستواصل دار ثقافات العالم استكشاف فرضية الأنثروبوسين من خلال ورش العمل والمبادرات البحثية والشراكات بين المؤسسات، وذلك بالتعاون مع جمعية ماكس بلانك والمتحف الألماني. ومن يدري، ربما يكتسب مصطلح الأنثروبوسين قوة كافية لدفع عملية، من شأنها أن تحول دون وقوع الأسوأ في المستقبل، وذلك بالاستناد إلى ما تم جمعه من معارف ونتائج بحثية في مختلف التخصصات.

وإن لم ينجح ذلك، وتمكن الإنسان من القضاء على نفسه في ظل عصر الأنثروبوسين الذي صنعه، فإن يان زالازيوفيتش (الذي أحضر معه القطة فيلو) قد ذكر أن تمثيل القطط وبعض الحيوانات الأقل شعبية كالفئران البنية سيستمر وبوفرة. وأن القطط المنزلية سوف تعود لتصبح قططا برية مرة أخرى. وستواصل سلالاتها التطور والتغير؛ وفي وقت ما في المستقبل البعيد سوف تحتل تلك السلالة ذلك الفضاء الإيكولوجي الذي خلفه الأسود والنمور والفهود. وخلال حديثه هذا هرهرت فيلو معبرة عن امتنانها وكأن هذا السيناريو المستقبلي قد نال إعجابها.

عالم غرابوفاك كاتب وصحفي يقيم في برلين.

ترجمة: هبة شلبي

يؤثر التغير المناخي على النساء أكثر منه على الرجال. منسقة شبكة «نساء من أجل العدالة المناخية» (Gender CC) ماريون روله، تطالب بالمساواة بين الجنسين فيما يتعلق بسياسة المناخ. حول الاختلافات والحلول المحلية والكثير مما يتوجب عمله حاورتها سونيا بيتراندرل.

ماريون روله MARION ROLLE

„النساء أكثر تأثرا"

مقابلة حول الجندر والتغير المناخي

فكر وفن: سيدة روله، لماذا يتوجب النظر إلى التغير المناخي من وجهة نظر أنثوية أيضا؟

روله: يمس التغير المناخي في جميع الأحوال الفقراء من الناس، الذين لا يتوفرون على البنية التحتية الضرورية وعلى ثروات كافية للتأقلم، وسبعون في المائة من الفقراء في العالم، نساء. والنساء غالبا أقل قدرة على الوصول إلى الدخل والموارد مثل الأراضي والسلطة و لكن أيضا غالبا ما لا يملكن الحق في المشاركة في القرارات. وعبر الأدوار المحددة اجتماعيا فإن النساء مسؤولات عن قطاعات حساسة ترتبط صميميا بالمناخ مثل الغذاء وإمدادات المياه والطاقة. إن الحدود القائمة مثل المشاركة السياسية الضعيفة وندرة سبل الحصول على المعلومات أو نقص التعليم، كل ذلك يجعل النساء أكثر تأثرا، وبإمكانيات محدودة للتصرف.

وما هي نتائج التغيرات المناخية التي تؤثر أكثر بالنساء؟

لأن النساء يعانين غالبا من الفقر، فإن كل النتائج السلبية التي لها علاقة بالتغيرات المناخية والتي تساهم في ارتفاع الأسعار مثل أسعار المواد الغذائية بسبب تراجع نسبة المحاصيل. بل حتى النساء في ألمانيا، كالأمهات العازبات يشعرن بذلك مباشرة، لأن مواردهن المالية محدودة. لكن المال ليس المشكلة الوحيدة. في تنزانيا مثلا النساء مسؤولات عن ضمان الغذاء. فإذا ما ساءت حالة التربة و تراجعت التساقطات المطرية، يضطرن للعمل لوقت أطول وبذل جهد أكبر من أجل إطعام أسرهن. وهو ما يتحقق على حساب صحتهن وما يمنعهن من استغلال وقتهن في أمور أخرى كالتعليم والمشاركة السياسية.

نحتاج إلى المساواة في سياسة المناخ

ما الذي ينبغي فعله من أجل ضمان احتياجات المرأة بشكل أفضل؟

نحن بحاجة إلى المساواة في سياسة المناخ على المستوى المحلي والوطني والدولي. وهذا لا يمكنه الحدوث إلا إذا توفّر هناك وعي بهذا التفاوت ويكون هناك استعداد لعمل شيء ضده لدى الجهات المعنية والمتسببين في التغيّر المناخي كما لدى السياسيين والمنظمات غير الحكومية. ومن المهم أن نعرف أين يختلف التأثير على النساء منه على الرجال من أجل اتخاذ تدابير مناسبة من شأنها أن تحد من التفاوت بدلا من تعميقه.

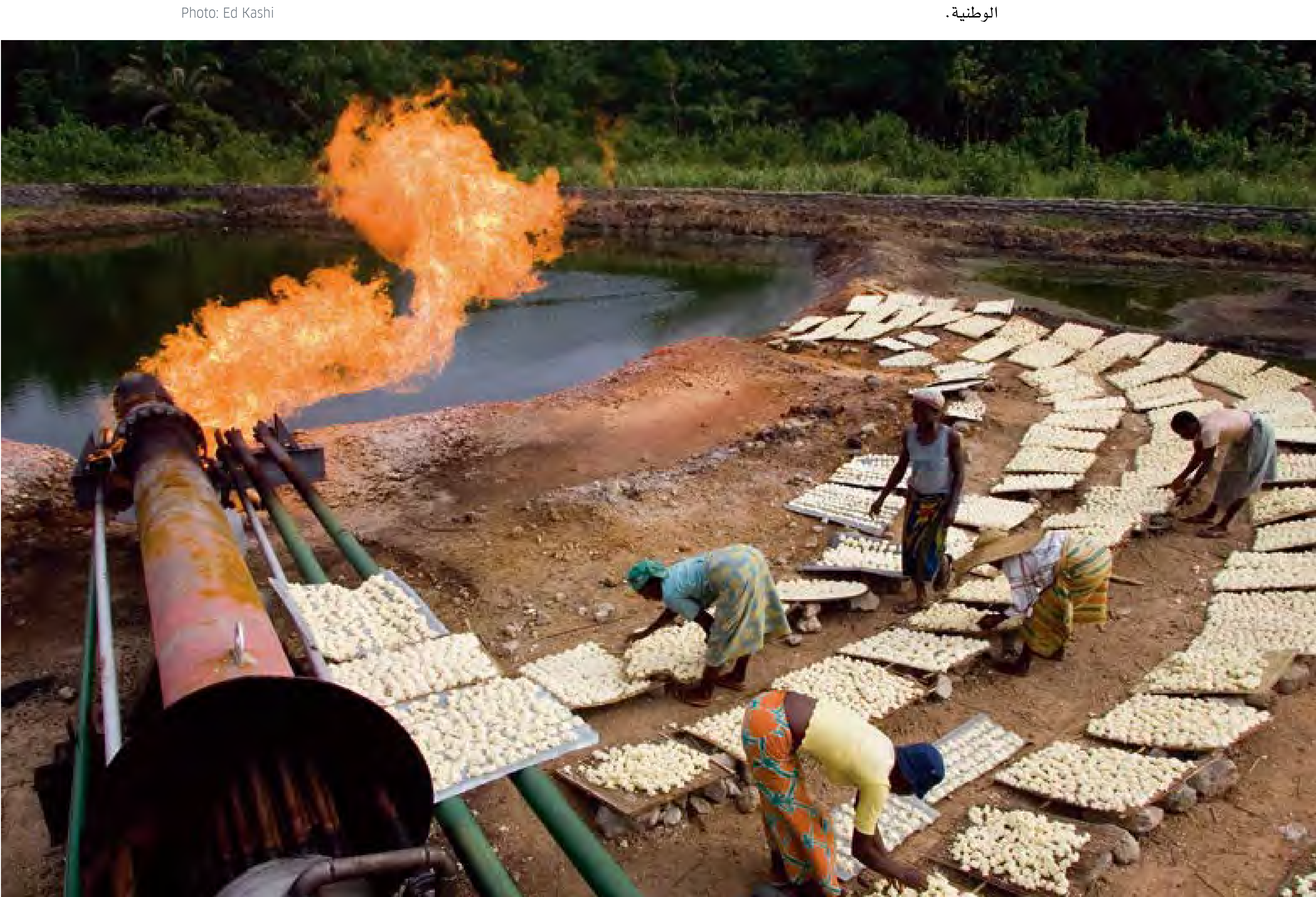
كيف يظهر ذلك بشكل محسوس، مثلا في مشروعك بجنوب إفريقيا؟

في عشرة من أوراش العمل قمنا بها حتى الآن، تعلق الأمر بتزويد الناس بالمعلومات حول التغير المناخي. إن الكثيرين يدركون التغيرات البيئية لكنهم لا يدركون السياقات التي تقع فيها، لأنه تعوزهم المعرفة اللازمة. وتتم في أوراش العمل مناقشة كيفية تأثير التغير المناخي على الحياة اليومية وما هي الاختلافات في ذلك بين النساء

والرجال، لأنه لا يمكن إغفال واقع الاختلاف القائم بين الجنسين. واستنادا على هذا الأساس يتم إعداد إجراءات مناسبة. إن الهدف هو مساعدة الناس على التصرف من تلقاء أنفسهم ودفعهم للقيام بذلك فيما يتعلق بحياتهم وبالعملية السياسية.

أي تأثير كان لورشات العمل؟

بدأ الناس يطورون حلولا للمشاكل، وهم يذهبون أيضا إلى قراهم، ليفيدوا الناس بما تعلموه. كما أن المعرفة التي نحصلها في أوراش العمل تعرف طريقها أيضا إلى العملية السياسية. علاوة على ذلك يعمل ممثلونا المحليين رفقة مشاركات ومشاركين في أوراش العمل ومنظمات غير حكومية أخرى على تطوير الإستراتيجيات الوطنية.



نساء نيجيريات يطبخن على أنابيب الغاز ما يسبب بكوارث صحية
من معرض:
Letzte Ölung Nigerdelta.
Staatliches Museum
für Völkerkunde, München
Photo: Ed Kashi

الرجال يميلون للبحث عن حلول تكنولوجية

هل يتعامل الرجال والنساء بشكل مختلف مع المشاكل المطروحة؟

هناك اختلافات فيما يتعلق بأسباب الأضرار المناخية. فالدراسات تقول بأن الرجال يستهلكون اللحوم أكثر من النساء ويسوقون السيارات أيضا أكثر من النساء ما يعني أنهم يستهلكون طاقة أكبر. والنساء في الدول الصناعية يتعاملن بروح نقدية مع سلوكياتهن بشكل أكبر منه عند الرجال وهن مستعدات لتغييره، مثلا التقليل من استهلاك اللحوم. يعني أنهن يفضلن الحلول الطبيعية في حين يميل الرجال إلى حلول تكنولوجية. إن السياسة ذكورية: إذ يتم مثلا وضع فلتر على المفاعلات التي تعمل بالفحم، وبناء سد وتصريف ثاني أكسيد الكربون في البحر.

هذا يعني أن رؤية المرأة لا تؤخذ بعين الإعتبار؟

غالبا ما لا تساهم المشاريع الكبيرة في تحسين الوضع في عين المكان، وذلك خصوصا بسبب انعدام البنية التحتية في المناطق القروية. وبالنسبة للنساء فإنه مهم في البداية توفير الغذاء للجميع. ويظهر من خلال المشاريع التنموية أن النساء يبحثن عن حلول داخل بيئتهن كأن يعمدن إلى تطوير جرار تقليدي من أجل حرث الحقل بدلا من استعمال جرار كبير. ولهذا يفضل أن تتكامل الحلول الكبرى مع الحلول المحلية. ويتوجب أن تعمل النساء مع خبراء الجندر من أجل الاستفادة من مختلف الرؤى في حزمة الإجراءات التي يتم التوصل إليها.

إلى أي حد هي سياسة المناخ منفتحة على الجندر؟

مقارنة بالمؤتمر الأول حول المناخ، حققنا الكثير، فقبل عشر سنوات لم يكن لأحد أن يفكر بأن الجندر عنصر أساسي فيما يتعلق بالتحول المناخي ونتائجه. وعلى المستوى الدولي هناك اهتمام الآن بهذا العنصر في إطار المؤتمرات الدولية حول المناخ، إذ تم الاعتراف رسميا بالمجموعات النسوية ومجموعات الجندر كمراقبين، كما هو الحال بالنسبة لمنظمات غير حكومية أخرى. كما أن هناك اهتمام أكبر بالعناصر المرتبطة بالجندر، والذي ينعكس أيضا في وثائق المفاوضات كما هو الحال في إجراءات التكيف مع التحول المناخي.

لكن؟

لكن قلة من الحكومات مستعدة لتغيير شيء في الواقع. ويضعف الأمر أكثر على مستوى الإجراءات المتخذة. كما أن النساء لا يحظين باهتمام في القضايا المهمة مثل القضايا المالية وتصدير التكنولوجيا وحماية المناخ. وكلما ازداد عدد القرارات المتخذة، كلما قلّ عدد النساء المشاركات في ذلك، كما هو الحال أيضا في الشركات. كما أن عدد النساء المشاركات في اللجان الحكومية لا يتجاوز الثلاثين في المائة، بل إن عدد قادة المفاوضات من النساء لا يتجاوز خمسة عشر في المائة. لكن، كلما نظر المرء إلى أسفل، مثلا فيما يتعلق مثلا بنسبة النساء في المنظمات غير الحكومية المشاركة في مؤتمرات المناخ، إلا وبدا الأمر أكثر توازنا. لكن في نهاية المطاف، رؤساء الحكومات من يملكون القرار.

سونيا بيتراندرل درست علوم الاتصال الاجتماعي وتعمل كصحفية وتقوم بتغطية مجالات عدة من بينها قضايا المناخ.

ترجمة: رشيد بوطيب

إضاءات



آثار دمار في مدينة حلب
جراء قصف طائرة حكومية،
كانون الثاني/ يناير ٢٠١٣
Photo: Kai Wiedenhöfer

حصلت رزان زيتونة، الناشطة الحقوقية السورية نهاية ٢٠١٢ على جائزة ابن رشد للفكر الحر. وبهذه المناسبة ألقى المفكر الألماني والمتخصص في الدراسات الشرقية أودو شتاينباخ كلمة تكريم مشيدا بدور هذه الناشطة السورية.

أودو شتاينباخ UDO STEINBACH

الجرأة على الرؤية المتعددة

بمناسبة حصول رزان زيتونة على جائزة ابن رشد للفكر الحر

لم تتمكن رزان زيتونة من الحضور إلينا، وتلك ليست المرة الأولى التي يمنع فيها الحاصلون على الجوائز من الحضور شخصيا إلى حفلات تكريمهم، وتسلم الجائزة. إن هذا في الواقع من علامات الصراع بينهم وبين الحكام المتسلطين. إننا نغتنم هذه المناسبة في هذا المساء، الذي اضطرت هي فيه للإختباء، من أجل أن نحيّي كل نساء ورجال الانتفاضة السورية. اسمها معروف بالنسبة لنا ونعرف موقفها: إنها تناضل من أجل حقوق الإنسان، الحرية والعدالة في وطنها سوريا. وفي الآن نفسه نرى فيها ناشطة أيضا في تلك الانتفاضة التي تشهدها المجتمعات العربية، والتي انطلقت منذ السابع عشر من ديسمبر ٢٠١٠ من أجل التحرر من نير الظلم والقمع. وفي مقابلة صحفية في في أكتوبر ٢٠١١ وبمناسبة حصولها على جائزة آنا بوليتكوفسكايا قالت: „إن هذه الجائزة هي جائزة لكل السوريين ولثورتهم".

الثورات العربية الثلاث إن نضال السوريين يرتبط بمرجعيات مختلفة. أحدها يتمثل في رغبة الشعوب العربية في الاستقلال والحرية منذ نهاية الإمبراطورية العثمانية. إن هذه الثورة العربية الأولى التي عرفتها سوريا أيضا في العشرينيات من القرن الماضي، قمعتها الإمبريالية الأوروبية. أما الثورة العربية الثانية فبدأت مع الضباط الأحرار وانقلابهم على الملكية. فتغيرت الخريطة السياسية للمنطقة العربية لما يقرب من عقدين من الزمن، بين الجزائر واليمن، وفي النهاية وقعوا في مصيدة طموحهم السياسي المبالغ فيه، والصراع بين الشرق والغرب وإسرائيل وفلسطين والممارسة الثيوقراطية للسلطة وسياسة تنموية أدت إلى تكدس الثروة في يد أقلية وساهمت بشكل دراماتيكي في تعميق التناقضات الإجتماعية والإقتصادية.

وستنطلق الثورة العربية هناك، حيث فشل زعماء الثورة الثانية. لما أقدم محمد بوعزيزي في السابع عشر من ديسمبر ٢٠١٠ على إحراق نفسه في مدينة سيدي بوزيد المعدمة، كان ذلك بمثابة دعوة إلى ملايين من البشر من أجل إعادة تحديد مكان المجتمعات العربية في القرن الواحد والعشرين. وتأكد في الآن نفسه بأن الثورة تمتح قيمتها وشرعيتها من التاريخ نفسه وأنه لا تراجع عنها. فلا يوجد مكان في العام العربي لم تصله الثورة. إحدى المرجعيات الأخرى التي ارتبطت بها الثورة السورية له علاقة بتاريخ السوريين الحديث. لما سيطر البعث على مقاليد الحكم في دمشق سنة ١٩٦٣، في قلب الثورة العربية الثانية، بدا للحظة وكأن آمال الناس الموعودة بسورية جديدة سوف تتحقق، لكن طريقة السيطرة على السلطة في حد ذاتها، والتي تمت عبر العسكر، ألقت بظلالها على هذا الوعد. وأخيرا جاء انقلاب حافظ الأسد عام ١٩٧٠ وبعده جاءت المصادقة على دستور ١٩٧٣ الذي يؤكد على سيطرة حزب البعث على مقاليد الحكم، ليؤكد بأن الطريق «الاشتراكي» للتنمية سيتعارض لا غرو، مع حقوق الإنسان والمواطنة.

بدأت رزان زيتونة مقاومتها قبل عقد من الزمن تقريبا، في وقت لم يكن أحد فيه ليتكهن باندلاع الثورة العربية الثالثة وبالعاصفة في سورية. دافعت في البداية

عن السجناء السياسيين، وشاركت بعدها في تأسيس منظمات حقوق الإنسان، أما ظهورها هذه الليلة هنا، فكانت لربما ستدفع حياتها ثمنا له.

سلبية الغرب ولكن أين موقعنا من هذا الحدث التاريخي؟ التزامنا هذا المساء يقف في تناقض صارخ مع سلبية السياسة الغربية. فما عدا كلمات فارغة وتهرب ديبلوماسي من مواجهة الواقع، وتحليلاتٍ مثيرة للشك عن «الطبيعة الخاصة» للتطورات في سورية ، لم نسمع ولم نر إلا القليل. فالعقوبات الاقتصادية ليست بالإجراءات الفعالة، إنما ذر للرماد في الأعين، عبرها يريدون إعطاء انطباع بأن شيئا ما يحدث. بينما الواقع يؤكد بالطبع على أن لا شيء يحدث تقريبا.

ولكن ويا للتناقض الصارخ ألا تنظر أوروبا إلى نفسها كمنافح كبير عن الحرية؟ أجل، إن التفكير في حق الحرية وحق التمرد ضد الطغاة ضارب بجذوره في الثقافة الأوروبية، من فريدريش شيلر وحتى ألبير كامو، إذا اكتفينا فقط بذكر هذين العلمين. „من هو الإنسان في الثورة؟" يتساءل كامو في كتابه الرائع «الإنسان المتمرد» ويجيب عن السؤال قائلا: „إنه ذاك الذي يقول لا". وها نحن أمام ملايين من العرب يصرخون بكلمة لا. وحتى شيلر في مسرحيته الشهيرة فيلهلم تل، والتي أقرأها كتعبير عن إرادة الحرية ، قال: لا. „لا، سلطة الطاغية لها حدود/ عندما يعدم المقهور حقوقه في أي مكان/ ويضغط العبء عليه، يرفع يده/ في شجاعة مصممة إلى السماء/ لينتزع منها حقوقه الخالدة/ التي ظلت معلقة هناك، تأبى المساومة/ كالنجوم هي، لا تنكسر". ولا نحتاج هنا لتعداد أوجه الشبه مع اندلاع الثورات العربية. فهي واضحة للجميع. فإلى جانب الكثيرين انتفضت رزان زيتونة لانتزاع هذه الحقوق التي تأبى المساومة والتي ليست شيئا آخر غير حقوق الإنسان لمجتمعها السوري. وأن لا يتحقق ذلك بدون تضحيات جسام، أمر نعرفه من عشرات الآلاف من الضحايا السوريين. وكما كتب ألبير كامو: "وفي أقصى الحالات يقبل بالموت، حين يحرمونه من حريته. حينها يفضل أن يموت واقفا على أن يعيش راكعا". „فالموت أفضل من حياة العبودية"، نقرأ في فيلهلم تل أيضا.

أسس ثقافية مشتركة لماذا هذا الاستطراد؟ لكي أبين أننا في البلدان الأوروبية والعربية، وعلى الرغم من الاختلافات التاريخية والثقافية والدينية، نقف على أرضية مشتركة. لكن «الغرب» نظر لعقود نظرة ملؤها التكبر والشفقة والمعرفة الزائفة إلى «العرب» و «المسلمين»، معتبرا أنهم جينيا غير مؤهلين للديمقراطية. أما أكثرهم ذكاء في الغرب فطالبوا المسلمين بضرورة أن يعيشوا مرحلة من "التنوير" على غرار الأوروبيين، بعدها فقط يمكنهم الالتحاق بركب الحداثة. لكن الثورة العربية والتمرد السوري يفندان ذلك ويؤكدان على أن البشر جميعهم ملتزمون بالقيم الإنسانية، وأن الحرية شرط الشروط. إن تفكير فلاسفة وشعراء مثل فريدريش شيلر وألبير كامو يقف على الأرضية نفسها التي يقف عليها تفكير واستنتاجات عقول عربية مثل رفاعة الطهطاوي ومصطفى كامل وعبد الرحمن الكواكبي وعشرات آخرين. ويتوجب أن تقوم على هذه المعرفة أسس لقائنا والرؤية الجديدة لإدراكنا المتبادل. أما الكليشيهات المتداولة هنا حول «العرب»، «الإسلام» و «المسلمين» فهي ستنتهي إلى صندوق القمامة نفسه الذي سينتهي فيه الطغاة العرب.

لكن السؤال المطروح الآن هو ما العمل؟ السؤال الملح، هو كيف ندعم هذه الأحداث التاريخية؟ إننا لا نستطيع أن نتهرب هنا في الغرب من مسؤوليتنا، إذا ما كانت هذه الثورات العربية عموما والثورة السورية خصوصا تنخرط في إطار الدفاع عن حقوق الإنسان والمطالبة بالحرية، وهي المبادئ التي نلتزم بها أيضا. إن فشل السياسة الغربية، واكتفاءها بالتفرج على عمليات الذبح الجارية في سوريا والتي سيزداد معها عدد الجناة كلما طال أمدها، تقترب من «السادية». وخصوصا إذا ما ربطنا ذلك بموقف المجتمع الدولي من مبدأ «مسؤولية الحماية» الذي ما برح يتشدق به، والذي مثل تبريرا سهلا لمهمة الناتو العسكرية في ليبيا. العقوبات كذريعة لممارسة الضغوط. ونقرأ في صحيفة فرانكفورته



عناصر من كتيبة أويس القرني
التابعة للجيش الحر
في حي الشيخ سعد بحلب،
كانون الثاني/ يناير ٢٠١٣
Photo: kai Wiedenhöfer

ألغماينه بتاريخ ١٦ أيار/ مايو ٢٠١٢: "حظر الاتحاد الأوروبي تصدير السلع إلى سوريا التي تستخدم لقمع السكان ... ومن تلك السلع، الكافيار والكمأة والسيجار الذي يتجاوز سعر بيعه عشرة يوروهات، والنبيذ وأنواع أخرى من الخمور بقيمة تتجاوز الخمسين يورو، والمنتجات الجلدية التي يتجاوز ثمنها مائتي يورو والأحذية التي يتجاوز سعرها ستمائة يورو، حسب مصادر المفوضية الأوروبية". إن سوريا ليست بليبيا، وتدخل عسكري مثل ذلك الذي حصل في ليبيا، لا يمكنه ولأسباب كثيرة أن يتكرر من جديد. ولكن، ووفقا لمطلب رزان زيتونة في المقابلة المذكورة سابقا، „يتوجب حماية السوريين، ويتوجب إيجاد بدائل وحلول لحماية الشعب السوري، والخلاص من هذا النظام". لكن هذه الحماية لا يمكن، بالنظر إلى الواقع الحالي، تحقيقها بالكلام ولا عبر العقوبات التي لا تؤثر فعلا بالنظام. فحماية الشعب السوري تتطلب التدخل في الأحداث أو تزويد من يتوجب حمايته بالوسائل التي يحتاجها لحماية نفسه.

نعلم أن الكثير من الناس في سوريا متردد في الانضمام إلى الثورة، لأنه يشعر بالخوف من المستقبل. وهناك أسباب كثيرة تقف خلف ذلك. فأن لا يكون كل إنسان قد خلق للثورة، أمر أدركه ألبير كامو والذي حمّل الإنسان الثوري مسؤولية خاصة: "إن الحرية لم تتم بالقدر نفسه الذي نما به وعي الإنسان بها. ويمكن استخلاص أمر واحد من هذه الملاحظة، وهو أن الثورة فعل الإنسان الواعي بحقوقه. لكن لا شيء يخول لنا أن نقول بأن الأمر يتعلق بحماية حقوق الفرد فقط. بل العكس هو الصحيح، إذ يظهر أن الأمر يتعلق بوعي ذاتي يتسع باستمرار، ويبلغه الجنس البشري في مغامرته التاريخية الطويلة." إن الثورة تصبح بالنسبة لكامو «بديهية أولى» وهي أساسية مثل الكوجيطو بالنسبة لمعرفة الذات عند ديكارت. لذلك يتقمص كامو عبارة ديكارت ليكتب: „أنا أثور، إذن نحن موجودون". فالإنسان في الثورة يثور أيضا للآخرين، واحتجاجه يتجاوز الفرد، أو يتجاوز ذاته. وهكذا نفهم تصريح زيتونة الذي سردناه سابقا : "إنها جائزة لكل السوريين ولثورتهم".

إرادة الحرية لم يبدأ نشاط رزان النضالي مع اندلاع الثورة. لقد نشطت في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان قبل فترة طويلة من بدء الاحتجاجات الشعبية في مارس ٢٠١١. ولكن عند هذه النقطة بالذات مع انتقال الاحتجاج من الفردي إلى الجماعي يكمن الجوهر الغامض في الثورة في سورية وفي البلدان العربية الأخرى، حيث خرج الناس للإحتجاج ضد الظلم. وفي كل مرة نوّه المراقبون بأهمية وسائل الإعلام الاجتماعية في هذا السياق. وهذا بالطبع صحيح. لكن وسائل الإعلام هذه، ما هي إلا الوسيلة التي عبر بها الناس عن عزمهم العميق على تجاوز النظام القائم. إنه اليقين بأن مرحلة قد انتهت، وإن حاول الحكام، بكل الطرق، إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء. وخلافا للتطورات التي عرفها العالم العربي في خمسينيات وستينيات القرن المنصرم، والتي كان يقف خلفها أفراد أو فئات محددة، خصوصا من العسكر، فإن الثورة الجديدة خرجت من رحم الشعب. «نحن الشعب». هذا الشعار المعروف لدينا، وحّد في صيغ مختلفة، خلال الاحتجاجات، رجالا ونساء من فئات دينية وإثنية مختلفة. ما الذي يوحدهم؟ ما الذي يمنحهم القوة للخروج على الطغاة الذين عقدوا العزم على استعمال كل أنواع وسائل القمع ضد الشعب؟ رزان زيتونة قدمت الجواب عن هذا السؤال: "لا شك أن المحتجين وأن الثورة سينتصرون في النهاية. ولو لم نكن نعتقد بانتصارنا لما استطعنا الاستمرار في مواجهة وحشية النظام. أنا متأكدة بأن كل السوريين متأكدين من نجاح الثورة في النهاية". إن الناس يشعرون بأن التاريخ إلى جانبهم. ونضالهم توسع من نضال فردي إلى قضية وطنية.

وفي هذا السياق أعيد طرح السؤال: هل اعترفنا وأعني الجيران الأوروبيين بأهمية ما يحدث عند جيراننا العرب؟ وكنت قد أشرت أعلاه إلى الأصل المشترك بيننا والمتمثل في السعي نحو الحرية. فما هو الشكل الجديد للقاء بيننا وبين جيراننا والذي يتناسب مع هذا الإدراك؟ إن التاريخ غير مشجع في هذا الباب. فمنذ أن تواجهت أوروبا والعالم العربي في نهاية القرن الثامن عشر، في إطار ما عرف بالتوسع الأوروبي أخذت هذه المواجهة اسما: (The white man’s burden) أي: عبء الرجل الأبيض (La mission civilisatrice) أو: مهمة تمدين الشعوب.

بل وحتى بعد الحرب العالمية الأولى زعم الأوروبيون بضرورة حماية الدول العربية من أجل الإنتقال بها من التخلف الحضاري إلى الحداثة الأوروبية. أما السياسة الأوروبية إزاء منطقة البحر الأبيض المتوسط في العقود الأخيرة، فقد حرصت في تخوف على المحافظة على الوضع القائم. ولهذا قامت بدعم الأنظمة القائمة بدلا من دعم قوى الديمقراطية. ونظرت أوروبا إلى تجاهل حقوق الفلسطينيين وقمعهم دون أن تحرك ساكنا، وقبل سقوط بن علي بثمان وأربعين ساعة، عرضت وزيرة الخارجية الفرنسية عليه تقديم مساعدة أمنية لمواجهة المظاهرات. لكن الناس الذين ثاروا في العالم العربي منذ السابع عشر من ديسمبر ٢٠١٠ لم يطلبوا الإذن من أوروبا، بل قاموا بذلك دون أوروبا. ولو أنهم طلبوا مساعدة من أوروبا، لما تلقوا منها شيئا. ولهذا يتوجب على أوروبا استعادة مصداقيتها، لأن تلك خطوة أساسية في سبيل تحديد جديد لطبيعة لقاءنا. فهل سيقامر الغرب بهذه الفرصة في سورية كما يفعل في فلسطين؟ وعلى أي حال، فإن النزاع الأخير في غزة يؤكد بشكل لا يقبل الشك بأن الاتحاد الأوروبي، وبالنظر إلى التغييرات التي يشهدها العالم العربي، لم يعقد العزم بعد على استعادة مصداقيته في علاقته مع جيرانه. ليس مهما في هذا السياق من بدأ بإطلاق النار والقتل في الأيام الأخيرة. ومن البديهي أن تدافع دولة عن نفسها إذا هوجمت. لكن إذا كان رجال السياسة يحددون بشكل قاطع أن إسرائيل تملك كل الحق في الدفاع عن وجودها، فإن عليهم أيضا في هذا السياق التأكد وبنفس القدر من التزام إسرائيل بمبادئ القانون الدولي والمبادئ الإنسانية. لكن لم يتحقق في هذا السياق وعلى مدى سنين أدنى تقدم، بل أضحت ممارسات الاحتلال ومصادرة الأراضي والحط من كرامة الفلسطينيين من طرف المستوطنين الذين تحميهم وتدعمهم الحكومة الإسرائيلية الحالية، أكثر منهجية. ومرة أخرى غضّت أوروبا البصر. لكن العنف يولّد العنف. وشكل انسداد الأفق وامتهان الكرامة الأرض الخصبة لانتفاضة الشباب العربي من المغرب في الغرب وإلى اليمن والبحرين في الشرق، وإلى سورية أيضا. وهي الأسباب نفسها التي تقف خلف عنف الفلسطينيين ضد سلطة لا تحترم القانون إلا قليلا وبالأحرى إلا بشكل انتقائي شأنها في ذلك شأن الثيوقراطيات العربية. وقد سبق لفريدريش شيلر أن أشار إلى وجود علاقة وطيدة بين الكفاح من أجل التحرر من قمع الطغيان والكفاح للتحرر من سلطة أجنبية وذلك في كتابه: «تاريخ تحرر هولندا المتحدة من الإحتلال الإسباني»، مؤكدا بأن „المواطن اليائس، الذي لم تترك له إلا حرية الاختيار بين موتين، يختار الموت النبيل في ساحة القتال. والشعب الثري والمرفه الذي يحب السلام، سيحارب عندما يصبح فقيرا. ولن يرتعد منذ اليوم من أجل حياة تفتقد إلى كل شيء تجعل المرء يتعلق بها". إنه لأمر مخجل أن الحكومة الألمانية، التي تمثل شعب فريدريش شيلر، لم تدعم الفلسطينيين في الطريق الوحيد المتبقي لهم نحو الحرية وبناء الدولة، داخل أروقة الأمم المتحدة، رغم أن عشرات الدول صوتت لصالح الفلسطينيين. إن وصمة العار هذه سنحملها معنا أمام كل الشعوب التي تنشد الحرية وخصوصا أمام جيراننا في البلدان الإسلامية.

معنى الجائزة نقدم لرزان زيتونة جائزة ابن رشد. هل نفعل ذلك كما هو الحال في كثير من الجوائز السياسية خصوصا من أجل التأكيد لأنفسنا على القيم التي نؤمن بها؟ إذا ما كان لحفل تقديم جائزة من معنى، فلن يتحقق إلا إذا اقترن ذلك بأفعال وليس بأقوال فقط، وذلك حين نلزم أنفسنا بأن نتصرف وفقا لمعنى الجائزة والحائز عليها. فحين نكرّم زيتونة، فعلينا أن نكون مثل رزان زيتونة. إذ لا يمكننا أن نقف متفرجين على كفاح الشعب السوري من أجل إنهاء حكم الاستبداد كما نفعل ذلك أمام كفاح الشعب الفلسطيني من أجل إنهاء الاحتلال الغاشم.

كيف لأوروبا أن تسترجع مصداقيتها؟ الجواب هو: يجب علينا أن نغير نظرتنا. إن المطلوب هو نظرة شاملة، وهو ما يعني ضرورة أن نعترف بأن مستقبل المجتمعات العربية وجيراننا في الشرق الأوسط هو جزء من مستقبل أوروبا، فوضع أوروبا في النظام العالمي للقرن الواحد والعشرين سيرتبط جوهريا بطبيعة العلاقات التي ستبنيها مع الأنظمة الجديدة، والتي ستقوم في العالم العربي بما فيه فلسطين. اعتمدنا لوقت طويل نظرة إقصائية، كانت الشعوب العربية دائما فيها هي الآخر. وقد تأثر تفاعلنا بها بمخاوفنا المرضية من عدم الاستقرار، الهجرة غير الشرعية والتطرف الإسلامي والمقاومة المسلحة ضد إسرائيل. لهذا لم تحلّ القضية الفلسطينية. أما النظرة الجديدة والتي ستكون شاملة، فتشترط الدخول في حوار مع أولئك الذين يضفون الشرعية على القيادة السياسية. إنهم الشعب. فلوقت طويل دعمنا العلاقات مع أولئك الذين ادعوا لأنفسهم الشرعية، دون العودة إلى الشعب وأحيانا حكموا ضده.

أما فيما يتعلق بالمستقبل القريب في سوريا، فكل شيء يرتبط بنهاية النظام الحاكم قريبا. وكل يوم آخر في عمر هذا النظام لا يزيد فقط من عدد الضحايا بل يوسع الهوة وينشر الحقد أكثر بين السوريين. إننا ندين الآجندة القذرة لأولئك الذين يضاعفون آلام الشعب السوري بعملياتهم الإرهابية التي ينفذونها باسم حرب التحرير. لكنهم لن يستطيعوا تحديد مسار التاريخ.

إن الشعب في سورية يحتاج إلى نشوء أفق نظام جديد، يشمله كله. ويجب أن يترافق نشوء هذا النظام مع المصالحة. فلنصغ مرة أخرى إلى الشاعر فريدريش شيللر وما قاله في «فيلهِلم تِل»: „ليكبح كل فرد غضبه المشروع / وليضح بالثأر من أجل الجماعة!/ فإن السرقة بحق الصالح العام يرتكبها / من يخدم نفسه في مصلحة خاصة". إن المصالحة شرط لا محيد عنه من أجل تحقيق بداية جديدة.

وأملنا في هذه الليلة أن يضع الناس في سورية، «الكل» و «الصالح العام» فوق «مصالحهم الخاصة». هذه الأمور تجتمع في شخص مثل رزان زيتونة، التي نكرمها هنا الليلة. فقد كرّست حياتها على مدى سنوات عديدة «للصالح العام» ومن أجل الحق في الكرامة الإنسانية والحرية، وجعلت ذلك فوق اهتمامها بنفسها. لم تتمكن هذه الليلة من التواجد معنا، لأن عليها أن تتخفى بسبب نضالها من أجل الصالح العام. وعندما تظهر من جديد ـ ومعها كل أولئك الذين كان عليهم الاختفاء ـ فهذا سيكون علامة بأن حقبة جديدة في سوريا قد بدأت وهي علامة أيضا على أن مستقبلنا يقوم على القيم الأساسية نفسها، غير القابلة للاجتزاء، والتي نحن كلنا، ودون استثناء، ملزمون بالمحافظة على صلاحيتها.

أودو شتاينباخ عضو مجلس إدارة مجلة «فكر وفن»، وباحث ومستشرق ألماني معروف.

هذا النص كلمة تكريم لأودو شتاينباخ بمناسبة حصول الناشطة الحقوقية السورية رزان زيتونة على «جائزة ابن رشد للفكر الحر».

ترجمة: رشيد بوطيب

لم يبد لنا الشعر الشرقي الكلاسيكي حتى الآن منمقًا إلى هذا الحد؟ الأمر يرجع في هذا الصدد إلى الترجمات. إذ أن الترجمات إلى الألمانية لا تزال تسترشد بالقرن الثامن عشر، حين بزغت الأسطورة بأن الشعراء الإسلاميين بمثابة عباقرة إحساس وجدانيون ورومانسيون.

شتيفان فايدنر STEFAN WEIDNER

روح العصر

ترجمة الشعر الشرقي ـ الإسلامي



هل مـازال هناك من يعرف تلك الملاحم، التي يُفترض أنها سلتية قديمة زُعم أنها من أعمال المؤلف الأسطوري أوسيان؟ المؤلف الحقيقي لتلك الملاحم هو ماكفيرسون الاسكتلندي الذي ادعى ترجمتها. ولكن بسبب ذلك التضليل على وجـه التحديد، حققت أشـعار أوسـيان نجاحا ساحقا في القرن الثامن عشر. ويعد هذا المثال مثير للاهتمام إلى حد كبير، حيث تتكشف فيه الترجمات بالشكل المفترض أن تكون عليه دوما: ادعاء، مشكوك فيه إلى حد كبير، بأحقية الدخول إلـى عالم آخـر وأجنبي وجديد. إذا ما انطلقنا من المفهوم الساذج للترجمة كقناع لغوي حديث لجسد أدبي أجنبي، فسنجد أننا لا نمتلك في مثال أوسيان، سوى القناع.

فلنظل إذن فـي القـرن الثامن عشر المثير للدهشة. إن المستشرق الفرنسي أنطوان غالاند، الذي عمل لفترة طويلة بالمفوضية الفرنسية في اسطنبول، عاد إلى باريس وفي جعبته مخطوطة لـروايات ألف ليلة وليلة. اتجه غالاند إلى ترجمتها وفقا للتيار الأدبي لعصره ـ وهو أسلوب ترجمي اتُهم فيما بعد بلفظ belle infidèle أو المرأة غير المخلصة.

وبالتالي نجد أن قصص ألف ليلة وليلة تعد مثالا آخر حذا حذو أوسيان. ونلاحظ في هذا الصدد أن النجاح الساحق الذي حققته الأساطير في جميع أنحاء أوروبا يرجع في الواقع إلى طبيعة الترجمة التي تستند إلى زمن محدد. فإذا ما كان غالاند قد أقدم على ترجمة قصص ألف ليلة وليلة على النحو الرصين «المخلص»، الذي قدمت به كلاوديا أوت ترجمتها في عام ٢٠٠٤، لكان بإمكاننا أن نتأكد أن قصص ألف ليلة وليلة لم تكن لتحظى بذلك الاستقبال الـذي حظت به بالفعل ـ تماما مثلما نفتقر في الحاضر إلى تقدير ذلك الأسلوب الترجمي الذي اتبعه غالاند ومعظم خلفائه، وهو ما عبر عنه بورج بوضوح في مقاله حول مترجمي ألف ليلة وليلة. أما التساؤل بشأن أفضلية أسلوب من الأسلوبين على الآخـر، فيتعلق فـي جوهره بالهدف من الترجمات وما تعمل على تحقيقه.

يجب أن يُؤخذ في الاعتبار أن روايات ألف ليلة وليلة نصوص تصبغها بالبساطة اللغوية إلى حد ما. وإنه لأمر مفروغ منه أن تلعب الصيحات الأدبية والتوقعات اللغوية دورا أكبر بكثير في الترجمات الشعرية. قياسا على ترجمات ألـف ليلة وليلة يسعنا أن نفترض أن الشعر الشرقي في اللغات الغربية تم موائمته للقراءة على نحو لا يتشابه كثيرا مع النص الأصلي بقدر ما يتشابه مع سياق اللغة المستهدفة. وإنه ليس من قبيل الصدفة أن ينتعش الاستقبال الأدبي للمشرق في نفس الفترة وعلى أيدي أولئك الأبطال الذين سقطوا فريسة لتزوير أوسيان. فكلاهما يمثل بداية الانتفاضة ضد نزع السحر عن العالم وضد الانتقاص من قيمة العاطفة لصالح العقل.

لـقـد كـان مصطلح «الـتـعـاطـف» هـو الكلمة السحرية التي صاغها هيردر في هذا السياق. حيث ظن هيردر أنه قد لمس أصالة تلك العاطفة الحقيقية في أشعار الكتاب المقدس، كالتي لمسها في قصائد أوسيان. وتحول الشعر إلى «لغة الأم» للجنس البشري، استنادا لإحـدى مصطلحات يوهان جيورج هامان الشهيرة. واعتُبرت شعوب المشرق في هذا الصدد بمثابة مصادرا للأصالة، لا يُعلى عليها. وضمن تعليق على مجموعته من الأغـانـي الشعبية، صاغ هيردر الأمـر على هذا النحو: „إن مقدار الأشعار والكنوز الشعرية التي تزخر بها تلك النزعة الغوغائية ويختبئ في طيات جنون الأساطير والتراث واللغة والعادات وغرائب كافة الهمج، يفوق أية شعريات وموشحات دينية في كافة العصور: إنني لموقن، أن من يُقدم على جمع تلك الأنـمـاط من الهوس، ومـن القصائد،



قبور السعديين، مراكش
Photo: Stefan Weidner

ومن الأوهام والأحكام المسبقة، من بين جميع الأمم، بشيء من الإدراك العملي: لسوف يُسدي خدمة للعقل البشري، لن تُسديها له في الغالب العشرات من المنطقيات والجماليات والأخلاقيات والسياسات".

لا يسعنا تخطي تلك الإشارة المناهضة للتنويرية التي اختبأت في طيات هذا التصريح. فهو ينطوي على جانبين. أحدهما واجهة جميلة، تتمثل في حماية هيردر لأية أشعار أجنبية من مواجهة نقد يميل إلى تعصب عقلاني أو غيره من التعصبات. وهو بذلك، يفتح مجال مواطنة أمام الشعر الأجنبي، وإن بدا غريبا أو مبهما لبعض الأشخاص. ولذا تعين جمع الأشعار دون تحيز، بما في ذلك تلك التي لم تخلو الأحكام المسبقة. وهذا ليس سوى بداية لانتهاء التفوق العرقي. إلا أن هذا الانفتاح له ثمن، ويتمثل في الخلفية المظلمة لذلك التصريح. فكل شعر لم ينبع من المجال الثقافي الأوروبي يتعرض لخطر وصمه „بكافة أنماط الهوس"، وذلك بمجرد دخوله ذلك المجال الذي تفتح على يد هيردر. رغم أن الشعر الأجنبي قد أصبح بذلك موضعا للترحيب، إلا أنه، وفي الوقت نفسه، قد تم حجبه عن المشاركة في التعقل الغربي. حيث بات الغرب مسئولا عن العقل، والمشرق عن العاطفة.

ونرى من خلال ذلك أن هيردر يكاد يكون قد وجد ذخيرة هجومه على „المنطقيات والجماليات والأخلاقيات والسياسات" العقلانية في أي موضع. إن الكتاب المقدس من شأنه كذلك أن يكون مسؤولا عن العاطفة، مثله مثل «الهمج» أو قصائد أوسيان، التي لم تتفتح بعد باعتبارها مادة مزورة، أي بعبارة أخرى السلتية. فقد تحول مشرق الشعور إلى استعارة، ظلت صفتها المجازية في كثير من الأحيان متوارية ومختلطة حتى الآن بالمعنى الحقيقي للكلمة، كموقع جغرافي وثقافي.

اعتُبر نشيد الإنشاد المنسوب لسليمان نموذجا للشعر الشرقي وعلى ذلك لغة أم للجنس البشري، وهو ما تحول في هيئة ترجمة هيردر إلى تجسيد لشعر المشرق ككل. وربما ترجع جذور ذلك الجانب المنمق، والذي لازال يُنسب للشعر الشرقي إلى ذلك. فلقد كتب في تعليقه: „ربما أرسلت تلك التنهدات مع زهرة متلهفة أو وردة صباح عطرة"حيث أن „إرسال شعوب المشرق لمثل هذه الرسائل ومراسلات الحب داخل هدايا من الزهور، هو أمر معروف لدينا من خلال رسائل مونتاغو وغيرها".

وليُصبح لدينا فكرة حول مدى افتقار «تعاطف» هيردر إلى المنطق، يجب أن نضع نصب أعيننا أن نشيد الإنشاد قد كُتب في وقت ما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، وأن الليدي ماري وارتلي مونتاغو، التي يشير هيردر إلى خطاباتها، قد توفيت عام ١٧٥٢. يُضاف إلى ذلك النص موضع الجدل يرجع إلى رسالة حب تركية تعود إلى تلك الفترة التي تميزت بالهوس بالزهور وعُرفت باسم عصر زهرة التيوليب في بداية القرن الثامن عشر باسطنبول.

إن الزهور لعبت بالفعل دورا في نشيد الأناشيد وربما كان ذلك كافيا لاستيعاب افتراض اللغة المنمقة، إذ كان بمثابة اتهام لحق بشعر المشرق، إلا أنه يُشير فيما بعد إلى اللغة الغنية بالصور والمتشبعة بالاستعارات. ولكنه من الواضح أن هيردر لم يكتف بذلك. وكأنه افتتح متجرا كاملا من الزهور من خلال تعليقه على نشيد الإنشاد. ذلك لأن الطبيعة، كما هو معروف، قد عملت على خدمة الأدب المناهض للعقلانية وبشكل لا يقل عن الشعر.

وإن لم يكن الشعر الشرقي ـ الإسلامي منمقا، فما هو إذن؟ حينما بدأ اهتمام أوروبا الوسطى به، كان تاريخ الشعر الشرقي ـ الإسلامي قد امتد بالفعل إلى الألف عام، وذلك من خلال ثلاثة لغات ثقافية عظمى: العربية والفارسية الحديثة والعثمانية ـ التركية. وليس المرء بحاجة لقراءة أي أبيات منه ليدرك أن تلك الظواهر الأدبية التي امتدت على مثل هذه الفترات الزمنية الطويلة وعلى مناطق جغرافية مترامية الأطراف من أسبانيا وحتى نيو دلهي، لا يجوز وصفها من خلال بضع تعبيرات طنانة وشعارات.

دعونا نتناول شعر حافظ للمزيد من الشرح والإيضاح. تقتصر معرفتنا بأشعار حافظ، بشكل عام، على الديوان الشرقي للمؤلف الغربي لغوته، حتى وإن خلا من نصوص أصلية لحافظ، فيما عدا من بعض الاقتباسات.. حتى أن أولئك الذين سبق وقرءوا ترجمات حقيقية لأعمال حافظ (هناك العديد، ولكن أيا منها ليس منتشرا على نطاق واسع) لن يريدوا بالكاد أن يزعموا معرفتهم به استنادا إلى هذه الأعمال. وإن حدث ذلك، فيُجوز لنا أن نتهمهم بالسذاجة. إذ ليس بالإمكان تقييم أعمال حافظ دون الإلمام بالفارسية، إلا إذا قُورنت عدة ترجمات جنبا إلى جنب على تعدد لغاتها وعصورها. فإذا ما اتجهنا حينئذ إلى مقارنة أعمال حافظ بالتيارات الأدبية التي مهدت الطريق لاستقباله، لأصبنا بالدهشة.

هل ينتمي حافظ إلى عصر العاطفة؟ إلى عصر العاصفة والاندفاع؟ أم إلى عصر الرومانسية؟ سواء في أعمال حافظ أو في الأمثلة القليلة الأخرى للشعر الشرقي التي تُرجمت في ألمانيا في ذلك القرن الحاسم، ما بين ١٧٦٠ ووفاة فريدريش روكرت في عام ١٨٦٦، فإن كلاهما لا يُشير إلى تداخل أو تشابه واضح مع التيارات الأدبية الألمانية السالف ذكرها. بل إن شعر العصور الإسلامية الوسطى يشبه بالأحرى تلك القصائد الشعرية التي حاول شعراؤنا في ذلك الوقت أن ينأوا بأنفسهم عنها، من الشعر الباروكي والمتكلف. إن الشعر الشرقي، ولا سيما شعر حافظ، ليس بعاطفي أو وجداني. حيث أن مفهوم الذات أو الأنا الأدبية في الشعر الشرقي ليس له أدنى علاقة بما تتميز به أشعارنا منذ القرن الثامن عشر.

الشعر الأجنبي المترجم إلى الألمانية بالمقارنة مع أشعار حركتي العاصفة والاندفاع والرومانسية، تتجه الأشعار الفنية الشرقية، وتتمثل ذروتها في أعمال حافظ، إلى أسر

الشاعر داخل قيود من القواعد التقليدية. فلا تتجلى العبقرية الشعرية بعنفوان وفردية بل من خلال تحرك الشاعر ببراعة في إطار من الضوابط، وكأنه لا وجود لتلك القيود. لقد امتثل الشعر في لغات الإسلام حتى القرن العشرين إلى ضوابط شعرية قياسية، أهملها هيردر في طعنه الموجه ضد «الشعريات والموشحات الدينية» بشكل يكاد يتزامن مع اكتشاف ذلك الشعر. لا نجد في الشعر الشرقي الكلاسيكي سوى القليل مما يُشير إلى التجديد والانطلاق و إلى الثورة الأدبية، حتى وإن أشارت الترجمات لذلك أو قُرأت في هذا الصدد.

إن قدرة الشعر الشرقي بشكل عام، وشعر حافظ بشكل خاص، على الاندماج في الأدب الألماني ما بين العاصفة والاندفاع والرومانسية المتأخرة، يرجع إلى اثنين من العوامل لا علاقة لهما البتة بالأعمال الأصلية. أحدهما ما يسمى بالاقتلاع الثقافي. حيث أن سياقات تلك الأشعار الأصلية تكاد تكون معروفة، مما يفتح المجال بشكل خاص أمام تعدد التفاسير. فينستطيع أن نفعل بها ونقرأ فيها ما نشاء، ولا يسعها الدفاع عن نفسها.

أما العامل الثاني الحاسم في مسألة استقبال شعر حافظ والشعر الشرقي، يتمثل في الترجمة نفسها. حيث أن وقوعها في مجال التيارات الأدبية المذكورة وفي طي ذلك الانقسام ما بين العاطفة والعقل الذي أطلقه هيردر، يُمثل خطورة بالغة على استقبال الأدب الشرقي والدوائر الثقافية الإسلامية في ألمانيا.

إن محاولة المترجمين القلائل للأدب الشرقي ملائمة المادة الترجمية لتصبح قابلة للقراءة في إطار روح العصر ومن قبل مجتمعهم اللغوي، وكذا تكييفها والتلاعب بها، أمر لا يمكن تجنبه. وإنه لمن غير التاريخية اعتبار تلك المواءمة اتهاما يُقذف به المترجمون. بل بالأحرى ينبغي علينا أن نمتن لاتجاههم للترجمة وفقا لروح العصر. فلو كانوا قد حاولوا ترجمة الشعر الشرقي مثلما ترجم هولدرلين الأعمال الإغريقية، لما وجدت أعمالهم أدنى صدى، وهو ما حدث مع هولدرلين. ولظل ذلك المجال الذي افتتحه هيردر من أجل الشعر الأجنبي المترجم إلى الألمانية، غير القابل للمقارنة، غير مطروق.

على الرغم من صحة استنادنا في تصورنا حول الشعر الشرقي إلى تلك الحقبة، على الرغم من أنه تشوبه في كثير من الأحيان بعض البساطة والتشويه. إلا أن مسؤولية عدم تحول وصقل ذلك التصور، كما حدث مع أعمال شكسبير على سبيل المثال، تقع على عاتق جيل الأدباء والمترجمين والمستشرقين، الذين جاءوا بعد ذلك ولم ينجحوا في تحقيق ما تميز به المترجمون الأوائل: ألا وهو الارتقاء إلى مستوى عصرهم ولغة حاضرهم الأدبية.

إذا كان من الممكن ترجمة أعمال حافظ إلى لغتي العاصفة والاندفاع والرومانسية، فإنه من الممكن أيضا ترجمتها إلى لغتي التعبيرية أو الموضوعية الجديدة. إذ أن حافظ شاعر، كان ليلاءم الطليعة الفييناوية بشكل جيد للغاية، حيث أن ألعابهم اللغوية في الألمانية هي الأقرب مقارنة بتلك الخاصة بهانز كارل آرتمان أو راينهارد بريزنيتس. أما عن عدم تحقق مثل ذلك الاستقبال، فهذا يعود من ناحية إلى عدم إجادة شعراؤنا من مرحلة ما بعد الحرب، لأي من لغات العالم الإسلامي. ومن ناحية أخرى، لم يتجه أحد من مستشرقينا إلى تبني أشعار عصرنا ولغتنا الأم حتى ولو بشكل مبدئي، أو الاستلهام منها.

في مقابل ذلك، نجد أن اتجاه أولئك المترجمين والمستشرقين إلى الاسترشاد بالأسلاف ذوي الصبغة الكلاسيكية والرومانسية، كما يتضح بجلاء في أعمال كل من أنيماري شيمل ويوهان كريستوف بورجل، له سبب وجيه. حيث أن ذلك الشكل الترجمي الذي طُور آنذاك، هو ذلك الذي التقوا في طياته بالشعر الشرقي باللغة الألمانية؛ وهو أيضا حيث التقوا بالشعر على الإطلاق. ألا تعطينا تلك الصرامة الرسمية في الشعر الشرقي، الحق في البحث عن السند لدى الكلاسيكيين وسادة الأشكال الأدبية لدينا؟ وألم يتسبب قدم ذلك الشعر في جعل ترجمته إلى لغة كلاسيكية أكثر قدما أمرا غير ضروري؟ إنه لأمر مفروغ منه، أن تلك اللغة الكلاسيكية المفترضة، التي تُترجم إليها حتى الآن الأشعار الشرقية الأكثر قدما، ما هي إلا استنساخ، لا حياة فيه، للغة عصورنا الكلاسيكية والرومانسية. وقد نتج عن ذلك تشوه تجلى منذ سنوات قليلة في تلك المجموعة المختارة من شعر الحب الشرقي، التي يظهر طابعها المنمق في عنوانها: ذهب على لازورد.

ولا يسعنا أن نلوم من يعتقد في ضوء هذه النصوص أنه يفتقر إلى الاهتمام بالأدب الشرقي. فمن جهة أخرى برهن العالم اللغوي الإنجليزي ـ الفرنسي منذ فترة طويلة على إمكانية ترجمة الشعر الإسلامي الكلاسيكي ترجمة عصرية. وإذا ما خلت بلادنا من الترجمات المعاصرة التي تمثل ذلك الشعر، فإن ذلك لا يجوز أن يُعزى إلى المترجمين والمستشرقين ودور النشر المترددة والمتخوفة فحسب: فهو يُظهر لنا أيضا، مدى افتقار بلادنا حتى الآن إلى التشابك والتواصل بين فقه اللغة والأدب الحيوي والفضول الفكري، على عكس عصرنا الكلاسيكي.

شتيفان فايدنر رئيس تحرير مجلة «فكر وفن».

ترجمة: هبة شلبي



طفلة على أرجوحة، احتفالات النوروز، كابول
من معرض: Augenblick Afghanistan,
Völkerkunde Museum, München.
Photo: Najibullah Musafer

في دراسته لشعر المنفى العربي يعرض لنا شتيفان ميليش تجارب المنفى للكتاب الفلسطينيين والعراقيين بأسلوب مفصل، وذلك من خلال بحث الأعمال الشعرية لشعراء المنفى من العرب بأسلوب مقارن.

لانا مجافيا LANA MZHAVIA

شعرية الغربة لشتيفان ميليش

تجارب فلسطينية وعراقية

إن الحروب والحروب الأهلية والنظم الدكتاتورية والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية؛ تعد هي الأسباب التي دفعت الآلاف من البشر في العالم العربي إلى اختيار المنفى. لا سيما المثقفين هم من وجدوا أنفسهم مرغمين على مغادرة أوطانهم الأصلية والبحث عن عوالم جديدة وغريبة عليهم. إن الشعر، والذي لا يزال يتمتع بشعبية كبيرة في العالم العربي، يعبر عن تجارب الغربة للأشخاص في المنفى من خلال تصاوير مثيرة للإعجاب. تتناول أطروحة «شعرية الغربة» لشتيفان ميليش الأعمال الشعرية لأربعة من شعراء المنفى المعاصرين من العرب: زكريا محمد (مواليد ١٩٥١) وغسان زقطان (مواليد ١٩٥٤) من فلسطين، بالإضافة إلى سعدي يوسف (مواليد ١٩٣٤) وكمال سبتي (١٩٥٥ إلى ٢٠٠٦) من العراق. وكما يشير الكاتب، يمتلك هؤلاء الشعراء مفاهيم شعرية شديدة الاختلاف حول المنفى. وهو يرى أن ما يُسمى بـ «شعرية الغربة» التي قاموا بتطويرها تعد بمثابة سمة مشتركة بينهم.

كيف يعيش المرء في الغربة، حين تختفي نماذج التوجيه القديمة وتؤول الأنا المحطمة إلى الحيرة والضياع؟ كيف يتغلب المرء على أزمة الهوية التي ترتبت على ذلك؟ كيف يكون الأمر، أن يحيا كشاعر عربي بارز على حافة مجتمعات البلدان المستقبلة؟ إلى جانب تلك الجوانب السلبية للمنفى، لا يزال هناك تساؤل حول جوانب الإثراء الكامنة في المنفى. حيث أن التقاء الثقافات الأجنبية والعوالم اللغوية من شأنه أن يكون دافعا للكتابة، وعامل إثراء يصب في صالح النشاط الإبداعي. كما أن الدافع وراء السفر يلعب دورا بارزا في تجارب المنفى. في أعمال كمال سبتي نرى كيف صُورت حياة المنفى مجازا، كرحلة فوق القبور أو عبر جثمانه هو شخصيا. كذلك اتجه الشعراء الثلاثة الآخرون من شعراء المنفى إلى اتباع نفس الأسلوب التشاؤمي في تجسيد المنفى وضياع الوطن. حيث تعكس الصور المظلمة في أعمالهم الوضع الميئوس منه للأنا الممزقة بين التساؤلات.

وللتغلب على ذلك الوضع الوحشي وما يحمله من تأثير مدمر للأنا، يُجرى البحث عبر اللغة عن وطن جديد. وفي أشعارهم ومن خلالها يسعى كتاب المنفى جاهدين إلى خلق عوالم يمكن الإشارة إليها بالعوالم المضادة نظرا لمعارضتها للعوالم الواقعية التي تصطبغ باليأس والفقدان. وبذلك يكون المغترب قد دخل في مرحلة ما بعد المنفى. إلا أن هذا المصطلح لا يفترض دوما انتهاء فترة المنفى. في بعض النصوص المحددة يُفهم هذا المصطلح على أنه شكل جديد من أشكال المنفى، حيث يُشير إلى استمرار تلك الظاهرة. إلا أنه فيما يتعلق ببعض الشعراء لا يسعنا الحديث ولو لمرة عن مرحلة ما بعد المنفى. هذا ما نراه في حالة كمال سبتي، على عكس الشعراء الثلاثة الآخرين الذين تطرقت إليهم الدراسة. حيث لاحظ ميليش أن هذا الكاتب „... ظل حتى وفاته قابعا في مأساة منفاه، وهو ما يُفهم على أنه عقوبة وجودية".

استنادا إلى فئتي المنفى وما بعد المنفى سعى شتيفان ميليش في ختام أطروحته إلى تحديد الأعمال الشعرية والاتجاه الشعري لتحديد الموقع الذاتي للشعراء الأربعة الذين قام باختيارهم، حيث اتجه بإيجاز إلى عرض أشكال كتابية أخرى تشكلت حديثا في إطار الشعر العربي المعاصر. وفي كلمته الختامية عدد ميليش أيضا تلك الخصائص الأخرى لشعر المنفى العربي. حيث يُجسد شعر المنفى العربي كشعر تساؤلي وشعر تذكيري وأخيرا كشعر مقاومة، („يمكن استيعاب شعر المنفى كنوع من الخطابة الشعرية الموجهة ضد الأوضاع السياسية والاجتماعية العليلة في الوطن." كما جاء على لسان ميليش).

إن المعالجة الأدبية للمنفى، وما يرتبط بها من تأملات وانعكاسات حول قضايا الهوية والغربة والتغلب على الماضي ومواجهة الثقافات وأنماط الحياة الأجنبية، قد لعبت دورا ملحوظا في التحديث اللغوي والمضموني للشعر العربي. وهو ما يُكسب شعر المنفى العربي بلا شك أهمية كبيرة في إطار الشعر العربي المعاصر بأسره وكذا في إطار الشعر العالمي.

لانا مجافيا باحثة في الدراسات العربية من جورجيا، وحاصلة على درجة الدكتوراه في الشعر النسائي العربي المعاصر من جامعة فرايبورغ الألمانية.

Stephan Milich: Poetik der Fremdheit. Palästinensische und irakische Lyrik des Exils. Reichert Verlag, Wiesbaden 2009.

ترجمة: هبة شلبي

يستمر معرض «لحظات أفغانية» في متحف الدولة للإثنولوجيا في ميونيخ لغاية ١٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣. وقد نجح القيمون على المعرض في تقديم صورة حساسة تربط الانطباعات اليومية للجنود الألمان بانطباعات المصورين الأفغان من زاوية جديدة كليا.

نورية علي تاني NOURIA ALI-TANI

لحظات أفغانية

الخوف والحنين في بلد ممزق

للمرة الأولى يحاول متحف ألماني عرض موضوع أفغانستان من وجهة نظر الجنود الألمان في جبال الهندكوش. مع أن الجنود يعتبرون حلقة وصل ثقافية منذ القدم ويقربون البلدان البعيدة برسائلهم وتقاريرهم وما يلتقطونه من صور، إلا أنهم بالكاد عبروا عن انطباعاتهم حتى اليوم، على الأقل فيما يتعلق بأفغانستان.

بعد نقاشات داخلية مطولة قرر القيمون على متحف ميونيخ للإثنولوجيا عرض وجهة نظر الجنود أيضا، في خطوة جريئة خاصة وأنه ليس من صميم متحف للإثنولوجيا تركيز نشاطاته على الإشكاليات الآنية. وبذلك نحصل عبر تسجيلات صوتية، مرفقة بصور رسمية ولقطات شخصية، على لمحات مفاجئة في حياة الجنود المقاتلين.

المصورون المحليون إلا أن المعرض لا يتوقف على هذا. حيث أن انطباعات الجنود الأجانب تستكمل بعرض وجهة نظر المصورين المحليين الشباب. لقد كانت نخبة البلاط في أفغانستان مهتمة اهتماما شديدا بالتصوير منذ مطلع القرن العشرين وقام أبناؤها بالتقاط الصور لبعضهم البعض. وبعد استغلاله من قبل السوفييت في البروباغندا السياسية ومنعه كليا في ظل طالبان، يشهد التصوير الفوتوغرافي شعبية متزايدة منذ ٢٠٠٢. وتساهم جهات أجنبية، مع تأسيس مؤسسات الميديا وتنظيم المهرجانات وورشات العمل والمعارض، بقسطها في تأهيل ونشر المادة الصورية. وبهذا جاءت اللقطات المعروضة في ميونيخ أيضا في إطار مسابقة مشتركة للتصوير مع معهد غوته في أفغانستان أعلن عنها مطلع عام ٢٠١٢، حيث كان على المصورين الشباب محاولة ترجمة حياتهم اليومية في صور فوتوغرافية. وهذا المعرض يحمل مفاجأة مختلفة للمراقب المشحون بأفكار مستهلكة يعرفها من وسائل الإعلام عن الحرب والمأساة الأفغانية.

بائع جوال
من معرض:
Augenblick Afghanistan,
Völkerkunde Museum, München.
Photo: Ahmad masood



رجل وزوجته يجلسان
على حافة قبر، أفغانستان
من معرض:
Augenblick Afghanistan,
Völkerkunde Museum,
München.
Photo: Reza Yamak

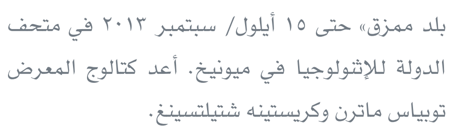
يُختصر معرض لحظات أفغانية في العبارة التالية: لا تحليل، لا سياسة ولا إيضاحات، إنما طرح للأسئلة وتوسيع لزوايا النظر. في مزيج متوازن من وسائل مختلفة للعرض التربوي المتحفي نقترب من أفغانستان العام ٢٠١٢ أكثر فأكثر. ترتيب الفضاء على خلفية من الألوان الأفغانية والمناظر الطبيعية دعوة إلى الغوص في عالم محير ومتشابك جزئيا. وفي محاولة لخلق بعض النظام وتفكيك المعقد كان لا بد من العناوين العريضة على الحائط.

مقنع رغم الإشكاليات كان من المتوقع المزيد من الحساسية حول موضوعة الجندر في اختيار المواضيع والكتّاب في الكتيب المرافق للمعرض خاصة وأن الناشر مؤسسة اثنولوجية.

فلقد بولغ كثيرا في اعتبار وضع المرأة الأفغانية ذريعة وشرعية للتدخل الأجنبي في أفغانستان ولذلك كان لا بد من إبداء المزيد من الاهتمام التفصيلي والمتباين بعوالمها. وعلى هذا المستوى لا بد أيضا من توجيه النقد إلى عناوين بعض الصور أيضا، التي يبدو أنها تهدف إلى تصويب الصورة الغربية عن الإسلام وتطهيرها من الإساءة والانحراف على يد المتطرفين. فلم يكن اختيار بعض الصياغات موفقا، الأمر الذي أثار ردود فعل قوية بين الجمهور.

ومع هذا فالمعرض مقنع. فهو يفتح آفاقا جديدة ويوفر فرصة أخرى للنقاش حول بلد فيه أشياء أخرى كثيرة غير الحرب والفوضى. أفغانستان أرض التناقضات واللايقين، أرض الغنى الثقافي والمناظر الخلابة.

بحلول نهاية ٢٠١٤ ستنسحب كل القوات الأجنبية المقاتلة في أفغانستان. وبعدها سيكون على المجتمع الأفغاني أن يري الجميع مدى قدرته على السير في طريق الاستقرار والسلام وتحمل المسؤولية. وحينها سيحين الوقت لـ «لحظات أفغانية» جديدة.



يستمر معرض «لحظات أفغانية، الخوف والحنين في بلد ممزق» حتى ١٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٣ في متحف الدولة للإثنولوجيا في ميونيخ. أعد كتالوج المعرض توبياس ماترن وكريستيانه شتيلتسينغ.



نورية علي تاني خبيرة في الشؤون السياسية والإسلامية تبحث الوضع الآني في العالمين العربي والإسلامي، وتركز في دراساتها على واقع المرأة الراهن.

ترجمة: كاميران حوج

شتيفان فايدنر STEFAN WEIDNER

قبل أن يأتي الطالبان

الكاتب الباكستاني جميل أحمد يكتب على الحدود بين باكستان وأفغانستان

يصف المواطن الباكستاني جميل أحمد، في قصصه، العائدة إلى عقد السبعينات، العالم المجهول، الذي تقطن فيه القبائل الباكستانية.

وعلى ما يبدو، فإن الأعمال الأدبية مكتوب عليها لعنة التفاوت الزمني: فأفضل المؤلفات تُنشر، عادة، بعد اندلاع الأحداث التي تتناولها، لا بل قد تُنشر، بعد مرور عقود من الزمن، على اندلاع هذه الأحداث. وهناك مؤلفات أدبية تظهر في الساحة في وقت مبكر: فالروايات الباحثة في الثورات العربية، أعني روايات علاء الأسواني، على السبيل المثال وليس الحصر، كان قد جرى نشرها في السنوات السابقة على العام ٢٠١١، علماً بأن المرء في العالم الغربي لم يلحظها ولم ينتبه إليها على مدى زمن طويل. بيد أن جميل أحمد، الموظف المتقاعد المولود عام ١٩٣٣، والكاتب الباكستاني المجهول في عالم الأدب، احتال في هذه الأيام، على هذه اللعنة ونجا منها. وكانت وسيلته تكمن، في الكتابة قبل اندلاع الأحداث، ونشر العمل الأدبي، بعد تبلور هذه الأحداث وظهورها على الساحة بنحو جلي. فلو كان قد نشر قصصه، قبل أربعين عاماً، أي حين ألف هذه القصص، لما كانت قصصه قد حظيت، ولا حتى بشيء من الاهتمام، الذي حظيت به في هذه الأيام. فهذه المؤلفات صارت تتدرج، في الزمن الراهن، ضمن المؤلفات الأكثر رواجاً على المستوى الدولي.

آخر طرف في العالم فالمنطقة التي تشكل آخر طرف في العالم، المنطقة التي يتحدث عنها جميل أحمد، هي الشريط الحدودي الواقع بين أفغانستان وباكستان، هي المنطقة التي كان الكاتب، قد عمل فيها، في سابق الزمن بصفته موظفاً حكومياً، والتي أصبحت الآن المأوى، الذي ينسحب إليه الطالبان، عند الحاجة. إن باكورة أعماله الأدبية، أعني المؤلف الذي صدر في وقت لاحق، بعنوان «الصقر الجوال» (The Wandering Falcon)، يروي علينا، كيف عاش وأحب وفكر المواطنون، في تلك الحقبة من الزمن. وليس ثمة شك في أن هذه الرواية قد نجحت، في تمكيننا، من الإحاطة، ولو بعض الشيء، بفحوى السجال الشديد، الدائر في الزمن الراهن، نعم لقد نجحت الرواية في إحاطتنا علماً بفحوى هذا السجال، وإن عزفت عن إبداء تقييمات معيارية، ما عاد ممكناً الاستغناء عنها، إلا بالكاد، في اليوم الراهن.

وتبدأ أحداث الرواية بأن يختطف شابٌ فتاةً أحبها. وخلال فرار الاثنين تجنباً للوقوع في قبضة مطارديهم، يستقر الفتى والفتاة بجوار موقع عسكري أمامي يقع في منطق قاحلة. ولم يدم الأمر طويلاً حتى رزق العاشقان طفلاً. وحينما عثر المطاردون على الأبوين بعد مرور سنوات كثيرة على فرارهما، قتل المطاردون الفتى والفتاة وتركوا الصبي وحيداً بجوارهما. إن هذا الصبي هو الصقر، الذي صارت „جولته"، خلال مسيرة التاريخ، المادة الرئيسية في هذه الرواية؛ بيد أن الأبطال الحقيقيين ظلوا دائما الآخرين، الذين عثروا على الصبي ورحبوا به وأجاروه كما لو كان واحداً منهم. على صعيد آخر، فإن البلوش، على سبيل المثال، من جملة الأعراق التي تعلن العصيان في وجه الدولة، وذلك لأن هذه تريد، متجاهلة تراث القوم




الكاتب الباكستاني جميل أحمد يكتب حول المناطق الحدودية بين أفغانستان وباكستان
Photo: Fauzia Minallah

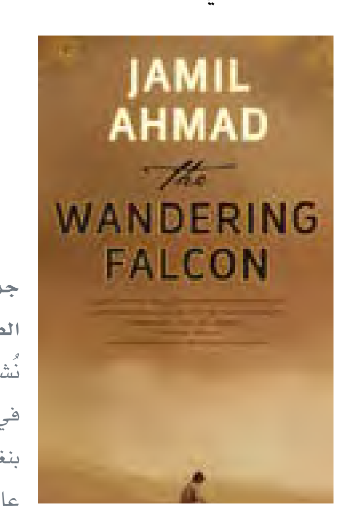
وعاداتهم وتقاليدهم، أن تفرض عليهم رئيساً يدير شؤونهم بحسب التصورات الحكومية.

وانطلاقاً مما درجوا عليه، من ثقة تامة بكلمة الشرف، وثقت الجماعة بمنشور وُزع عليها، يتضمن وعداً قاطعاً بحقها في الانسحاب بحرية وبكل أمان. ولكن، وما أن حطت الجماعة الرحال في المدينة، سرعان ما حَكمتْ عليهم بالإعدام محكمة صورية أثار أسلوبها التعسفي نقمة عارمة. وهكذا، „أسدل الستار على البلوش، وتم الاتفاق على التزام بالصمت المطبق على مشكلتهم وعلى حياتهم وعلى دوافع قتلهم. وما كان هناك صحفي يتجرأ ويخاطر بتحمل عقوبة شديدة بسبب تسليطه الضوء على الظلم الذي تعرضوا له. كما لم يكن أحد، من العاملين في الجهاز البيروقراطي، مستعداً للتضحية بمنصبه. ومهما كانت الحال، فبموتهم مات جزء أصيل من الشعب البلوشي، مات شيء من العفوية، التي كانوا يعربون من خلالها عن حبهم وودهم، مات شيء من لطفهم ومجاملتهم وثقتهم بنفسهم وبالآخرين. إن مجمل هذه الأمور كانت قد عُرضت على المحكمة أيضاً وقضت نحبها حالها في ذلك حال السبعة من الرجال".

وصف لعملية تطبيع تفرض التخلي عن الخصائص القومية بالإكراه إن حديث الراوي، الذي هو المتحدث الوحيد في الرواية، يزيح الستار عن السبب الذي يدفع جميل أحمد لأن يكتب ولأن يلتزم الصمت، في ذات الوقت، على مدى زمن طويل. إن المُؤَلَف الموسوم «الصقر الجوال» يجسد، أيضاً، وصفاً لعملية تطبيع، تريد أن تفرض على مجموعة عرقية معينة، التخلي عن خصائصها القومية، تريد أن تفرض هذا، على مجموعة عرقية، لا صوت، ولا وزن لها أبداً، في هذا المؤلف، كما لا أحد يدافع عنها، ويتحدث باسمها هاهنا. من ناحية أخرى، فإن فكرة الدولة القومية، التي تُعتبر، بكل تأكيد، مكسباً حضارياً عظيم الشأن، تكشف هاهنا ثانية عن وجهها القمعي، وجهها الشمولي. إن الحدود، التي جرى رسمها في القرن العشرين لأول مرة، باعتبارها حدوداً دولية، تفصل بين أفغانستان والهند البريطانية للوهلة الأولى، وبين أفغانستان وباكستان فيما بعد، تمزق، بلا رحمة أو تردد، أوصال المنطقة الحيوية، التي تسكنها تلك القبائل على وجه الخصوص، التي اعتادت العيش بحسب خصائص الحياة البدوية، أي تلك القبائل التي لم تعرف نمطاً للعيش غير نمط التنقل بحسب تغيرات فصول السنة، كما يُخبرنا بذلك الراوي في القصة الموسومة «موت الإبل» (Das Sterben der Kamele)، أضف إلى هذا أن هذه القبائل ما كانت تحتفظ بوثائق وهويات أبداً. إلا أن الحال قد تغير الآن، فهم صاروا مجبرين على إبراز جوازات سفرهم على الحدود الدولية. من هنا، وإذا ما أرادوا المضي قدماً بلا وثيقة رسمية، فسيُقتلون هم وإبلهم بكل تأكيد. وبعدما ينتهي المرء من مطالعة الرواية، فإنه لا يتعجب أبداً حين يرى أن أحفاد أولئك البشر يرفضون كافة أنواع الرقابة والتسلط، ويسعون بكل وعي وإصرار، إلى العثور على حلفاء، يناصرونهم ويشدون من عزمهم.

ولا تنتهي كافة القصص بالنحو المأساوي الذي تنتهي به قصة «موت الإبل». فإحدى هذه القصص مستقاة أحداثها من قصة ماكرة دارت أحداثها في زمن الحرب العالمية الأولى، ولعب البطولة فيها شخص ألماني وآخر بريطاني، كانوا قد راهنوا، على كسب ود القبائل، من خلال إغداقهم الكثير من المال على هذه القبائل، إلا أن القبائل نفذت أساليب ناجحة للوقيعة بينهما. ومن حقائق الأمور، أن المرء قد لاحظ، آنذاك، أن العالم، الذي يجري وصفه هاهنا، كان قد أمسى عرضة للتفكك. وفي سياق هذا كله، لا يُعلي جميل أحمد، أبداً، من شأن الحياة البدوية في المناطق الحدودية الباكستانية، وما تتسم به الحياة في هذه المناطق، من ظروف معيشية فَظّة. بيد أنه لا يُخضعها، أيضاً، أعني الحياة في هذه المناطق المجدبة، إلى عملية جرد تنطلق من المعايير ذات الأهمية المركزية في السجال الدائر حول حقوق الإنسان. إن معاني التراث والشرف واحترام الآباء أكثر تأثيراً في هذا المجتمع من الإسلام. ومهما كانت عظمة وأهمية قوانين الشرف بالنسبة لهذا المجتمع، إلا أن هذه القوانين تظل تتسم بالشفافية والاستمرارية. فما هو خير وما هو شر، وما هو حق واضح وما هو زيف بين، أمور يعرفها كل واحد في المجتمع. فنحن، المؤمنين في حقبة ما بعد الحداثة بأن قيمة ومعنى المعتقدات الإنسانية والسلوك الإنساني ليس لها أي مرجعية مطلقة تقوم بتحديدها. يعترضنا هنا مزاج لا لبس فيه ولا إبهام، مزاج له ـ هو بحد ذاته ـ قيمة جمالية حقاً وحقيقة.

ويكتب جميل أحمد بلغة سلسة، وبأسلوب لا استعلاء فيه ولا إدعاءات باطلة. وتكمن ميزة هذا الأسلوب في الزاوية التي يتحدث منها الراوي، وفي بُعْد هذه الزاوية بالنحو المناسب: فالراوي يتحدث من زاوية بعيدة بمقدار يناسب ضرورة رؤية هذا العالم المتداعي الأركان من الخارج، وقريبة بمقدار يضمن ألا ينشأ اغتراب بين شخوص الرواية والقراء. هذا، وإننا لا نشط كثيراً إذا تكهنا بأن مؤلف جميل أحمد سيظل مدار اهتمام القراء حتى بعدما يعود السلام إلى حدود باكستان ثانية في يوم من الأيام.



جميل أحمد
الصقر الجوال
نُشرت للمرة الأولى عام ٢٠١١ في دار ريفرهيد بوكس (مجموعة بنغوين) وصدرت ترجمتها الألمانية عام ٢٠١٣ في دار هوفمان وكامبه.

شتيفان فايدنر رئيس تحرير مجلة «فكر وفن».

ترجمة: عدنان عباس

مجلة «فكر وفن»
عدد ٩٩، السنة الحادية والخمسون ٢٠١٣

الناشر: معهد غوته
إدارة التحرير:
شتيفان فايدنر
هيئة التحرير:
شتيفان فايدنر، أحمد حسو

المراجعة اللغوية:
أحمد فاروق، أحمد حسو

الإخراج الفني: ميشائيل كروب، بون

الديجتال والصف والإخراج الفني:
م. أمين المهتدي
المهتدي للتصميم والنشر، برلين
aminmohtadi@hotmail.de

عنوان الناشر:
Goethe-Institut e.V.
Dachauer Str. 122
80637 München, Germany

عنوان إدارة التحرير:
Fikrun wa Fann
Prälat-Otto-Müller-Platz 6
D-50670 Köln, Germany

البريد الإلكتروني:
fikrun@goethe.de

الإنترنت:
www.goethe.de/fikrun

ISSN 0015-0932

بامكانكم الحصول على النسخة المطبوعة من خلال الرابط:
http://shop.goethe.de

«فكر وفن» النسخة الإلكترونية
www.goethe.de/fikrun

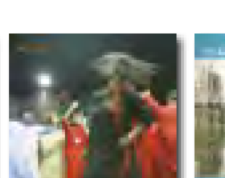
الطباعة: SDV - Saarländische Druckerei und Verlag GmbH

«فكر وفن» مجلة ثقافية تصدر مرتين في السنة وتوزع مجانا. يحق لأصحاب المكتبات أن يبيعوها بسعر لا تتجاوز قيمته ٢,٥ يورو/دولار.

المقالات المنشورة في العدد لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر هيئة التحرير ومعهد غوته.

الغلاف الأمامي: عمال يعملون على تنظيف نهر سولو في جاوا بإندونيسيا من معرض:
Goethe-Institut exhibition Riverscapes.
Photo: Budi N.D. Dharmawan

الغلاف الخلفي: شلالات إيسلندا
Photo: Charlotte Collins

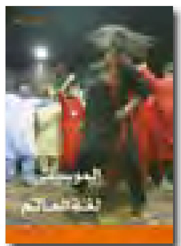


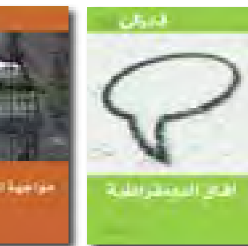
مواضيع الأعداد السابقة:

العدد ٩٥ | منذ أحداث ١١ سبتمبر ولغاية الثورات العربية
العدد ٩٦ | الموسيقا لغة العالم
العدد ٩٧ | آفاق الديمقراطية
العدد ٩٨ | مواجهة الماضي الأليم

موضوع العدد المقبل: ١٩١٤
و مئة عدد من «فكر وفن»











«وكأنه إنساني»
لوحة للفنان: Benedikt Rugar, 2012
من مشروع: Anthropozän
Haus der Kulturen, Berlin, 2013



مونيكا زبيدي | سوزانه شتيملر | كلاوس ليغفي | توماس ماخو
رولف ـ بيرنهارد إسيج | إيليا تروويانوف | إيكارت إيلرس | تقي أخلاقي
زياد الميمي | نضال كاتبة | إيفا أورشبرونغ | عالم غرابوفاك
ماريون روله | أودو شتاينباخ | شتيفان فايدنر | لانا مجافيا | نورية علي تاني

«فكر وفن» النسخة الإلكترونية

WWW.GOETHE.DE/FIKRUN